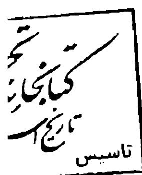
حوارات لقرن جديد

الصوفية رؤية للعالم

ندرة يازجي
هاني يحيى نصري

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

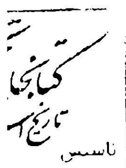


الصوفية
رؤية للعالم

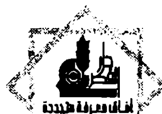
الصوفية رؤية للعالم / ندرة اليازجي، هـــاني يحـــى
نصري.- دمشق: دار الفكـــر،٢٠٠٨ .-٣٧٦
ص؛ ٢٠سم.
١- ٢١٨,٩ ي ا ز ص ٢- العنوان ٣- اليازجي
٤- نصري
مكتبة الأسد

الأستاذ ندرة اليازجي
الدكتور هاني يحيى نصري

الصوفية
رؤية للعالم







٢٠٠٨

دمشق

حاضنة اللغة العربية

دار الفكر - دمشق - برامكة

 ٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

 ٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

Http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

حوارات لقرن جديد

الصوفية رؤية للعالم

نـــدرة يازجي / هاني يحيى نصري

الرقم الاصطلاحي: ٢١٥٢,٠٣١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-005-6

التصنيف الموضوعي: ١٧٠ (علم الأخلاق والفلسفة الأخلاقية)

٣٧٦ ص، ١٤ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م

المحتوى

حوارات لقرن جديد

تحاول هذه السلسلة وهي تتناول القضايا الهامة الراهنة تأسيسَ أرضية معرفية لحوار علمي أوضحَ منهجاً ، وتواصلٍ ثقافي أكبرَ فائدةً ، يُخرج الفكر من الصراع إلى التمازج ، ويُنضج الخلاف ، ليغدو اختلافاً يرفد الفكر بالتنوُّع والرؤى المتكاملة.

كما تهدف السلسلة إلى كسر الحواجز بين التيارات الفكرية المتعددة ، وإلغاء احتكارات المعرفة ، وتعويد العقل العربي على الحوار وقبول الآخر ، والاستماع لوجهة نظره ، ومناقشته فيها ، واستيلاد أفكار جديدة تنشط الحركة الثقافية وتنمي الإبداع.

تتكون كل حلقة في السلسلة من رأيين لكاتبين ينتميان إلى تيارين متباينين ، يكتب كل منهما بحثه مستقلاً عن الآخر ، ثم يُعطى كل من البحثين للآخر ليعقب عليه. ثم تُنشر إسهاماتهما في كتاب واحد ، ليشكل حلقة من سلسلة هذه الحوارات في مطالع هذا القرن الجديد.

القسم الأول

المباحث

الصوفية

رؤية للعالم

١- المبحث الأول: الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة

أ. ندرة اليازجي

٢- المبحث الثاني: الميستية و التصوف

د. هاني يحيى نصري

الصّوفية
هي الحكمة المتحققة
في الحياة

منظور جديد

الأستاذ

ندرة اليازجي

تقديم

تتمثل هذه الحكمة - الصوفية في رسالة كتبها صوفي - حكيم إلى صديق طلب منه أن يشرح له ، على نحو توضيحي ، حقيقة هذه الحكمة الممثلة في مفهوم الصوفية :

صديقي ، شعرت ، وأنا أقرأ رسالتك ، بحدس عميق أشار إلى أنك تلمّح إلى أمر تتجنب الإفصاح عنه ببساطة ووضوح . وأدركت أنك تُخفي ، في عباراتك ومكنونات ألفاظك ، فكرة تشير إلى توق قوي لمعرفة القيمة الكامنة في الحكمة التي تدعى (الصوفية) . وما إن انتهيت من قراءة رسالتك حتى تيقنت أن سعيك إلى طرح موضوع (الصوفية - الحكمة) على بساط البحث حصيلة مخاض داخلي يتفاعل في أعماقك ، على نحو إيجابي ، لكي تتمثل المغزى الخفي والمستتر لمفهوم (الصوفية - الحكمة) . وعلاوة على ذلك ، علمت ، بيقين أكيد ، أن إرادتك ، وهي قوة تنفيذية لتفكيرك الواعي ، تتجه إلى بحث قضية (الصوفية - الحكمة) سعياً

إلى إلقاء الضوء على موقفي منها ، وفهمي لها وتمثلها في وعيي ، وتقليصاً أو إلغاء لسوء الفهم المتصل بتهمة أو صفة أُلحقت بي في صدد هذه القضية ، واعتباري شخصاً متصوفاً اعتزل العالم وانسحب من وسط الحياة الاجتماعية .

دفاع عن الصوفية

شعرت ، بحدسي الداخلي ، أنك تنبهني إلى الواقع الأليم الذي يعاني منه (العقل المنفعل) بمناهج تقليدية خاطئة ، وإلى الفوضى التي يتخبط بها التقويم الأخلاقي والعقلي والنفسي نتيجة لتقويم العقل المكوَّن والمنفعل . والحق ، إني أتمثل ، على نحو عقلي ونفسي ، موقفك من التقويم السائد للمفاهيم الإنسانية والفلسفية والنفسية والروحية والاجتماعية . هذا التقويم الذي يعجز عن التمييز بين المضامين العميقة والحقيقية للكلمات ، والسّرانية الجوهرية والباطنية للمصطلحات . وفي هذا النطاق ، يسعدني أن أُعلمك بأنني مريد أو نصير للصوفية - الحكمة ، ولست متصوفاً انعزالياً .

صديقي - أنا عالم بواقع الأمر ، ومدرك لأبعاد هذه الصفة التي تشير إلى أنني متصوف انعزالي . وأنا عالم بأن بعضهم يسعون إلى إخراجي ، على نحو لا انتمائي ، من دائرة

أو نطاق الوجود الاجتماعي أو الواقعية الاجتماعية . وبسببٍ من أنهم يلجؤون - وهم يلحون - إلى القول بأنني متصوف انعزالي . أنا عالم بما يحاول أولئك الأشخاص أن يضفوا علي من صفة الانعزالي ، أو صفة الروحاني المتعالي الذي يسعى إلى خلاص نفسه عبر تصعيد خاطئ لمركزية الأنا . أنا عالم بسوء الفهم المسيطر على عقول بعض المفكرين الطيبين البسطاء الذين يغامرون في صحراء المتاهة الفكرية ويعجزون أن يهتدوا إلى السبيل القويم الذي يرشدهم وينقذهم من متاهة العقل المنفعل والمكوَّن ، والمشحون بمغالطات التقويم ، ومساوئ التحيّز ، دون القدرة على الخلاص والانعتاق من الإشراطات اللفظية ، والفكرية الاصطلاحية والتقليدية التي تحتجزهم ضمن نطاق (الحرفية) أو (الاسميّة) ، ومن ترجمة المفاهيم والقيم بطريقة خاطئة أو غير منطقية ولا معقولة . لذا أعتقد أنهم أسرى التفسير التقليدي الشائع أو العامي لحقائق المبادئ . فقد لُقنوا التفاسير السطحية العامة التي شُرحت لهم حرفياً في العلوم الإنسانية ، التي أُخضعت لتقويمٍ منهجي خاص ، أو لتفكير فئوي خاص مشروط بنظرة ضيقة للوجود وللكون والوعي والحكمة . وفي سبيل توضيح ما أرمي إليه ، أسمح لنفسي أن أعرض مثلاً يتصل بمفهوم التاريخ . والحق أن دراستي التأملية الواعية زودتني بقدرة

التمييز بين نوعي التاريخ : العام أي العلني ، والسرّاني أي غير العلني . وقد أدركت أن التاريخ العام العلني يسرد أحداثاً عامة أو خاصة ترتبط بتفسير معيّن أمْلَته الظروف الخاصة والأوضاع السائدة . . وأدركت أيضاً أن الأخطاء الفكرية ، والمغالطات الكثيرة ، والتحيّزات العديدة الواردة في كتب التاريخ العام المُعلن تُردّ ، في معظمها ، إلى جهل الحقيقة وعدم معرفة باطن الأحداث وعمقها . وعلمت أن التاريخ السرّي ، وهو تاريخ لا يُدرَّس في معاهد التعليم ولا يعدّ مرجعاً للوقائع الإنسانية المؤلمة ، يلقي الضوء على ما خفي من الوقائع ، ويكشف عمّا استتر من حقائق . والحق أني تأملت الحقيقة التي وجدتها في دراسة التاريخ السرّي ، ووجدت التناقض وإغفال الحقيقة الكامنة في تفسير الوقائع بحسب ما أعلنه التاريخ العام والمعلن . . هكذا ، أدركت أن دراسة التاريخ العلني تتم في المعاهد التعليمية التي تعتمد المنهجية الخاصة . أما دراسة التاريخ السرّي فإنها تتمّ في فهم المبادئ التي تتميز بالحكمة - الصوفية .

ولما انتهيت من إعادة النظر ، وتأمل ما جاء في رسالتك ، سمحت لنفسي أن أحدثك عن الصوفية التي هي الحكمة . وسعيت إلى تدبيج دفاع أخلاقي وعقلي وإنساني واجتماعي أسوّغ فيه حقيقة مبدئي الصوفي . وأعتقد - يا صديقي - أنك

اطلعت على بحثي ، الذي كتبته منذ أمد بعيد ، وعنوانه (الصوفية العقلية) . وإذا ما تأملت ما ذكرته في ذلك البحث ، أدركت حقيقة صوفيتي ، وعلمتَ أن ما أحدثُك به الآن هو مجرد توضيح أشمل وأعمق لمفهوم الصوفية العقلية التي حدثتك عنها في ذلك البحث ، ولمفهوم الصوفية - الحكمة التي أحدثك عنها في الوقت الحاضر . والحق أن دفاعي يتجاوز سوء الفهم المتصل بالصوفية - الحكمة ، ويتسامى على السلبية أو اللاّفاعلية التي أُلصقت بها خطأً ، ويتعالى على الصفة الانعزالية التي أُلحقت بها . ودفاعي هذا يجعلك تعلم أن الصوفية هي الحكمة الأزلية والوعي الكوني الكامنان في عمق الوعي الإنساني والمنبثّان في الوجود الكلي ، والقوة الفاعلة لتحقيق حضور هذا الوجود الكلّي والحضور الأزلي على المستوى الإنساني في كل الأبعاد الفكرية والعلمية والفنية والفلسفية والأدبية والروحية والاجتماعية والاقتصادية . . . إلخ . هذا ، لأن الصوفية هي الحكمة القدسية المختبرة والمحققة على المستوى الإنساني في الحياة الأرضية . وبهذا الصدد ، يقول ألبرت شفايتزر ، الطبيب الصوفي - الحكيم : « أنا الحياة التي تحيا في وسط الحياة التي تريد أن تحيا » . ويضيف شفايتزر قائلاً : « في وسط الإرادة للحياة ، يدرك الإنسان نفسه خلال كل لحظة يقضيها في تأمل نفسه

والعالم المحيط به » . ومن جانبي ، أعتقد أن عبارتَي شفايتزر تحفلان أو تتميزان بالمعنى والمغزى الحقيقيين للصوفية - الحكمة . هذا ، لأن الإنسان الذي يعرف وحدته مع الوجود الكلّي الحضور والحياة الكلّية الحاضرة ، يحيا في وجوده المتعين ليكون الوجودَ الكليَّ ذاتَه المحققَ في واقعية الفيزياء ومثالية الميتافيزياء ، وفي واقعية الوجود ومثالية الوجود أو ما وراء الوجود ، وذلك في توحيد الثنائية الظاهرية للمادة والروح ، والفيزياء ، والميتافيزياء ، والوجودِ وما بعد الوجود . والحق أن المتافيزياء قائمة في الفيزياء ، وما بعد الطبيعة قائم في الطبيعة ، والمثالية قائمة في الواقع . ويمكنني أن أضيف ما يلي : إن المثالية هي الواقع الذي ينشد غايته الشمولية ، والميتافيزياء هي الفيزياء المتحققة على نحو كوني ، وما بعد الطبيعة هي الطبيعة المتجلية في ذاتها . وعلى هذا الأساس ، أستطيع أن أعلن الحقيقة التالية : الصوفية هي تجاوز الثنائية والتعددية إلى الوحدة ، ليكون الإنسان واحداً مع نفسه ومتكاملاً في كيانه ، وواحداً مع الكون ، ومتكاملاً ومتوازناً في حياة إنسانية تروحنت .

صديقي : إذا كنت أهدف ، في رسالتي هذه ، إلى شرح مضمون الصوفية - الحكمة ، فإنه ليتوجب علي أن أوضح المبادئ أو المعالم والأسس التي تقوم عليها الصوفية -

الحكمة في أبعادها العلمية ، والفلسفية والاجتماعية ، والإنسانية والكونية .

حقيقة الصوفية - الحكمة

صديقي . . تشير الدراسةُ التأمليةُ والسّرانية للوجود الكلّي والشامل ، والاستغراقُ في معرفة الحقيقة الكونية إلى أن الحكمة ، في مفهومها الشامل ، تتجلّى في مظاهرها الثلاثة المتصلة :

أ- ثيوصوفيا ، أي الحكمة الإلهية . ب- صوفيا ، أي الحكمة البدئية . جـ- فيلوصوفيا ، أي محبة الحكمة . وعلى هذا الأساس ، يمكنني أن أقول : إن الحكمة الإلهية ، ثيوصوفيا ، هي الحكمة المنبثّة في كل نقطة من نقاط الوجود على نحو متصل؛ هي حكمة تتنوع في مستوياتها ومعالمها الظاهرية والباطنية ، وتحتفظ بجوهر أو بكيان حقيقي واحد ، وإن صوفيا هي الحكمة البدئية التي عرفها الإنسان الأول ، أي الكائن الروحي البدئي ، إذ كان متصلاً بها ، وإن فيلو صوفيا هي الحكمة بعد تراجعها إلى النطاق العقلي ، إذ أصبحت محبة الحكمة أي صوفية عقلية ، والحق أن هذه الحكمة الأخيرة تسعى جاهدة للعودة إلى مصدرها في الحكمة لتكون صوفية - حكمة .

تزودنا هذه المعرفة بالصورة الثلاثية البعد للصوفية - الحكمة . وتتمثل في إطارها الثلاثي المستوى . أولاً ، المستوى الكوني . ثانياً ، المستوى البدئي الذي هو تجلّي المستوى الكوني السابق للثنائية والتعددية . ثالثاً ، المستوى العقلي المتصل بالثنائية والتعددية .

صديقي - أصبحت تدرك أن المفاهيم العامة التي تتميز بها الصوفية - الحكمة لا علاقة لها بالانعزال أو الزهد الزائف ، أو السلبية المتصلة بالانفراد ورفض العالم واحتقاره ، أو بالانتقاص من قيمته ، أو الاستسلام لغيبيات مضللة . أصبحت تدرك أن الصوفية هي الحكمة الكونية والوعي الكوني الذي يدعو إلى تحقيقه في العالم الأرضي ، وأن الصوفي هو الإنسان الحكيم المتميز بوعي عميق على صعيد الروح أو العقل ، والمتصف بفهم حقيقي يمده بالقدرة على ممارسة حياته في العالم وفق مبادئ كونية شاملة وكلية يحقق ، من خلالها ، إرادة الحياة الفاعلة والمتمثلة بالاتصالية الكونية . ووفق هذا المنظور ، يُعدُّ الصوفيُّ كلّ عالم أو فيلسوف أو حكيم ، أي كلّ امرئ يعمل في نطاقات الحياة ، يعرف نفسه ويعرف أسرار الحقيقة المستترة ، أو يحياها ويطبقها ببساطة وحدس وبصيرة ووعي .

الصوفية العقلانية

صديقي - أعتقد أنك تبيّنت ، في أثناء حواراتنا العديدة ، أن العقلانية الفوقية المتسامية ، أي العقلانية التي بلغت أقصى درجات المحاكمة الماثلة في الوجدان صوفيةً هي حكمة . وأعتقد أيضاً أن هذا التصريح يقتضي الوضوح أو الشرح الوافي .

يعد العقل ، الذي هو قمة التكوين المادي ، تعبيراً عن الطاقة الداخلية الكامنة في عمق الكيان الإنساني الروحي . ويعد هذا العقل الأداة ، التي من خلالها ، تفصح الروح أو الوعي الكامن عن ذاته . وكما تعلم فإن هذا العقل يتخذ من الدماغ والحواس أدوات أو قنوات للتعبير والاتصال مع العالم الخارجي . والحق أن العقل الإنساني يتجلّى في مستويات ثلاثة :

المستوى الأول ، هو العقل المرتبط بالواقع الاجتماعي ، والخاضع أو المشروط بالانفعالات ، والتقاليد والعقائد والأعراف التي تقيده أو التي يتصرف ويسلك بموجبها ، وتلقي به في متاهة الضياع والتشتت ، وتخضعه لانفعالية مركزية الأنا الفردية وعصبية الأنا التجمّعية .

المستوى الثاني ، هو العقل المنطقي والعلمي الذي يترأس العالم المادي ، يدرسه ، ويصنفه ، ويرتبه في سلسلة صاعدة ومتماسكة تبلغ مثالية الوعي .

المستوى الثالث ، هو العقل الفوقي المتسامي الذي يستغرق في الحقيقة السامية ، ويعاني الوعيَ الكونيَّ ، ويحيا حضورَه في كيانه . وإذ يبلغ العقل أعلى مستويات المحاكمة المنطقية والعلمية والمعرفية يطل على المبادئ المتضمنة في الحقيقة المطلقة ، ويتمثلها في صوفية - حكمة ، أو صوفية - عقلية .

صديقي ، ألا ترى أن الناس الذين بلغوا هذا المستوى الثالث ، وهم فئة من العلماء النظريين الإنسانيين ، والفلاسفة الأخلاقيين ، والطيبين الأنقياء هم صوفيون حكماء ؟ ألا ترى أن هذا المستوى يتمثل بالعقل الصوفي المتسامي إلى الروح ، ويحقق الغاية العظمى للصوفية - الحكمة التي تعانق الحقيقة السامية المطلقة والوعي الكوني ، ويحيا في سكينة الأبدية وطمأنينة النفس ؟ ألا ترى أن العقل الذي يسمو تدريجياً من مستوى اتصاله بالدماغ إلى مستوى اتصاله بالروح هو عقل صوفي - حكيم؛ هو عقل يتصور شمول الحقيقة وعظمة الوجود ، ويحيا حقيقته الجوهرية ؟ ألا ترى أن العقل الذي

بلغ قمة التصور في العلم والمعرفة عقل صوفي - حكيم ؟ ألا ترى أن العقل الذي صقل وعيه بالمنطق والعرفان عقل صوفي - حكيم ؟ ألا ترى أن العقل ، في جوهره وحقيقته التي تشير بأنه أداة أو قناة الروح التعبيرية ، لا يخرج عن نطاق الصوفية - الحكمة ؟ ألا ترى أنني صوفي عقلي ، وأنني أحيا الأبدية الحاضرة في عرفاني الذي يعاني الأسرار العليا في الأسرار الدنيا ليبلغ المستوى الثالث الممثّل بالصوفية - الحكمة .

العيش في وسط الحياة

إني إذ أتأمل الحالة التي يكون فيها الإنسان حاضراً في العالم ويحيا فيه ، يمثل أمامي واقع (زهرة اللوتس) . وكما تدري فإن الوجود الطبيعي ، أو نظام الوجود قد هيأ المستنقع ليكون الموقع الطبيعي لحياة زهرة اللوتس . وأنت تعلم أن المستنقع رمز للضّحالة والركود والتلوث . وفي هذا الواقع ، الذي تحيا فيه زهرة اللوتس ، يقوم التعارض بين جمال هذه الزهرة وقذارة المستنقع وتلوثه .وإذا ما مررت بالمستنقع ، استوقفتك زهرة اللوتس التي تدعوك إلى تأمل رونقها وجمالها ، ولتتساءل عن سرّ وجود الجمال في وسط المستنقع الملوث . وإذا ما تأملت هذا التعارض أو التناقض الظاهري ،

أدركت أن تلوث المستنقع وقذارته لا يَحُولان دون تألق جمال هذه الزهرة، وعندئذ، تردد مع أحد الصوفيين - الحكماء القدامى العبارة الرائعة: كما يزدهي جمال زهرة اللوتس في وسط المستنقع الملوث، هكذا تزهو الفضيلة، أي الحكمة - الصوفية، في وسط الرذيلة، أي في الوسط الاجتماعي الذي تسوده الفوضى وتحكمه الأنانية.

هكذا، تشترك زهرة اللوتس مع المستنقع في جذور واحدة وأصول مشتركة، لكنها، مع ذلك، تنبثق إلى الوجود الظاهري وهي تتجاوز بجمالها تلك الجذور والأصول المشتركة. وبالمثل، يشارك الصوفي - الحكيم الجذور والأصول والقواعد الاجتماعية المأساوية، ويتجاوز تلك الأصول والجذور الملوثة المشتركة، ليحيا في قلب المجتمع متمثلاً بزهرة اللوتس، ومترفعاً عن كل ما هو مبتذل، وضيع، ودنيء، وملوث.

صديقي، حين تتأمل عظمة هذا المثل وتدرك السر المكنون في رمزه، تتيقن من أهمية حياة الإنسان الصوفي - الحكيم وعيشه في وسط الحياة الاجتماعية دون أن يخضع للزيف التجمّعي والمظهر الكاذب. ألا ترى أن الحكماء - الصوفيين القدامى والمعاصرين يؤكدون على بقاء الإنسان

الحكيم في الوسط الاجتماعي ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً ، ويستبعدون انعزاله أو انفراده عن الآخرين ؟ إنهم يؤكدون ، بل يصرّون على إنسانية الإنسان التي هي اجتماعيته ، في الوسط الاجتماعي ، ويدعونه إلى الامتداد في الآخر الذي هو صورته المنعكسة في الوجود الأرضي . إنهم يعرفون أن انعزاله عن الآخرين والتفرّد بذاته ، موت للحقيقة والحكمة - الصوفية . هذا ، لأن الفضيلة المرموز إليها بزهرة اللوتس لا تحيا ولا يستقيم وجودها الجميل إلا في الحالة الاجتماعية . فإذا كنت ترى نفسك صوفياً - حكيماً أو صوفياً عقلياً ، وأعني ، إذا كنت ترى نفسك زهرة اللوتس ، فما عليك إلا أن تثبت جذورك في المجتمع لترتفع إلى الأعلى ، وتزهو وتزدهي وتتألق كما تزهو هذه الزهرة وتتألق في وسط المستنقع ، وكما يتوجب عليك أن تزدهي وتزهو في وسط التناقضات ، والصراعات ، والأطماع والأنانيات المتناحرة في المجتمع .

يؤكد الحكماء الصوفيون ، الذين حققوا إرادة الحياة في وسط الحياة الاجتماعية ، أن المجتمع هو النطاق الوحيد الصالح لممارسة الحكمة والفضيلة والغاية الأخلاقية والروحية من حياة الإنسان ، والحقل الوحيد لزرع بذور مبادئ الإنسانية السامية ، والوسط الوحيد المهيأ لتحقيق الكيان الإنساني ومبادئ الروح ، والعقل المنطقي أو العلمي الصاعد بتسلسلٍ

أحكامه المترابطة والمتصلة ، والعقل الفوقي المستنير الذي يطل على الحقائق المتآلفة ضمن حقيقة واحدة ، ويحيا الأخلاق الرفعية والمثالية المحققة في الواقع . لذا ، تدعو الصوفية الحكمة إلى العيش في وسط المجتمع لسبب مبرر يشير إلى أن الإنسان لا يعرف إن كان صادقاً أم كاذباً ، متواضعاً أم متكبراً ، حقيقياً أم زائفاً ، قانعاً أم طامعاً ، غيرياً أم أنانياً ، عادلاً أم مستغلاً أو ظالماً ، حنوناً أم قاسياً ، محباً أم كارهاً ، عاطفياً أم شهوياً ، مشاركاً ومتعاطفاً أم متحيزاً ، منفتح القلب والعقل أم متعصباً ومنغلقاً في زنزانة أناه . . . إلخ؛ لا يعرف الإنسان كل ذلك إلا في الوسط الاجتماعي الذي يقضي بمشاركة إنسانيته مع الآخرين . هذا ، لأن الآخر هو مرآة نفس الإنسان وكيانه المنعكس في المجتمع ، أي في الآخر . والحق أن صدقي مع نفسي هو صدقي مع الآخر ، وأنانيتي هي أنانيتي مع نفسي ومع الآخر ، ومحبتي هي محبتي لنفسي وللآخر ، وتواضعي مع نفسي هو تواضعي مع الآخر ، وتكبري هو موقفي المتعالي على نفسي وعلى الآخر ، ومعرفتي هي موهبتي التي أخدم بها الآخر . إذن ، المجتمع هو الذي يهبني القيمة والمعنى ويؤكد حقيقتي؛ وهو النطاق الذي يتجلّى فيه كياني . لذا ، لا أستطيع أن أعرف نفسي في حقيقتها إن أنا أوغلت في فرديتي وتهت في صحراء

انعزالي . هكذا ، تكون حقيقة الصوفية - الحكمة . ولا تتحقق هذه الحكمة - الصوفية إلا في قهر كل انحراف اجتماعي وإنساني يدعى الشر . إنها تحقيق لإنسانية الإنسان في الحياة الاجتماعية .

صديقي - في هذا المنظور ، تدرك أن الانعزال مقاومة سلبية ، وأن الزهد ، بمفهومه السلبي ، استسلام وخضوع لا مبرر له ، وإنكار للحقيقة السامية والوعي الكوني الذي جعل الحياة الاجتماعية موضعاً صالحاً لممارسة الحكمة - الصوفية . فإذا كان المجتمع الموضع اللائق للروح المعبرة عن ذاتها في التاريخ الإنساني ، كانت الصوفية - الحكمة هي القدرة الفاعلة لتحقيق الروح ، عبر مسيرة التاريخ ، في المجتمع . والحق أن الزهد ، في معناه السرّي ، يعني التجرد من الرغبةِ والتعلقِ والشهوة ، والترفع عن الدنايا والأمور المنحطة التي تنزل بالإنسان إلى أسفل دركات النذالة والحقارة ، وليس هو الانسحاب من العالم . لذا ، تأبى الصوفية - الحكمة أن تعد العالم مكان غربة ، أو وجوداً باطلاً أو عبثاً لا جدوى منه يجب اجتنابه . وعلى غير ذلك ، تُعَدُّ الصوفية - الحكمة معرفة إيجابية وموقفاً إيجابياً يتوافق مع الواقع الطبيعي ، والعقلي والروحي ، وذلك لأن الحياة الأرضية هي الحياة السماوية الممارسة والمحققة في نطاق

العمـل والواقـع . هـي ديناميكـية الـروح وإيجابـية العقـل الصـوفي . وعلى هذا الأساس تكمن قيمة ومعنى الصوفية في عيش وتطبيق إيجابية الحكمة في الحياة الاجتماعية ، وفاعلية هـذه الحكمـة في العمـل أو الـتفكير الذي يمارسه الإنسان في وسط الواقع الاجتماعي .

ديناميكية الأمل

صـديقي - أعـتقد أن حواراتنا وأحاديثنا المشتركة السابقة حـول مفهـوم حكمـة الأمـل تمـثل أهمية كبرى في تفكيرك إذ تحقـق مضـمونها الجوهـري . ألا تذكـر ، وقـد تحدثـنا عـن موضـوع العـلم ومصير الإنسـان ، كـيف جعلـنا من ديناميكية الأمـل القـاعدة الأساسـية الـتي نـبني علـيها أملنا لمتابعة مسيرة الـروح والوعـي في الـتاريخ الإنسـاني ، والقـوة الفاعلة لتحقيق الغايـة النهائـية لوجـود الإنسان على الأرض ، وخلاصه وانعتاقه مـن إشـراطات الـتعددية المذهبـية والعقائديـة ، والتناقضـات المتصـارعة في أي نطـاق عـلمي أو معـرفي ؟ ألا تذكـر كيف جعلـنا مـن حكمـة الأمل السبيل الذي تعتمده الحرية النفسية ، ويتبـنّاه الوعـي لإنقـاذ الإنسان من كل مقاومة سلبية ، ومن كل عائق يبقيه أسير حتمية انطوائه وانغلاقه في مركزية الأنا ؟

وإذا ما خطر لك وسألتَ، من جديد، عن تعريف ديناميكية الأمل، أجبت، وأنا أصرّ على ما ذكرتُ في حواراتنا وأحاديثنا السابقة، بأنه القوة الفاعلة والناشطة، والمحيية لطاقاتنا الداخلية، المتمثلة بأبعادنا الوجودية كلها، والمعبر عنها بالمواهب، لتحقيق الغاية من وجودنا الأرضي. والحق أن هذه الغاية مجرد تعبير عن القانون البدئي الذي ينطوي، في ذاته وجوهره، على سرّ وجوده الذي يفصح عنه خلال التعديل الدائم لشخصية الإنسان وتطوره إلى ما هو أسمى وأرقى. والحق أني ذكرت لك سابقاً أن الياء، هي تحقيق نهائي للألف، وأن الألف كمون للياء. لذا، كان وجود الياء في الألف وكان وجود الألف في الياء، وهكذا، يكون كمال الأشياء كامناً في بداياتها.

إنك إذ تتأمل هذه العبارات بعمق، تدرك أن حكمة الأمل تتجاوز مفهوم التفاؤل والتشاؤم. ففي التفاؤل ينطوي التشاؤم، وفي التشاؤم ينطوي التفاؤل على نحو كمون. ألا تذكر حوارنا السابق يوم أعلنتُ لك أن تفاؤلي الناتج عن حصولي على شيء يتلوه تشاؤم ناتج عن فقده أو خسارته؟ ألا تدري أن التشاؤم يبدأ وهو يرافق اللحظة التي أُعلن فيها عن حصولي على ما أبغي على نحو تفاؤل؟ ألا ترى أن التشاؤم والتفاؤل نتيجتان حتميتان للانفعال المرافق للرغبة والتعلّق؟ أما حكمة الأمل

فإنها تعبير عن العقلانية الفوقية المتسامية التي تهدف إلى تحقيق الوجود على الأرض بحكمة - صوفية أو حكمة - عقلية .

صديقي - أعتقد أنك أصبحت قادراً على استخلاص العبرة من كلامي إذ بدأت تلم بحقيقة الصوفية - الحكمة ، هذا ، لأن الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي يتميز بعقلانية فوقية ، هي صوفية عقلية ، وبفاعلية ناشطة ، وديناميكية تحرك عمق كيانه باتجاه معرفة الحقيقة ، وسر الوجود والغاية النهائية للحياة . لذا ، لا يتصف الصوفي - الحكيم بالانفعال والموقف السلبي . فهو إنسان فاعل في قلب الحياة ، والمعيشة ، والمجتمع ، والطبيعة والكون . . . هو الإنسان الذي ينشّط طاقته لتحقيق انسجام مع القوانين الأرضية والكونية ، وللعمل بموجبها وبما يتلاءم معها ، وليس هو المتصوف الانعزالي الذي يسلب الوجود قيمته ومعناه ، ويجرده من حقيقته الإيجابية . هو من يعمل لرفع مستوى الوجود على نحو مادي وروحي ، ويروحن المادة بصوفيته - حكمته .

فلسفة الصعوبة

صديقي - أعتقد أنك لا تزال تذكر تلك اللحظات الجميلة والهادئة التي أمضيناها معاً ونحن نناقش القيمة

المعزوة لحياتنا وواقع وجودنا على كوكب الأرض . أعتقد أن حوارنا ، إن لم يكن جدلنا ، قد تمحور حول الواقع المأساوي لوجود الإنسان ، والسبب أنك كنت تعاني من ألم سلبي دفين ، ألم متصل أو ناتج عن فراق من تحب ، ومن إحساس بالوحدة أو العزلة الحاصلة عن ذلك الفراق الصعب . ومن جانبي؛ أذكر أنك تتهم الوجود الأرضي والكوني على نحو مفعم بالتشاؤم ، والتفاهة ، والعبث واللاجدوى ، ورأيته مصيبة كبرى . ولئن كنت قد حدثتك ، في مناسبات أخرى ، عن الاختلاف بين الصعوبة والمصيبة ، لكنني أعود مرة ثانية ، لأذكرك بما كان يدور بيننا من أحاديث تتصل بفلسفة الصعوبة .

صديقي - ألا تذكر أنني ركزتُ ، ونحن نعالج موضوع صعوبة وجودنا الأرضي والكوني ، على قانون الصعوبة الذي يهيمن على وقائع ومعطيات كوكبنا ؟ وإذا كانت الصعوبة الملازمة لتطوير العقل هي القانون السائد في حياتنا الأرضية ، فأستطيع أن أقول : إن الصعوبة ترافق وجودنا انطلاقاً من لحظة ولادتنا حتى لحظة فراقنا لهذا الوجود . والحق أن قانون الصعوبة ضرورة كونية وأرضية تقتضي تطوير العقل الإنساني وتحريضه على فاعلية التفكير الإيجابي . وإذا كان الإنسان يحيا في عالم تسوده الصعوبة ، فلكي يتجاوز هذه الصعوبة

بفاعلية روحية ، هي مقاومة إيجابية تعارض كل مقاومة سلبية ، وبفاعلية فكرية وأخلاقية سامية دون تحويلها أو حرفها إلى مصيبة . لذا ، يعد الوعي ، أي الحكمة - الصوفية ، السبيل الوحيد لتجاوز الصعوبة والتغلب على المصيبة ، التي هي مقاومة سلبية ناتجة عن عدم انتصارنا على الصعوبة ، وهكذا ، تدرك أن التجاوز أو التغلب يتحقق في تنمية الوعي والحكمة الصوفية .

صديقي - تستطيع الآن أن تتصور حقيقة الصوفي - الحكيم : إنه إنسان يرى صعوبة الوجود الأرضي ، يدركها ويعمل جاهداً على تجاوزها ، لا في ابتعاده وانسحابه من العالم ، بل بالعيش والبقاء في وسط العالم ، ويسعى جاهداً لتعليم الآخرين كيف ينتصرون ويتسامون وهم يجدون في الحكمة الصوفية المثال المحتذى . هكذا ، يدأب الصوفي - الحكيم ساعياً إلى تحمل الصعوبات التي تلازم واقع الوجود الأرضي ويتجاوزها ، وذلك لكي لا تتحول إلى مصائب . والحق أن سبيل الانتصار والتجاوز لا ينحصر في عمل معين أو مهنة معينة ، بل يتحقق في كل عمل أو مهنة . أما الانسحاب من العالم والمجتمع فنوع من الهروب وإحاطة الأنا بهالة التعالي الزائف والظهور المتعمد وفرض مركزية الأنا على الآخرين . وهكذا ، تعلم أن الصوفي - الحكيم لا يعتزل

العالم ولا ينسحب منه ، ولا يعلن موقفه التشاؤمي ، فيقول : باطل هو العالم ، مصيبة هي الحياة . وعلى غير ذلك ، تظل جذور وجوده عميقة في الحقل الاجتماعي ليعلن فلسفة وحكمة الأمل دون أن يتباهى بموقفه الحكيم الرائع ، فيقول : عظيم هو الوجود ، عظيم هو العالم الذي يستحق الجهد ، جهد المعرفة . وعندئذ ، يعلن خلاص العالم وخلاصه من خلال حكمة الصعوبة التي تشير إلى إحياء القوة الفاعلة في كيانه ، وتنشيط الإرادة الحرة الممثلة بالوعي والحكمة - الصوفية ، وممارسة المقاومة الإيجابية التي تُنهي المقاومة السلبية التي تقويها المادة ومركزية الأنا . لذا ، كانت المصائب حصيلة المقاومة السلبية التي تقيّد الإنسان وتخضعه لحتمية أو قدرية صارمة .

الإرادة الحرة الفاعلة والواعية

صديقي - أعتقد أن حديثنا السابق الذي دار حول موضوع الإرادة الواعية يحتل مركزاً هاماً في تفكيرك وسلوكك . وأعتقد أنك تذكر كيف انتهى حوارنا إلى الاتفاق أو التفاهم على أن الإرادة الفاعلة قوة تنفيذية للتفكير الواعي والمحاكمة العقلية السليمة والصوفية - الحكمة . وعلى هذا

الأساس، توصلنا إلى الاعتراف بأن الإنسان الواعي والحكيم يفكر، ويعقل ويحاكم، ومن ثم يريد وينفّذ. وإذا كانت الإرادة قوة تنفيذية للتفكير الواعي والحكيم، فَلِتَنْأَى عن أن تكون انفعالاً لا يعتمد الحرية الفكرية التي تقوم، في أساسها، على المحاكمة السليمة الواعية، وترتكز على الحكمة - الصوفية. والحق أن حرية الاختيار، الماثلة في الإرادة الحرة الواعية والحكيمة، هي الإرادة الفاعلة والإيجابية التي تشير إلى أننا نعرف ما نريد ونريد ما نعرف، ونختار سبيل حياتنا بحرية واعية وحكمة صوفية.

إذا كان ما ذكرته في الفقرة السابقة صحيحاً أو معقولاً، فجدير بك أن تتساءل: كيف تكون إرادة المتصوف الانعزالي، المنسحب من وسط العالم إلى صحراء الاغتراب، والزهد بحقيقة الوجود القائمة على الفاعلية الناشطة، والمدعي بتفوقه الأخلاقي والروحي الذي أحاط نفسه بهالة المجد والظفر والتقوى، والرافض لمنطق العلم الكامن في الوعي والحكمة؛ كيف أفهم حرية اختياره إن كان قد تخلّى عن واجب تحقيق علاقته الاجتماعية والإنسانية؟ ما هي إرادته الحرة أو الفاعلة؟ وما هو الاختيار أو الحكم الذي تنفّذه هذه الإرادة؟ ما هو الفكر الواعي الذي تنفذه لتكون حرة في اختيارها؟ ما الإرادة الفاعلة والحرة التي تعبر عن موقف إنساني منعزل لا

يعرف ما يريد ، ولا يريد ما يعرف . . . إنسان تجرد من كل علاقة إنسانية واجتماعية تتمثل بالواجب الذي يقضي بتنفيذه في النطاق الاجتماعي ؟ ألا تعلم أن الإرادة الحرة الواعية قوة فاعلة في الواقع الاجتماعي لا تخرج عن النطاق الذي رسمته (الحقيقة السامية) أو (الحكمة الكونية) أو (الوعي الكوني) لتحقيق الإرادة الواعية على المستوى الأرضي ؟ والحق أن الإنسان لم يوجد بمفرده وحيداً في العالم . وإذا ما تنكّر المتصوف الانعزالي ، الرافض لحقيقة وجوده ، لهذا المثال المطبق والمحقق في الواقع الطبيعي والاجتماعي والإنساني ليكون الواقع متوافقاً مع المثال ، يكون قد تنكّر أيضاً لحقيقة الحكمة - الصوفية وأصاب المثال الكامن في الواقع ، وكان السبب المباشر لاتهام الصوفية - الحكمة بالهروب من العالم ، ورفض الواجب ونبذه . لذا ، كانت الإرادة الفاعلة أو حرية الاختيار هي إرادة الحياة الكلية والشاملة ، وهي تمارس حقيقة وجودها على مستوى كوكب الأرض ضمن النطاق الطبيعي والاجتماعي والإنساني . وفي هذا المنظور ، يحيا الصوفي الحكيم في قلب الإنسانية التي تدعوه إلى التعاطف والمشاركة ، ويهرب المتصوف الانعزالي من مسؤوليته وواجب وجوده في وسط الحياة الإنسانية حيث يمارس حكمته - صوفيته .

مبدأ التحمل

صديقي - إذ تتأمل المعنى المنطوي في مبدأ التحمل ، تتأمل - في الوقت ذاته - مفهوم الصبر ، وتتفهم الفرق الكبير بينهما . فالصبر ، كما تعلم ، تعبير عن قبول خارجي وظاهري ورفض داخلي . وفي هذا القبول الظاهري والرفض الضمني أو التذمر الداخلي إنكار للحقيقة في كل مستوياتها . فإن كنت تدعي بأنك تعترف بوجود حقيقة سامية وترفض ، في آن واحد ، الحياة وفق مبادئها ، فإنما يعني ذلك أنك تعد الموت شراً أو مصيبة ، تماماً كما تعد الوجود المنبثق من الحقيقة السامية مصيبة . وإن كنت تدعي بأنك تقف من ظروف الحياة أو المعيشة وصعوباتها موقف من يحرفها إلى مصائب ، ترفض أن تكون قوة فاعلة في مضمار الوعي والحق والحكمة . هذا ، لأن الصبر مجرد استسلام لكل اعتقاد بالقدر والحتمية ، ورضوخ للضعف الإنساني المجرد من إرادة الحياة . أما التحمل فإنه يتّسم بمعلمَيْه الرئيسين : المعلم الأخلاقي والمعلم العقلاني المتسامي والمستنير . والحق أن المعلم الأخلاقي تعبير عن الموقف المتسامح إزاء تصرفات وسلوك الآخرين ، على أساس أن الإنسان الأخلاقي المتسامح يتجاوز كل شر ، وأذى ، ونذالة ، أو ابتذال ، أو انحطاط أو خطأ يصدر

عن الآخر . وفي هذا التسامح ، تتألق المحبة الإنسانية . ويشير المعلم العقلاني المستنير إلى التسامح إزاء المعتقدات ووجهات النظر التي يعتنقها الآخرون ، وإلى الانفتاح العقلي الذي يتيح فرصة فهم مواقف الآخرين الفكرية قبل الحكم عليها بتحيز وتعصب ، ويسمح بإقامة حوار يعتمد على بنية عقلية ونفسية منفتحة . . . في التحمُّل العقلي تتحقق الصوفية العقلية المتسامية إلى صوفية - حكيمة .

صديقي - في هذا المنظور ، تدرك أن الصوفي - الحكيم هو الإنسان المتحمل من وجهة النظر الأخلاقية والعقلانية المستنيرة في جوهرها ، فهو يعلم أن الوجود على مستوى كوكب الأرض يتألق بالتعددية المتنوعة التي تعبّر عن وحدة الحقيقة في أشكالها وصورها وتعبيراتها الكثيرة؛ الأمر الذي يشير إلى تنوع التجارب والخبرات ، وتنوع الجمال في الحقيقة الواحدة أو النطاق الواحد . ألا تذكر ما قاله أحد الحكماء الصوفيين : إن الجسد ليس أذناً واحدة ، أو عيناً واحدة ، أو قلباً واحداً ، أو معدة واحدة . . . إلخ؛ إنه العين والأذن والقلب واليد والمعدة والرئتان والدماغ . . . إلخ . إنه الكثرة الفاعلة في الوحدة الجسدية التي تلحم جميع الأعضاء والأجزاء . وبالمثل ، يعد كوكب الأرض جسداً واحداً تتعدد فيه وجهات النظر الفكرية والعقائدية والدينية والفنية . . . إلخ .

والحق أن الصوفي - الحكيم هو من يحقق تأليفاً لهذه التعددية في كيانه لتكون حقيقة واحدة من خلال مبدأ التحمل العقلاني المتسامح والتسامح الأخلاقي .

أحب - وقد شرحت لك مبدأ التحمل - أن أضيف إلى ما ذكرته ما يلي : الصوفي - الحكيم ، في تحمله وتسامحه ، لا يدّعي (التصوّف) في ظل عقيدة واحدة أو وجهة نظر واحدة؛ هذا ، لأن الانضواء تحت عقيدة معينة أو منهج معين لا يسمح بتحقيق الحكمة والوعي إزاء الآخرين ، وبذلك يقلّص مبدأ التحمل العقلاني والتسامح الأخلاقي إلى حدودهما الدنيا المغلقة . وهكذا ، تدرك عدم وجود أنواع من الصوفية . ومع ذلك ، تعترف بوجود أنواع من التصوف العقائدي . هذا ، لأن الصوفية حكمة تؤلف التعددية والتنوع في الوحدة . . . هي اعتراف بوجود الحكمة في تعدد تجاربها الروحية دون اختزالها إلى منهج وفق عقيدة معينة . . . هي الموقف العقلي والروحي الذي يحتضن الكل في محبة فائقة . . . هي صهر التنوع في الواحد . . هي الاعتراف بوجود تجارب روحية متنوعة تهدف إلى تحقيق القدسية الروحية .

تقديس الحياة

صديقي - حدست ، وأنا أقرأ رسالتك ، بأنك تتساءل عن المعنى المضمون في عبارة « التعاطف مع كل شيء » . ويتردد صدى تساؤلك في داخلي ، ويوقظ في كياني إحساساً أو شعوراً بعظمة الوجود الإنساني والإجلال أو التوقير الذي أضفيه على كل ما هو حي ، كل ما هو مادي ، وكل ما هو نفسي وعقلي وروحي . ويتضاعف هذا الشعور أو الإحساس بإجلال الحياة أو تقديسها أو توقيرها ، إذ أتأمل السر المكنون في كل شيء . فإذا ما ركزت تفكيري لأدرك حقيقة أي شيء ، في نطاق المادة الصلبة أو النبات أو الحيوان أو الطير أو الإنسان ، اكتشفت العمق الكامن في جوهره . فما إن أتأمل النحلة أو النملة أو الطائر أو الذرة أو الجوهر أو الخلية أو الزهرة أو الكوكب ، حتى أجد الكون كله ممثلاً فيها أو فيه ، وأشاهد الحياة وهي تضطرم بألق النور وإشعاع الوعي والحكمة الصوفية . وهكذا ، أرى العظمة المتجلية في أدق الأشياء وأصغر الجزيئات والقسيمات ، وأدرك اتصال الكائنات والأشياء كلها بالوعي الكوني . وإذا ما استشرفت هذه العظمة وعاينتها في سرانية عمق روحي ، أدركت أنني أُجلُّ الحياة وأقدسها ، وأتعاطف مع كل شيء ، وأقدر وأوقر كل ما ينبض

بالحياة الإنسانية والطبيعية والكونية . وعندئذ ، أشعر ، بل أعاين الوحدة التي تشمل الكل وتشمل كل شيء يتضمن فيها ، وأدرك سرانية وعمق جوهري وكياني المتصل بعمق وسرانية كل شيء .

إذ أبلغ هذا العمق من التأمل الواعي الملازم لإجلال الحياة وتوقيرها وتقديسها ، وأحقق التعاطف مع كل شيء ، وأُسقط العداء أو التناقض بين الأشياء ، وأُنشئ الانسجام والتوافق والتكامل والتداخل ، أبلغ مستوى التوفيق بين الحياة الطبيعية وحياتي الداخلية ، وأقيم تكاملاً بينهما يتألق في وحدة ضمنية . وفي هذا التكامل أو الانسجام أو الوحدة ، أتوقف عن إقامة حد فاصل بينهما . وفي هذه الحالة ، أعترف بالحياة الواحدة المتجلية في كل شيء ، وأؤكد وحدة حقيقتي وحقيقتها ، وأغتبط لحياتي في الوجود الأرضي لعدم وجود ثنائية أو تعددية جوهرية بيننا . وإذا ما أدركت حقيقة وجودي ووجود الحياة ، يبطل العداء ، وتسود المحبة ، ويزداد تَوْقي لمعانقة الكل دون أن أكره كينونتي ، أو ألعن الوجود الأرضي ، أو أحتقره ، أو أتذمر أو أشكو أو أتشاءم . هذا ، لأن من يكره الوجود الأرضي ، أو يتذمر منه ، أو يرفضه ، يكره ويرفض الوجود الكلي . لذا ، لا يتحقق الوجود الكلّي إلا بتحقيق الوجود الأرضي والحياة في الصوفية – الحكمة .

صديقي ، ألا ترى أن الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي يحيا في وسط قدسية الحياة ، يعانق الكل ويتعاطف مع القسيمات والأجزاء والأشياء؛ إذ يدرك أن حياته وحياتها حقيقة واحدة ؟ وفي إدراكه هذا ، يتّحد مع الكل إذ يتّحد مع نفسه ، ويهيئ الوجود الأرضي ليكون النطاق الروحي الذي يتمدى ، أي يصبح مادياً ، في حياة الأرض ووعيها وحكمتها .

التوفيق بين الحياة الداخلية والأخلاق الفاعلة

صديقي - عندما أتأمل حياتي الداخلية ، وأعاين ألق النور المنبعث في داخلي ، وأصغي للنداء الأخلاقي الآمر الذي يتمثل بناموس نحتته في داخلي الحقيقة السامية لتوحّدني معها ، أدرك أن حياتي الداخلية هي حياة قدسية ومباركة لا أسمح لنفسي بتدنيسها وهي تهيب بي وتعلن حقيقتها بصراحة ووضوح : عليك أن تحدث توفيقاً بين حياتك الداخلية القدسية وأخلاقيتك الفاعلة . هذا ، لأن الحياة الداخلية القدسية تُطبق وتُحقق في الفاعلية الأخلاقية الواقعية . وعندئذ ، أتساءل : من أي مصدر أستمد فاعليتي الأخلاقية ؟ وكيف يمكنني تحقيق ملكوت الحقيقة السامية في ملكوت الحقيقة الأرضية ليكونا واحداً في ثنائية ظاهرية ؟

وحين تعلم أن العبارات السابقة والتساؤلات المذكورة مظهر مثالي للتوفيق بين حياتك الداخلية وأخلاقيتك الفاعلة ، تفهم أن هذه الأخيرة لا تجد نطاقاً أو وسطاً لتطبيقها إلاّ في الحقل الاجتماعي . وإذ تدرك هذه الحقيقة ، تستخلص المقولة التالية : عليك أن تعمل بجد ونباهة لتحسين الوضع الإنساني في مستوياته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسية والفكرية ، ورفع مستوى الكائن البشري إلى ذروة الحكمة والوعي ، وتوجيه النظم الاجتماعية وإرشادها إلى المشاركة والتفاهم في سلام وسكينة المحبة ، وتقليص أو إلغاء الفروق المذهبية والطائفية التقليدية والعقائدية ، وتوحيد العقل الإنساني بتنوعاته في شجرة تحمل الأغصان العديدة المتآلفة والمتكاملة ، وحث الطاقة الإنسانية لتحقيق الغاية المثلى المنشودة في الوجود . والحق أن هذه المبادئ تشير إلى واقع إنساني يتطلب التحقيق في مثالية الحياة . وإنك إذ تعلم هذه الحقيقة وتدرك هذا الواقع ، تتأكد من أن العيش في المجتمع ، وليس الهروب منه أو رفضه هو السبيل الوحيد للتوفيق بين الحياة الداخلية ، التي تتألق بنور الوعي الكوني ، والأخلاقية الفاعلة التي تسعى إلى تحقيق الحياة الداخلية في الواقع الإنساني . وعندئذ ينسجم ما هو فردي مع ما هو اجتماعي ، وما هو كوني مع ما هو أرضي ، وما هو كياني مع ما هو إنّي .

صديقي - ألا ترى أن سوء الفهم الملحق بالصوفية - الحكمة يحول دون هذا التوفيق الرائع ؟ ألا ترى أن الصوفية - الحكمة هي مبدأ كوني مطروح في الواقع الطبيعي والإنساني والاجتماعي عبر مستوياته كلها ؟ ألا ترى أن الفاعلية الأخلاقية الناشطة لا تتجلّى إلا في المجتمع ومن خلاله ، ولا تتجسد إلا في العلاقات البشرية ، الأمر الذي يعني أن يعيش الصوفي - الحكيم أخلاقيته الفاعلة ويحياها ؟ وهكذا ، تعلم أن الحياة الداخلية تفقد معناها وقيمتها ، وتنقلب إلى ضدها ما لم تكن الأخلاقية الآمرة فاعلة في الحقل الإنساني والاجتماعي . وعلى هذا الأساس ، تدرك كيف تسعى جاهداً إلى تحقيق هذا التوفيق في المبادئ الثلاثة التالية :

أ- السمو بالوجدان الفردي والاجتماعي .

ب- التكامل الداخلي ، أو توحيد مستويات الكيان وأبعاده ، أي توحيد الوظائف النفسية .

جـ- وضوح الغاية من الوجود .

صديقي - يجب عليك أن تعلم أن تحقيق هذه المبادئ الثلاثة في فعل واحد مقولةٌ تشير إلى تحقيق قدسية حياتك الداخلية . ولا يتم هذا التحقيق إلا بالتأمل . والحق أن مفهوم

التأمل يؤكد العلاقة الضمنية والعلنية بين الإنسان وكل ما يحيط به . وإذا ما تأمل الإنسان وجوده ، أدرك أنه يتأمل نفسه . وإذا ما تأمل قدسية حياته الداخلية ، أدرك قدسية حياته الكونية السامية ، وعلم أن ما هو طبيعي وكوني هو داخلي وباطني ، وسعى إلى إحداث توفيق بين عالم الداخل وعالم الخارج .

صديقي ، ألا ترى أن المتصوف الزاهد والانعزالي يعجز عن هذا التوفيق؛ لأن انعزاله عن الواقع الاجتماعي والإنساني يحول دون معرفة هذا الواقع ، فلا يعيشه ولا يحياه ؟ وإن كان تخلّيه عن هذا الواقع يدفعه إلى ظاهرية التحقيق ، فإن عيشه لحقيقة داخلية مزعومة يفترض انسحابه من المجتمع والعالم ، كما يفترض انعزاله وغربته . إنه غريب عن العالم . وفي هذه الغربة ، تتقوض أسس الحياة الداخلية التي لا تتحقق إلا بالفاعلية الأخلاقية . وعلى غير ذلك ، يمارس الصوفي - الحكيم حكمته ووعيه في حقل الواقع ، ويعمل في مجال أية مهنة دون تذمر أو شكوى ، ويحيا في وسط المجتمع ، ويتأمل مغزى وجوده الاجتماعي كل يوم ، ويحقق أخلاقيته الفاعلة في الواقع الإنساني .

معرفة النفس ومعرفة الحقيقة

صديقي - لدى قراءة رسالتك ، أدركت أنك تطرح على نفسك السؤال التالي : كيف أستطيع أن أعرف نفسي وأعرف الحقيقة ؟ كيف أستطيع أن ألم بشمول الوعي ، وبالسرّ الذي يحيط بالحقيقة ويطويها أو يخفيها في باطن داخلي يصعب سبره والتعمق إلى جوهره ؟ وإذا ما حاولتُ الإجابة عن تساؤلك ، قلت : إن النفس هي الطاقة الحيوية الفاعلة في كيان الإنسان . وتتألف هذه النفس من مكوّنات ثلاثة متصلة في أساسها وصميمها . والحق أن الإنسان الذي يتفهم الصلة الجوهرية لهذه العناصر أو المكونات الثلاثة ، يهيئ ذاته لمعرفة نفسه . وإذا ما جهل الإنسان هذه الصلة ، أو عجز عن إقامة التوازن بين المكونات أو العناصر الثلاثة أو بين المكوّنين الأولين ، أحدث انقساماً أو تجزئة أو فصاماً في نفسه . وفي هذا الفصام أو الانقسام أو التجزئة ينبثق جهل النفس إلى الوجود ، وينبثق معه القلق والاضطراب ، ويصدر كل شر مجسّد بالانفعال والأنانية ، ويتحول الإيجاب إلى السلب .

وإذا ما ركّزت تأملك على معرفة هذه الصلة الصميمة بين مقومات النفس الثلاثة ، أجبتُ بأن النفس الإنسانية تتألف

ظاهرياً ، وليس جوهرياً ، من الأنا والذات والكيان . فالأنا : هي تجمّع الطاقة المادية كلها ، بخصائصها العقلية والنفسية ، في نقطة أو بؤرة هي الأنا . وتمثل هذه الأنا الوجود الإنساني منذ بداية تكوينه في الخلية . وهكذا ، تشتمل الأنا على سيرة الحياة الماضية بكاملها ، وتجسّد اللاشعور واللاوعي الجماعي ، وهو وعي كامن ، منثنٍ فيها . والذات : هي الشعور الحاضر ، أو الوعي الحاضر . والحق أن توازن النفس يتحقق في التوازن القائم بين الأنا والذات وتوحيدهما في مجال المعرفة . هذا ، لأن الذات تسعى إلى فهم حقيقتها ، أي إدراك لاشعورها أو لاوعيها الكامن . فإذا أدركت لا وعيها الماضي المعبّر عنه بالوعي الحاضر ، توازنت وتكاملت . وهكذا تبدأ معرفة النفس . أما الكيان : فهو التوحيد الكامل للفاعليات أو الوظائف النفسية والعقلية ، توحيدها الذي يؤدي إلى إلغاء كل إشراط ، أو كبت أو رغبة أو انفعال ، وذلك في سبيل تحقيق الجوهر الروحي غير المنقسم .

صديقي - إذا حققْتَ هذا التوازن القائم بين الماضي السحيق ، المعبّر عنه باللاوعي أو اللاشعور الذي هو الأنا ، وبين الحاضر المعاش المعبّر عنه بالوعي أو الشعور الحاضر ، وهو الذات ، حققت معرفة النفس؛ هذا ، لأنك تتخلّى عن الإنسان العتيق ، الذي هو الأنا ، وتتبنّى الإنسان الجديد ، إنسان

معرفة الذات أو معرفة النفس . وإذا ما تعمقت في باطن وجودك ، أدركتَ سر كيانك وجوهر كينونتك ، وفي هذا الصدد ، أحب أن أقول : إن الصوفي - الحكيم هو الإنسان القادر على تحقيق التوازن الداخلي بين الأنا والذات أولاً ، وتجاوز هذا التوازن النفسي ، الذي يحقق مصالحة بين الأنا والذات ، إلى الكيان الروحي الذي يخلو من كل انقسام أو تجزئة ثانياً . والحق أن معرفة الحقيقة تكمن في الكيان الروحي المتحد في سكينة السلام والمحبة والقدسية . وفي هذا المنظور ، ينشأ اتحاد بين الأنا والذات في الكيان الذي يشير إلى وحدة الحقيقة . ومع ذلك ، أحب أن أنبّهك إلى أمر هام هو أن تحقيق هذه المعرفة المتكاملة في الكيان لا يرتبط باتجاه فكري معين ، أو بعقيدة معينة ، ولا يكون في انعزال صارم يفرضه الإنسان المتصوف على ذاته فينبذ المجتمع ، بل في كل عمل إنساني يحقق فيه الوجود القدسي ، وفي كل فعل اجتماعي يتّسع ليشمل دائرة الإنسانية بأجمعها . وهكذا ، تدرك أن معرفة النفس سعي أو جهاد دؤوب غير منقطع في دروب المعرفة الكونية الشاملة . وفي كل معرفة من أنواع العرفان تمثُل معرفة الحقيقة . فإذا ما التقيت الإنسان المتوازن والمتكامل في نفسه ، والعارف لهذه النفس ولهذه الحقيقة المتحدة في كيانه ، أدركتَ أنك التقيتَ صوفياً - حكيماً

يرشدك إلى المعرفة التي أتقنها وأوصلته إلى معرفة الحقيقة والحياة فيها .

مبدأ المحبة والألم الإيجابي

صديقي - إنك إذ تتأمل الوجود بوعي ، وتعرف كيف تتآلف عناصره ومكوناته وكواكبه ومجراته بعضها مع بعض ضمن نظام كوني بفعل الجاذبية ، تدرك معنى مبدأ المحبة . عندئذ ، تفهم أن الجاذبية ، في لغة العلم ، هي التعبير الأمثل عن المحبة . هذا ، لأن الانسجام ، والتناغم ، والتوافق ، والائتلاف ، والتكامل المشترك ضمن نظام كوني ، مفاهيم تمثل الجاذبية التي توحد الوجودات الفردية والجزئية ، وتحدث اتصالاً ضمنياً بين الكائنات المتعددة والمتنوعة في خلفية واحدة تلحم جميع التعارضات والثنائيات والتعدديات . وإذا ما ابتغيتَ التعبير عن التجاذب والتنافر أي النبذ ، وفق مفهوميهما العلمي والكوني ، في المفهوم الإنساني والاجتماعي والشمولي ، سعيتَ إلى التحدث عن المحبة والكراهية . فإذا كانت المحبة تقوم مقام الجاذبية بمفهومها الإنساني ، كانت الكراهية تقوم مقام النبذ أو التنافر بمفهومها الإنساني . في التنافر أو النبذ تهيمن المقاومة السلبية التي تبعثر حبات عقد

الوجود ، وفي الكراهية تسود المقاومة السلبية ذاتها بحيث تؤدي إلى تنافر القيم الإنسانية التي تؤدي ، بدورها إلى النبذ والتناقض والصراع الذي ينتهي بالتدمير والخراب . وفي المحبة تلتقي مكونات الوجود في الألفة والتكامل .

يعلمك مبدأ المحبة كيف تتحد أو تتكامل مع كل ما يحيط بك . وليست محبتك للعالم ، بممالكه النباتية والحيوانية والترابية والإنسانية ، إلا اتحادك به وتوحيد كيانك مع كيانه . . . في المحبة تختزل الثنائية والتعددية أو تُلغى ، وليست كراهيتك للعالم ، بممالكه كلها ، المعبّر عنها بالأنانية وجهل الغاية القصوى للحياة ، إلا انفصالك عنه ، وتسلطك عليه وفرض سيادتك الزائفة عليه ، واستغلالك له ، وإقامة حاجز أو حجاب بينك وبينه . . . في الكراهية ، تلفظ العالم ويلفظك العالم ، ترفضه ويرفضك ، تؤذيه ويؤذيك ، وتبقى مرتبطاً بقانون الموت والحياة ما دمت تكرهه أو ترفضه . والحق أنك لا تتحرر من هذا القانون إلا بمحبتك للعالم واتحادك معه . إذن ، فمحبتك للعالم تنقذك من قانون الذهاب والإياب ، المعبّر عنه بالعودة التي تشير إلى وجوب اكتمال أو تكامل الإنسان في هذا العالم . هذا لأن كمالك مرهون ، أو متصل بمحبتك للعالم ، ونقصك ينتج عن كراهيتك له ، وإذا شئت الوضوح ، قلتُ : إن كراهيتك للعالم ورفضك له يرتّبان

عليك عودات عديدة . هذا ، لأن واجبك يفرض عليك محبة العالم . وفي محبتك هذه ، تتحد معه ، وترى نفسك وهي تنعكس في آلاف الوجودات والكيانات والظاهرات الأخرى . ولا أخفي عنك حقيقة هي أن المبدأ الأساسي للمحبة يكمن في علاقتك الحميمة والصميمة مع الإنسان والعالم . وهكذا ، تجد في العبارة التي ذكرها أحد الحكماء - الصوفيين ، وهي : « أن تحيا أو تعيش يعني أن تقيم علاقة ودية ، وثيقة ومتبادلة ، تتألق بالمحبة مع كل إنسان ، ومع كل شيء » ، الحقيقة الحياتية العظمى ، والصوفية - الحكمة الرائعة .

صديقي - إني إذ أحدثك عن مبدأ المحبة ، أجد نفسي ملزماً بالتحدث عن الطريقة التي تتحقق بها هذه المحبة ، وعن السبب أو الأسباب التي تدعو إلى تحقيقها ، والنتيجة أو النتائج التي تلخص سيرورتها وسياقها . وهكذا ، أستطيع أن أقول : إن علاقتك مع الحياة ، مع الطبيعة والعالم لا تقوم على عقيدة التسلط والسيطرة والاستغلال ، بل تقوم على مبدأ سيادة المحبة والمعرفة والتوجيه . لذا ، أرجو ألا تسمح لنفسك أن تسيطر على العالم أو تتسلط على ممالكه أو تستغله . هذا ، لأن سيطرتك عليه تعني أنك أقمت حاجزاً بينك وبينه ، ووضعته في منزلة أدنى ، أو جعلت منه أداة تستغلها لتنفيذ مآربك ومصالحك الناتجة عن الأنانية . أما سيادتك الحقيقية فإنها

تعني أنك تسعى إلى فهمه ومعرفة أسراره التي هي أسرارك ، وأنك تقيم انسجاماً معه على نحو تتآلف فيه مع الحيوان والطير والنبات والجماد والإنسان ، وتنشئ علاقة وطيدة أو صلة مع كل شيء ، بحيث ترى نفسك في كل شيء . وفي هذه السيادة الحقيقية ترفع العالم والطبيعة إلى مستوى الروح . وبقولي هذا ، أعني فهم الطبيعة ، عقلها ودراسة قوانينها ومبادئها لكي تعيدها إلى روحانيتها البدئية ، أو تكتشف سرها المكنون في النور والوعي والروح . وتستطيع ، ثانياً ، أن تنهي الألم السلبيَّ الناتج عن الرفض الذي يلازم كراهيتك ، والجهل الذي يحول دون معرفتك بالحقيقة ، والثنائية التي تقسمك وتجزئك ، وتنأى بك عن التكامل الداخلي أو تحرمك منه ، والرغبة أو الشهوة التي تجعلك تتعلق بالعالم وأنت خاضع لأنانيتك . وعلى الرغم من نهاية الألم السلبي الناتجة عن محبتك للعالم ، فإن ألمك الإيجابي يظل قائماً . والحق أن الألم الإيجابي يشير إلى محبة العالم ، كما هو ، ويهدف إلى السموّ به إلى ما يجب أن يكون . فإذا ما رأيت البؤس ، والتعاسة ، والشقاء ، والفقر ، والجهل الذي يؤدي إلى الشر ، والكراهية التي تؤدي إلى التدمير والتجزئة ، سعيتَ ، من خلال محبتك الإيجابية المتألمة أن تكون فاعلاً في إسعاد البشرية . وهكذا ، تتألم مع العالم وتعاني معه بسبب من أنك تحبه .

وفي هذا الألم الإيجابي ، وهو القوة التي تصلك بالوجود المادي ، تتحقق غبطتك وصوفيتك وروحانيتك .

هكذا ، يكون الصوفي - الحكيم محباً ومتألماً على نحو إيجابي . وهكذا تكمن المحبة في قلب الصوفية - الحكمة . وفي هذا المنظور ، لا يتجنب الصوفي - الحكيم العالم بل يبقى في وسطه ، ويحبه ويتألم من أجله بقوة فاعلة لإنقاذ العالم وخلاصه . إنه يتألم مع العالم ألماً إيجابياً ، ويضحي في سبيله بشعور مهيب وقدسي . وفي هذه المحبة والألم الإيجابي ، يقع الصوفي - الحكيم من العالم موقع القلب المنفتح ، والعقل المنفتح ، والروح المسؤولة عن إدارته بحكمة فائقة تلتقي فيها الألف والياء ، البداية والنهاية .

الخلاص

صديقي - أعتقد أنك أصبحت تدرك القيمة والمعنى المضمونين في كلمة الصوفية - الحكمة ، والمفهوم الصحيح للصوفي الحكيم . الآن تعلم أن الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي يتجاوز الإشراطات العديدة الملزمة التي تقيد كيانه . هو الإنسان الحر الذي ينعتق من حرفية اللفظ ، وعصبية المذهب والمعتقد ، وضيق أفق التقليد والشريعة . هو الإنسان الواعي

الذي يحيا وجوده الأرضي لتحقيق غاية تسمو به وتصله بكلية الكون ، وتوحده معه دون انفصال . هو الإنسان الذي يحقق وجوده الكلّي والشامل ، ويحيا في وفاق مع الوعي الكوني والنظام الكوني ، ويتناغم مع الانسجام القدسي . هو إنسان العرفان والحكمة ، هو الإنسان الذي يحب؛ دون أن يرى في الآخر ، الذي لا يتفق مع موقفه الفكري ، عدواً له أو منافساً له . هو الإنسان الذي يستطيع أن يرى إلى ما وراء حجاب الأنا ، وإلى ما بعد محدودية الفكر الملحقة بعدم معرفة النفس . هو الإنسان الذي يطفئ انفعال الرغبة والشهوة والتعلق ، وينهي سيطرة الألم السلبي . هو الإنسان الذي يحب وجوده الأرضي لأن محبته وتحقيقه له يعنيان محبة الوجود الكلّي وتحقيق الحكمة - الصوفية الكامنة فيه . هو الإنسان الذي لا يختزل الصوفية - الحكمة إلى تصوف يتوافق مع منهج معين أو عقيدة معينة ، بل يعاين فيها الفعل الكوني المحقق . هو الإنسان الذي يرفض الاعتزال والزهد بمفهوميهما العاديين ، ويأبى الانسحاب من الوسط الاجتماعي الذي هو الحقل المهيأ لزرع بذور حكمته - صوفيته . هو الإنسان الذي يعمل دون أن يفضل عملاً على عمل ، أو دون أن ينظر إلى ثمار عمله فلا يخضعها لأنانيته ، أو دون أن يترفع على العمل . هو الإنسان الذي يدرك أن واقع الوجود الأرضي

يتأسس في العمل . وإذا تبنّى الصوفي - الحكيم مبدأ العزلة ، وليس الانعزال ، فلكي يعود إلى المجتمع من جديد . هو الإنسان الذي يعلم أن جميع الأشياء ، انطلاقاً من أصغر القسيمات والجزئيات والكيانات ، تعمل بما يتوافق مع القانون الكوني ، الكلّي والشامل . هو الإنسان الذي يدرك أن الأرض تتطلب العمل الزراعي ، وأن القمح يتطلب الطحن ، والدقيق يتطلب الخبز ، والزرع يتطلب الري ، والفلك يتطلب الدراسة ، والمادة تتطلب البحث والمعرفة ، والمرض يتطلب العناية ، والطفل يتطلب التربية الإنسانية وليس التربية الانفعالية ، والمرأة والرجل يتطلبان الزواج بمفهومه المثالي ، والسكن أو المنزل يتطلب البناء . . . إلخ .

هكذا ، ترى أن الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي ينسجم مع القانون الأرضي ليرفعه ويسمو به إلى مرتبة القانون الكوني الماثل فيه ، فيوحد ما هو أعلى مع ما هو أدنى ، وما هو سماوي مع ما هو أرضي ، وما هو إنساني مع ما هو طبيعي .

الآن ، تدرك أن الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي لا يُخضع عظمة الحياة لبعد واحد يجعله الهدف الأسمى للوجود على المستوى الأرضي . فلو أن المتصوف الزاهد بشّر

الناس بقيمة الزهد ودعاهم إلى الانسحاب من العالم ، وعلّمهم أن الزهد ، بمفهومه السلبي ، هو الطريق الأفضل للكينونة الأبدية والالتحاق بالملأ الأعلى ، لأدرك أن الأرض لن تنبت ولن تعطي ثمارها ، وأن الناس سيتضورون جوعاً ويعانون من وطأة خمولهم وعطالتهم ، ويكون سبباً مباشراً لتدمير العالم ، كما يكون مسؤولاً عن عطالته الداخلية التي ينقلها إلى العالم الخارجي وإلى الآخرين . ألا ترى أن الإنسان المتزوج قادر على تحقيق الصوفية - الحكمة ؟ وأن المزارع أو الاقتصادي ، أو القانوني ، أو المدرس ، أو المهندس ، أو الطبيب ، أو العالم ، أو الكاتب أو الخبير . . . إلخ ، هو كل من يحقق كونيته وشموله ، وكليته ، ووعيه ، وحريته ، وإنسانيته ، وروحانيته ، واجتماعيته وقدسيته في العمل الذي يمتهنه ، وذلك في سبيل خدمة المجتمع والإنسانية ، والتضحية بموهبته من أجل ازدهار خير البشرية جمعاء ، ويسعى إلى خلاص نفسه من خلال خلاص الآخرين . . هذا ، لأن خلاصه لا يتحقق إلا بخلاص الآخرين ؟

صديقي - الآن تعلم أن الصوفية العقلية تسمو بالعقل إلى مستويات عليا من الوعي . والحق أن الصوفية العقلية تعترف بالحقيقة في مصادرها العديدة ، وتفتح القلب لأنواع المحبة الإنسانية ، وتطلق العقل في عوالم غير محدودة ، وتمده بالقدرة

على الاعتراف بكل جمال وخير وحق ، ويتجنّب كل شر وجهل وتعصب وضيق أفق . وفي هذا المنظور ، يجعل الصوفي - الحكيم من كيانه مركزاً تتحد فيه الحقائق العديدة والتيارات الفكرية والحضارية ، ويأبى أن يكون إنساناً مغلقاً . وهكذا ، يجعل من عقله مركز لقاء لكل حكمة . فهو يتجول في عوالم الحكمة والمعرفة والوعي ، ويضم إليه المبادئ التي تنسجم مع الحقيقة ، ويلطف وطأة العقائد التي لا تعترف بغيرها ، وتدعي أنها الطريق الوحيد للمعرفة والأخلاق والفضيلة .

هكذا ، يتمثل الصوفي - الحكيم حقيقته في الصمت . . وبقدر ما يصمت ويتأمل ، يكون قادراً على الإحاطة بعمق حقيقته . هذا ، لأن الصمت تأمل في صورة ما . ويحاول الصوفي - الحكيم أن يحيا ، ويفكر ويعمل في صمت لكي لا يعكره ضجيج الانفعال السلبي . وبالإضافة إلى ما ذكرت ، يهدف الصوفي العقلي إلى المعرفة . فهو يحيا في بحث دائم عن المعرفة والحقيقة . وهكذا ، يصبح عقله حقلاً واسعاً للتجارب الروحية المختبرة ، والدراسات التي تملأ وجوده بالمعرفة . وبذلك ، يدرك أن الإنسان وُجد ليعرف؛ ومتى عرف أصبح حراً . لقد وُجد ليعرف نفسه؛ ومتى عرف نفسه عرف الوجود . وعندئذ ، يرفع الصوفي - الحكيم وجوده في

مراحل ثلاث : في المرحلة الأولى ، يتجنّب كل فعل يطغى عليه الانفعال ، ويصبح واعياً لمصيره . وفي المرحلة الثانية ، يوجه أضواء عقله ، المعبر عنها بالقدرات والمواهب ، إلى المحاكمة المنطقية السليمة . وفي المرحلة الثالثة ، يلتجئ إلى الوجدان ، وهو ممثل الروح ، ليكون رائده الوحيد في عالم الطبيعة والعقل الفوقي المستنير . وهكذا ، يحيا الصوفي - الحكيم كونيته في المجتمع ليحقق إنسانيته .

تكامل المادة والروح في الحكمة والعلم

صديقي - أود ، قبل أن أبدأ ببحث هذا الموضوع وفهم أبعاده المتكاملة ، أن أتحدث عن الحكمة - الصوفية في سرانيتها وعلنيّتها ، في شمولها وخصوصيتها ، ضمن نطاقات ثلاثة متصلة في جوهرها :

أولاً - الحكمة الكونية - هي الحكمة المستغرقة في ذاتها ، في سكينة الأبدية والسرمدية؛ هي الحكمة الكلية والشاملة التي تتخلل الوجود وتنبث فيه دون تعيين أو تحديد؛ هي الحكمة التي ندعوها الحكمة الإلهية أو حكمة الحقيقة السامية أو الوعي الكوني ، هي الحكمة التي يدعوها بعض الصوفيين ثيوصوفيا .

ثانياً – الحكمة التي تميز بها الإنسان الأول، الكائن الروحي الذي كان على صلة وثيقة مع الحكمة الكلية والكونية، هي الحكمة التي اتصف بها ذلك الكائن الإنساني – الروحي قبل ممارسة اتصاله بالواقع المادي عن طريق العقل؛ هي الحكمة التي تشير إلى المعرفة التي اختبرها الإنسان الأول بالعلم الذي ندعوه (العلم الروحي)؛ هي الحكمة التي يدعوها بعض الصوفيين صوفيا .

ثالثاً – محبة الحكمة، هي الحكمة التي تميز بها الإنسان بعد ممارسة اتصاله بالواقع المادي؛ هي فعل العقل الذي أحب الحكمة وهو يمارس تجربة وجوده، ويختبرها في عالمه، عالم الثنائية والتعدد؛ هي الحكمة التي تشير إلى المعرفة التي يتوق إليها الإنسان، ويسعى إلى اختبارها بالعلم الذي ندعوه (العلم المادي)؛ هي الحكمة العقلية التي ندعوها فيلو صوفيا .

أود أن أعيد تفسير وترتيب الحكمة – الصوفية في نطاقاتها الثلاثة :

أ- الحكمة الإلهية – ثيوصوفيا – هي الحكمة السامية المطلقة، أو الحقيقة السامية المطلقة .

ب- الحكمة البدئية – صوفيا – هي حكمة الإنسان الروحي البدئي الذي كان، عبر حكمته، على صلة

مع الحكمة القدسية . . . الإنسان الذي كان يعرف أن العالم المادي انبثاق أو تجلٍّ للعالم الروحي ، ويمارس فيه سموه الروحي .

جـ- محبة الحكمة - فيلوصوفيا - هي المستوى العقلي الذي تراجعت إليه الحكمة - البدئية عن علاقتها الوثيقة مع الحكمة الإلهية ، وفي هذا المستوى ، أصبح الإنسان محباً للحكمة ولم يعد حكيماً . والحق أن تراجعاً جديداً وأخيراً حدث لمحبة الحكمة تمخّض عنه ظهور العقل الذي سعى ، وما زال يسعى إلى المعرفة عن طريق التجربة والاختبار فيخطئ ويصيب .

صديقي - تؤمن الحكمة القديمة ، التي يدعوها بعضهم (ثيوصوفيا) ، بكل المبادئ السامية ، وتسعى هذه الحكمة - الصوفية إلى تحقيق لقاء يوحد أبعاد الفكر الإنساني ومستويات تنوعاته دون الوقوف عند حدوده الضيقة وقواعده المحدودة والمشروطة . ولما كانت هذه الحكمة - الصوفية شاملة وكونية ، فإنها تمثل تجلّي مبدأ الشمول على مستوى عالم الإنسان . ولئن كانت الحكمة - الصوفية تتصف بالشمول ، فإنها تتميز بخلفية تلقي ، من خلالها ، ضوءاً على

ما جاء من أنواع الحكمة لتنتقي من مبادئها ما يتماثل أو ينسجم مع هذه الخلفية أو اللوحة التي تُرسم عليها صور الإنسانية المشرقة . وفي هذا المنظور ، تُدرك أن الحكمة - الصوفية البدئية لا تقف من أي مبدأ صوفي أو حكيم موقف الرفض الكلّي ، ولا تقف منه موقفاً سلبياً يتصف بعدم الاعتراف به . وعلى غير ذلك ، تسعى إلى بناء جسر بينها وبين الحكمة - الصوفية الماثلة في المبادئ الأخرى .

صديقي - يمكنك أن تعتبر أن (الحكمة - الصوفية القديمة) لا تتنكر للنتائج الباهرة التي بلغتها العلوم النظرية الحديثة في أبحاثها الأخيرة المتطورة؛ التي تعود ، في صميمها ، إلى مبادئ الحكمة - الصوفية؛ فقد عمد علماء الفلك ، والبيولوجيا ، والفيزياء ، في الفترة الأخيرة ، إلى إحداث تأليف بين اختباراتهم وأبحاثهم ، وسعوا إلى تحقيق علاقة ضمنية وتأليفية بين هذه العلوم . ولا شك أن التأليف الذي أحدث تكاملاً بين هذه العلوم كاد يبلغ نطاق التوحيد . وقد وطّد الاعتقاد والإيمان بالوحدة الروحية - النفسية - الفيزيقية للكون . والحق أن العلم الحديث قد بدأ رحلة عودته إلى الصوفية - الحكمة . ويعود الفضل في هذا التأليف ، أو التلاقي إلى الجهود التي بذلها علماء - حكماء - صوفيون ، وفي سبيل تحقيق التوحيد أو التأليف ، وُضعت مؤلفات عديدة تبحث في

النتائج التي اختبروها ، وتحمل ، على سبيل المثال ، العناوين التالية : العلم والروحانية ، الطاقة والمادة الحية ، الطاقة والخصائص النفسية والعقلية للمادة ، الروح ذلك المجهول ، التأليف الجديد للمادة والعقل . وهكذا ، يبحث أولئك العلماء الحكماء عن القانون الكلّي الذي يشمل جميع القوانين .

صديقي - إن دلّت هذه النتائج العلمية التأليفية على شيء فإنما لتبرهن على وجود حقيقة كونية شاملة واحدة تتجاوز الظاهرات كلها وتشملها في آن واحد . ولا يدهشني أن تعلم أن هذه النتائج ، التي توصل إلى معرفتها العلماء - الحكماء - الصوفيون ، اتخذت من التجربة والاختبار طريقة للبرهان الذي يؤكد حضور حقيقة كونية كلية وشاملة . والحق أنك تجدها في مؤلفات (الحكمة القديمة) المتصلة بـ (الحكمة الكونية) أو في تعاليم بعض الحكماء؛ أمثال إخوان الصفا ومؤسسي هيكل دلفي الذين احتفظوا بسرانية هذه العلوم والمبادئ ، وعلموها لمريدين مختارين أصبحوا بدورهم ، حكماء - صوفيين ومرشدين .

في الوقت الحاضر ، تبعث (الحكمة القديمة) المتصلة بـ (الحكمة الكونية) مبادئها المكنونة وعلومها السرية السامية إلى الوجود ، وتركز جهودها على دراسة كل حصيلة علمية

وكل بحث اختبره العلماء - الحكماء - الصوفيون في كل الحقول . وهكذا تدرك أن العلم المادي بدأ يتلمّس الطريق المؤدي إلى معرفة الحقيقة . وقد توصل هذا العلم إلى الإقرار والاعتراف بروحانية المادة وخصائصها النفسية والعقلية ، وبنفس للكون تنبض بالحياة ، وبطاقة ديناميكية تفعل فيه ، وبحياة دائمة لا تضمحل ، وبوعي كامن ومنطو ، وبعقل يتجاوز الدماغ . وفي المرحلة الأخيرة ، بدأ العلماء - الحكماء يدركون أن الكون لا ينضوي تحت مقولة المادة والروح فحسب ، بل يتصف بمزايا الوحدة المتكثرة ضمن جوهر واحد يتدرج عبر مستويات سلسلة الوجود الكبرى . وهكذا ، يكون حكماء الروح علماء مادة تعمقوا في معرفة سرانية علم المادة . وبالمثل ، يكون علماء المادة حكماء يختبرون سرانية الروح في تجاربهم وبحوثهم المختبرة . في هذه الصورة التأليفية ، نشاهد العلم وهو يضع الحكمة - الصوفية موضع التجربة والاختبار .

العلم والحكمة ومصير الإنسان

صديقي - أحب أن أستهل حديثي بتصور ما كان في بداية الدور الزمني الذي نحياه . في ذلك البدء ، كان الإنسان نامياً في كماله ، وتاماً في ماهيته وجوهره . كان حكيماً صوفياً يعي وجوده ويعرفه ، ويعي نفسه ويعرفها . وكانت الغدة الصنوبرية

نامية كل النمو ومنفتحة بحيث كانت الأداة التي تصل الإنسان الأول بالملأ الأعلى ، وذلك في سبيل معرفة ووعي القوانين الكونية . كانت الغدة الصنوبرية المنفتحة ، والتي تدعى مجازاً (العين الثالثة) المنظار المكبّر الذي يعاين الإنسانُ ، من خلاله ، أسرار العوالم وأسرار العالم المادي عبر المنظار المصغّر . ولقد كشفت حكمة - صوفية الإنسان الأول عن اتصال مباشر بالوجود والكون ، وعن حدس كامل بالحقيقة السامية . ومن جانبي ، لا أبالغ وأنا أقول : كان إنسان البدء متصلاً أو متحداً مع الكون ، يعرف الحقيقة الكلية الصافية ، ويتوافق مع المبادئ الكونية ، ويعمل وفق قوانينها التي هي قوانينه ذاتها . ولم يكن إنسان البدء عالماً بل حكيماً ينسجم مع عالمه ، يفهمه ، يتحد معه ، ويأبى السيطرة عليه . في البدء ، كانت الأحادية ، وكان العقل مستغرقاً في الحكمة الإلهية .

صديقي - يمكنك أن تتساءل عما حدث لإنسان البدء الذي بدأ يتلمّس طريقه في أرض الثنائية ليتحول إلى عالم التجربة والاختبار . وهكذا ، تراجعت الحكمة - الصوفية ، وأصبحت فيلوصوفيا ، أي محبة الحكمة المحققة عبر التجربة والاختبار العقلي للثنائية والتعددية . وهكذا ، يكون العلم ، الذي اعتمد العقل ، عودة إلى الحكمة - الصوفية الممثلة

بمعرفة حقيقة جوهر المادة والروح والوجود ، وتحقيق الألف - البداية ، في الياء - النهاية . لذا ، كانت الحكمة - الصوفية وعياً مباشراً لوحدة الكيان الإنساني ووحدة الوجود الكوني والروحي ، هي معرفة الكائن البشري المتصل مع كل شيء ، وكان العلم ، في جوهره ، حكمة تطرح ذاتها على بساط التجربة والاختبار ، ومعرفة بهذه الحقيقة ، وفي ظاهره ، محاولة عقلية لاختبار العالم . وبعد أن يسبر هذا العلم ، في باطنه وظاهره ، العالم من خلال التجربة والاختبار ، لفترة زمنية طويلة ، يدرك العالم أن العلم هو الحكمة المحققة في التاريخ على نحو عقل . والحق أن تراجع الحكمة - الصوفية إلى العقل المنفعل بالمادة الدماغية وحدها يتجسد في تراجع الإنسان عن الحكمة - الصوفية الممثلة بالروح . ولما كانت الروح ، بحكمتها - صوفيتها تتجه إلى الحقيقة لتدركها على نحو مباشر وكانت أحادية التوجه ، فإن العقل يدرك الحقيقة عن طريق الثنائية والتعددية من خلال التجربة والاختبار . لذا ، يخطئ العقل ويصيب نسبياً . وعلى هذا الأساس ، تكون النسبيّة من نصيب العقل المتصل بالدماغ ، وتكون الحقيقة المطلقة من نصيب الروح ، أو من نصيب العقل الفوقي المتصل بالروح . أما العقل المتصل بالدماغ فإنه يسعى إلى تثبيت تقنية العلم التي تشير إلى السقوط إلى هاوية الوجود

الممثلة بكهف اللاّبرينث أو صحراء المتاهة . لذا ، يكون هلاك الجنس البشري منوطاً بزيادة التقنية العلمية التي تعمل على سطح المادة دون الولوج إلى عمق جوهرها ، ويكون خلاص البشرية متصلاً بتوحيد الحكمة - الصوفية بالعقل المتسامي إلى الروح . هكذا ، تدرك أن الحكمة - الصوفية هي الإرادة الفاعلة في جميع الأبعاد ، والنطاقات العلمية ، والعقلية ، والنفسية والمادية ، والهادفة إلى روحنة المادة والعقل معاً .

صديقي ، أصبحتَ الآن تدرك حقيقة الصوفية - الحكمة . وأصبحتَ على يقين يؤكد أن هذه الصوفية - الحكمة لا تمت إلى اعتزال العالم أو الانسحاب إلى فردانية العيش ، حيث يحتمل أن تلعب مركزية الأنا دوراً سلبياً ومحبطاً ، كما يحتمل أن تتحكم به المفاهيم الخاطئة لحقيقة التعالي والتسامي . وعلى غير ذلك ، تعتبر هذه الصوفية - الحكمة فعلاً إرادياً يحقق الإنسان ، من خلاله ، عقلانية متسامية إلى الروح ، ووعياً كونياً ، وحكمة بدئية صافية تتعمق وتتسع إلى نطاقات الحياة بكاملها . وفي هذا المنظور ، الذي تعيشه وتحياه ، أود أن أذكّرك ببعض المبادئ التي تتبنّاها الصوفية - الحكمة وتصوغ منها مشروعاً معيشياً وحياتياً فاعلاً يتوطد على أسس الصوفية العقلية ليسمو إلى مستوى الصوفية - الحكمة .

المبادئ

أولاً – محبة الإنسانية جمعاء بغض النظر عن الجنس واللون والعنصر والمعتقد والدين .

ثانياً – توحيد نطاقات الفكر الإنساني ووجهات النظر العديدة والمتنوعة في دراسة مقارنة تتضمن في وحدة تأليفية للدين بمفهومه الروحي ، وللفلسفة بمفهومها الإنساني والمثالي ، وللعلم بمفهومه النظري والطبيعي والكوني .

ثالثاً – تعميق وتوسيع دراسة القوانين الطبيعية ، والإنسانية ، والاجتماعية ، والولوج إلى نطاق القوانين الكونية التي تشملها .

رابعاً – الشعور الكامل بالقيمة والمعنى المضمونين والكامنين في الوجود ، أي المعرفة بمفهومها العرفاني الذي يشير إلى وجود وعي كوني يشمل جميع القوانين والمبادئ .

خامساً – التجربة النفسية أو العقلية المتسامية أو الروحية المختبرة التي تنتهي إلى عرفان يتجلّى في تحقيق الشعور الأسمى بتكامل الوجود الطبيعي والإنساني والكوني .

سادساً – واقع الحضارات ، والثقافات ، والإنجازات الرائعة المتنوعة مقولة تشير إلى وجود تنوع ظاهري ، وتؤكد

وجود حقيقة باطنية أو جوهرية واحدة ، وعقل إنساني جماعي شامل ، وروح فاعلة في التاريخ الإنساني .

سابعاً – العقل المنفتح والقلب المنفتح سبيل إلى لقاء الإنسانية في حوار يتبنى المحبة والاعتراف بالآخر ، وإلى تفاعل العقل الخاص مع العقل العام في قاعدة واحدة مشتركة بين العقول الفردية تشير إلى احترام التجارب الروحية التي اختبرها حكماء - صوفيون آخرون في أنحاء العالم .

ثامناً – تمثّل الطبيعة والعالم والكون في نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة .

تاسعاً – تأسيس بنية عقلية ونفسية منفتحة ومكوِّنة تصلح لإجراء حوار بين أبناء وبنات الناس لقبول الآخر والاعتراف به ، وتتجاوز الأطر المحدودة ، والمناهج الأحادية البعد .

عاشراً – الإعلان العالمي لواجبات الإنسان الذي يشتمل على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، ويدعو إلى تربية إنسانية وإيجابية فاعلة تجعل من الواجب أمراً أخلاقياً وروحياً .

حادي عشر – المثالية بوصفها تطويراً للواقع المُعاش كما يجب أن يكون ، أي التحوّل من الوجود إلى الوجوب .

ثاني عشر – السعي المثابر والهادف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية الملازمة لكرامة الإنسان وحريته الماثلين في

الوعـي ، والسـعي الدائم لتحسين الأوضاع البشرية في نطاقاتها ومستوياتها العديدة .

ثالـــث عشـــر - توطـيد التفكير المنطقي لبلوغ محاكمة سـليمة تـنقذ العقـل مـن تحديـدات الإشـراطات العديـدة الـتي تحول دون تطويره إلى عقل صوفي متصل بحكمة الروح .

التجربة والاختبار

صـديقي - أمـا وقـد أشرفت رسالتي على النهاية ، أود أن أحدثـك عـن تجـربتي في أثـناء مـرحلة الشـباب ، واختـباري المـتأمل والرصـين اللذيـن تحققـا أخيراً في تبنّي صوفية عقلية جعلت مني طاقة طبيعية وكونية فاعلة في المجتمع .

أردت طـوال حـياتي أن أعيش وأحيا في أحضان الطبيعة ، في قـرية جمـيلة تحـيط بهـا الغابـات ، وتغـدق علـيها الطبيعة جمالها الخلاب ، وتكثر فيها الينابيع ، وتطل على مناظر رائعة يسـرح فـيها الـنظر ويتمـتع بشـروق الشمس ومغيبها . وأردت أيضـاً أن تهـبني الطبـيعة أجمل وأعذب ما فيها . أقنعت نفسي أن أسـتيقظ باكـراً لكـي أشـاهد روعـة الكـون وجمالـه قـبل الشـروق ، وأنظر إلى الأفق البعيد ، وأراقب الشمس وهي تودع الـنهار . وتـأكدت أن الإنسـان يحـيا مـع الـنهار إن هـو رافـق

الشروق ، ويبتهج للغروب إن هو شعر بعظمة الوجود وسعادة الحياة .

تراودني هذه الأفكار والمشاعر ، فأتخيل الريف ، وأستدعيه ، حضوراً في ذاكرتي ، بجماله وعذوبته . في الريف ، يتعاطف الإنسان مع الطبيعة وتتعاطف معه . وفي رونقها وبهائها ، يستنشق النسيم العليل ويشعر بالراحة والطمأنينة ، ويتأمل الجمال فيغتبط ، ويتنزه في الأماكن الممتعة دون أن يتعب ، ويسعى إلى قليل من كل شيء دون أن يثقل نفسه . هذه الأمور جميعاً ، علمتني أن ألتجئ إلى الطبيعة وأحيا فيها حياة النقاء والصفاء .

تأصلت هذه الأمنية وترافقت مع نزعة الانفراد وحب العزلة ، وليس الاعتزال ، وقد توضحت عزلتي يوم اعتقدت أنني أكون قريباً من نفسي وحقيقة كياني . وأصبحت أبتعد عن التجمعات ، وليس الاجتماعات ، وأفضل العزلة ، وليس الانعزال ، لكي أخلو إلى تفكيري وأتأمل نفسي . لكنني - مع ذلك - بقيت قلقاً ومثقلاً بهمّ لا يبارحني؛ إذ تساءلت عن قيمة الإنسان إن هو شاء أن يعيش وحيداً ، يلجأ إلى الانعزال ويبتعد عن الآخرين . علمت أن العزلة تستغرق في جمال التفكير ونقائه ، وتتجه إلى التأمل والتعمق في الوعي ، وتصحح أخطاء

الإنسان المتأمل الذي يعيد النظر في كل ما يرى ويسمع ويقرأ ، وتساعده على ارتقاء مستويات المعرفة والفضيلة ، وتضفي عليه صفة الكرم النفسي والانفتاح القلبي ، وترشده إلى مبادئ تتمثل بالتسامح والمحبة والسعادة والقناعة . ومع ذلك ، خشيت أن تتحول عزلتي إلى انعزال يقصيني - نوعاً ما - عن الذين أعيش معهم وأحبهم ، وتقلص إمكانية اجتماعي بهم ، وتجعلني أنفرد بتفكيري دون أن أشارك به غيري ، وترغمني على الاكتفاء بما أفكر فلا أمنح عاطفتي وتسامحي وسعادتي إلا في فترات نادرة . وهكذا ، بدأت أخاف أن تتحول طاقتي العقلية والنفسية والروحية إلى مقاومة سلبية تقلص الحكمة التي أبغي تحقيقها إلى نقيض ما أسعى إلى تحقيقه .

أمام هذين الموقفين ، موقف المشاركة وموقف العزلة ، وقفت حائراً ، تصارعني أفكاري ، وتلقي بي في خضم نزاع داخلي ، غير مستقر . فأنا أحيا في مجتمع يُطبق على قدرات الإنسان وطاقاته ولا يسمح بتحقيقها كما ينبغي ، ولا يهذب قيمه الروحية والعقلية . وهكذا بدأت أخاف من الضياع والتعرض للتجارب على الرغم من عقلانية تفكيري .

حولت وجهي وانتباهي عن هذا المجتمع؛ لكنني التفت إليه من جديد . وحدثتني نفسي بحقيقة تخفيها : إن الإنسان قد

وجد في المجتمع ، وواجبه يقضي بأن يحيا في وسطه ليقدم مواهبه هبة أو هدية له ، ويساعد الآخرين عندما يتعرضون لمأزق ، ويمدّ يد العون متى طُلبت منه ، ويعمل جاهداً لازدهار الحياة الاجتماعية . لكن خوفي ظل عالقاً بي إذ لم أستطع أن أتخلص منه كلياً . وتخيلت كل مشكلة أو صعوبة تعترضني وأنا أقوم بواجبي الاجتماعي الذي هو التعبير الكامل عن مثالية وجودي . وتصورت الآلام السلبية والإيجابية التي تنتج عن هذه الصعوبة أو المشكلة . وعلى الرغم من كل هذا ، وجدت نفسي لا أطيق الابتعاد عن الصراع الاجتماعي على قيمٍ زائفة ، كما لا أطيق البقاء في وسطه . عندئذ ، هدفت إلى إنقاذ نفسي ، وتحريرها من الإشراطات العديدة وتحقيق واجبي وسط إنسانية اجتماعية . بدأت أعي الاختلاف بين الانعزال والعزلة . في العزلة وسط المجتمع ، أعرف نفسي ، وأنا أتأملها ، وأعود إلى الآخرين ، وأظل في وسط المجتمع . وفي الانعزال ، أخسر إنسانيتي ، وأنقم على المجتمع ، وينتهي معنى وجودي في الحياة .

صديقي - أعتقد أنني أكتب إليك وأنا أحدثك عن الصوفية العقلية التي جعلت منها شعاراً لحياتي ، ومبدأ فاعلاً في وجودي . أصبحت أحقق عزلة في صوفيتي العقلية ، وأحيا بين العزلة والاجتماع ، وأمد إنسانيتي لتتّسع إلى الآخرين

وتشمل الإنسانية بكاملها . أصبحت أتحدث عن أهمية العمل الاجتماعي وجدوى الحياة لو أضفى عليها الإنسان الاجتماعي العقلانية المتسامية . وصرت أشارك الناس عواطفهم ، وأساهم معهم في حياة مشتركة ، وأحدثهم عن الواجب ، وعن عظمة الإنسان الذي يؤدي واجبه على أكمل صورة ويتجاوز مفهوم الحق ، وأستمع بإصغاء إلى مبادئهم ومعتقداتهم ، وأفهم أفكارهم بوضوح بعد دراستها بوعي وحكمة . وكذلك ، أستمع إلى مشاكل ، أو قضايا من أجتمع معهم ، وأقدم لهم محبتي ونصحي وإرشادي ساعياً إلى إضفاء الحكمة والوعي على حديثي وسلوكي . هكذا ، أجتمع مع الآخرين ، وألتقي معهم في نقطة أو في أكثر من نقطة من نقاط أفكارهم ، أو في محور من محاور معتقدهم . هكذا ، بدأت أضمّن العالم داخل كياني .

صديقي - أعترف بأنني ما زلت أتعرض للإرهاق في أثناء علاقاتي واجتماعاتي التي هي الجسر الذي يصلني مع الآخرين ، ما زلت عاجزاً عن تقويم المساوئ التجمعية السائدة . والحق أني ما زلت أتمنى لو كنت أحيا عزلتي في الريف ، وكم أتمنى لو كنت أعبر الحقول والغابات وأبتسم للأزهار . لكنني - مع ذلك - أعود إلى نفسي وأقول : إن الأزهار والحقول قادرة على العيش والحياة بمعزل عني ،

وليس بمستطاع الإنسان أن يعيش ويحيا بمعزل عن الإنسان . لذا ، يفرض واجبي نحو نفسي ونحو الإنسانية أن أتحمل الإرهاق والمعاناة؛ لأن الواجب الإنساني يسمو على كل مصلحة أو نفع خاص ، ويتساوى أو يتماثل مع التضحية التي هي ذروة المحبة .

صديقي - أريدك أن تعلم أن الصوفية العقلية تشتمل على كل ما تحدثت عنه . علمت أنها تهذب عقلي؛ تصقله وتسمو به إلى مستويات عليا من الوعي والوجدان . وأنا ، صوفي عقلي أتقبل الحقيقة مهما كان نوعها أو مصدرها ، وأفتح قلبي لأنواع المحبة الإنسانية ، وأطلق عقلي في عالم أو في عوالم غير محدودة ، فأعترف بكل جمال وخير وحق ، وأعرض عن كل شر وجهل وتعصب وضيق أفق وسوء فهم ، وتتحد في كياني الحقائق العديدة والتيارات الفكرية والحضارية الراقية ، ولا أجعل من نفسي إنساناً مغلقاً ، بل أفتح أبواب عقلي لكل حكمة - صوفية .

علمتني تجربتي المختبرة في الحياة أن الحقيقة تُرسم بصور جميلة عديدة ، وتُصاغ في مقولات متنوعة . فكما أن النور ينفذ إلى داخل المنزل عبر نوافذه العديدة ، وكما يتشتت الضياء في اتجاهات مختلفة ، وكما يسيل الماء المسكوب في

متعرجات أو أقنية وفقاً للأرض التي سُكب فيها ، وكما تهب نسمات الهواء في أوقاتها وأماكنها ، وأقاليمها؛ كذلك تضيء المواهب ، وتتنوع المبادئ والفلسفات ، وتزدهي الحكمة بضيائها ، وتزدهر الحضارات بالأفكار الجميلة العديدة ، وتزهو الحياة بأشعة العقل لتحفل بالقيمة والمعنى . ويقدم الناس نتاج عقولهم الصوفية وثمرة أعمالهم ، ودفء عواطفهم ، وعمق شعورهم ، ونبل أخلاقهم وأبعاد خيالهم وتصورهم . والحق أن هذه المزايا المثالية كلها كامنة في عقل الصوفي - الحكيم . هذا ، لأن العقل يحتوي ، في كمونه ، كل ما يعقله الآخر . فإذا كان يعقل ما يعقله غيري ، فإنما يعني أن العقل الواحد ، الذي تشارك فيه جميع العقول المستنيرة ، يتقبل ، بل ويعترف بكل خير وجمال وحقيقة تصدر عن الآخر . وهكذا ، تصبح صوفيتي العقلية مركزاً للبحث عن الحقيقة وقبولها والاعتراف بها في آن واحد .

وهكذا ، أصبح عقلي ، بعد تحقيق صوفيتي العقلية ، مركزاً للوجود والكون ، فهو يتجول في عوالم الحكمة والمعرفة والوعي ، ويضم إليه المبادئ التي تنسجم مع حقيقة مبادئه . وقد أصبحت الأنا المتوافقة مع الذات والمتكاملة معها محور الحياة التي تدور في فلكه بدقة ونظام . وكما تتقبل الأنا المدركة الحقيقة ، كذلك تقدمها هدية إلى الآخرين . وتتعرّف

الأنا على ذاتها على نحو أفضل وهي تتبنّى الصوفية العقلية لتعاين جوانب القضية الإنسانية كلها . وعندئذ ، لا تحكم عن جهل ، بل تحاكم بوعي معرفي ووجداني فتبلغ معرفة النفس ومعرفة الكون .

صديقي - توصلت إلى معرفة هذه الحقيقة التي تريحني وتطمئنني ، لأن الإرادة الحرة والواعية التي تعتمد عليها الأنا المدركة لذاتها تفعل بنشاط على نحو يدعو للدهشة ، فهي تفعل معي وتقف إلى جانبي ، وترسل ضياء تأملها إلى الموضوع الخارجي لترى بعين البصيرة ما يتفاعل معها ، فلا تتعرض للضياع . ولا يخيب أملها ، ولا تبقى فريسة للضيق والجهل والمأساة ، بل تحاكم وتدعو أعضاء محكمة الوجدان إلى الانعقاد في اجتماع المحبة؛ ويسرع الوجدان وهو يلبّي دعوة العقل الصوفي الذي يحيا في نقاء وصفاء الروح .

صديقي - هكذا أصبحت مدركاً لكياني وأنا أحيا صوفيتي العقلية ، تؤازرني الروح من جهة ، ويثبّتني الإيمان العقلي من جهة ثانية . وعندئذ ، يفعل كياني في نطاقه الحقيقي ، ويتحد في قطبيه الروحي والمادي . وبالمثل ، يتحد الوجدان الذي هو ظاهرة الروح ، مع العقل الذي هو ظاهرة الأنا المدركة لذاتها ، يتحدان في الكيان الإنساني . وهكذا ،

تتحقق الصوفية العقلية نتيجة لهذا التعاطف المتكامل بين الوجدان والعقل .

صديقي - أنقذتني الصوفية العقلية من مآسٍ عديدة . علمت أن كل ما يتراءى لي من مجد اجتماعي ، وسيطرة ، وتملك ليس إلا مظهراً من مظاهر الأنا التي تجهل حقيقة كيانها . هذا ، لأن كياني يتسامى على هذه المظاهر الخارجية الزائفة بعد محاكمة عقلانية ووجدانية . أما الرغبات والشهوات وأنواع التعلق فإنها تتجول في متاهاتها دون أن تعرف طريقها إلى عقلي وروحي . والحق أني تجنبتُ كل مظهر يحتمل أن يوقعني في شباك الطمع والإغراء ، وذلك لكي أبقى نقياً قدر استطاعتي . والحقيقة أنني لم أعد أنقاد للآراء والعقائد التي أسمع بها أو أقرؤها انقياداً أعمى . وعلى غير ذلك ، بدأت أدرسها بعمق البصيرة ، وأتأملها بعين الحكمة . ما عدت أذكر مساوئ إنسان بل حسناته . وأصبحت أنظر إلى كل شيء نظرة تعاطف وودّ . وفي هذا الوسط العقلي الصوفي ، تراجعت النواحي السلبية السيئة في نظري ، وتقدمت الفضائل ، وبدا لي الكون مكاناً وزماناً عظيمين ، يتنقل فيهما عقلي ووجداني بسهولة ويسر ، وتعمل فيهما بصيرتي ببطء وهدوء . والحق أني أحضرت كل شيء ليمثل أمام محكمة عقلي الصوفي . وهكذا ، أصبحت صوفياً عقلياً . . . أصبحت أحيا في وسط

العالم ، وفي وسط الطبيعة والمجتمع وأتجنّب الانعزال . أما عزلتي فقد تحققت ضمن نطاق حياتي الاجتماعية .

صديقي - أدركت أن الصوفية العقلية ترشدني إلى المعرفة؛ فأنا أحيا في بحث دائم عن المعرفة والحقيقة ، وأريد أن أعي . وأمسى عقلي الصوفي حقلاً واسعاً للتجارب والدراسات والاختبارات التي ملأت وجودي بالمعرفة والعرفان ، وجعلتُ من الحقيقة التالية مبدأ لي : إن الإنسان قد وُجد ليعرف ، ومتى عرف أصبح حراً ، وعلم أن الكون كله يتمثّل فيه . فقد وُجد ليعرف نفسه؛ ومتى عرف نفسه عرف الوجود ، ولا تتيسّر معرفة النفس أو تتحقق إلا بالتساؤل الدائم والشك المعرفي ، وبتفاعل العقل في كيانه . لذا ، أرسلت أشعة عقلي في كل الاتجاهات لكي يتفاعل مع الطبيعة ويدرس ظاهراتها التي هي ظاهراته . وعلمتُ أن صوفيتي العقلية لا تكتمل من خلال مواقفي العقلية وحدها ، الأمر الذي جعلني أُدخل الوجدان إلى حقل تجاربي العقلية المختبرة لكي أبلغ مستوى الصوفية - الحكمة .

صديقي؛ عندما حققت صوفيتي - حكمتي ، أصبحت لا أبالي أين أقيم ، فلا فرق عندي إن كنت أقيم في المدينة أو في الريف ، في الوادي أو على قمة الجبل ، أو أحيا في ظل

نظام اجتماعي يتباين مع نظام آخر . أصبحت لا أبالي بالنظم الاجتماعية المتباينة . إذ علمت أن باستطاعة الإنسان الصوفي - الحكيم أن يحقق وجوده على نحو مثالي في ظل أي نظام ، وذلك لأنه إنسان يتمتع بطاقة عقلية عظيمة وموهبة وجدانية تسعى إلى تحقيق أنبل غاية تتمثل بالمعرفة والمحبة . وهكذا ، يستطيع الإنسان الصوفي - الحكيم أن يحقق المعرفة والفضيلة في ظل أي نظام ما دام النظام الاجتماعي لا يحرمه من العيش .

قادتني صوفيتي العقلية إلى تحقيق الحياة أكثر من المعيشة . وهكذا ، علمت أن النظام الاجتماعي لا يحول دون تحقيق حياتي . هذا ، لأن وجوده لا يتصل بالمعيشة فقط . وصرت أعلم أن قيمتي لا تتوقف على مقدار ما أحققه من نجاح اجتماعي ، أو بمقدار ما أتناول من طعام أو بما أرتدي من ملابس ، أو بمقدار العيش في منزل فخم ، أو بمقدار المركز الذي أحتله أو أمثله . هذا ، لأن قيمتي الإنسانية والطبيعية والكونية تتوقف على عظمة عقلي الصوفي - الحكيم ووجداني . وعلى هذا الأساس ، تصبح المعيشة قضية ثانوية ، وتصبح الحياة قضية رئيسية . وهكذا ، يحلّق عقلي الصوفي في فضاء الحياة الواسع . . . الحياة التي تحيا ديمومتها في الأبدية .

أدركتُ أن الصوفية - الحكمة هي الغاية العظمى التي يحققها الإنسان في وجوده الأرضي . وعلمتُ أن هذه الحكمة تتمثل في صوفية عقلية متروحنة ، وفي صوفية - حكمة ترفع الإنسان إلى مستوى الحياة الروحية عبر تحقيق الحياة الأرضية ، وإلى الاستغراق في عمق التجربة الروحية التي يحقق فيها الإنسانُ المقدسَ في داخله وخارجه .

صديقي - هذه هي الصوفية العقلية التي تبنيتها في مرحلة الشباب يوم كنت أسعى إلى المعرفة ، معرفةِ كل شيء ، كل مبدأ ، كل نظرية وكل حقيقة . والحق أن هذه الصوفية العقلية بددت ظلام حياتي وحولته إلى نور يضيء في عمق كياني . وفي مرحلة حياتي الحاضرة ، وهي المرحلة الأخيرة ، تحققت صوفيتي العقلية في مثالية الصوفية - الحكمة التي أصبحت الطريق الذي يصلني بالحكمة الكونية ، والوعي الكوني ، والحقيقة السامية المطلقة . وهكذا ، أصبحت أحيا أبديتي أو كونيتي الماثلة في هذا العالم الذي يحمل ، في عمقه ، اللانهاية ويشير إلى الحضور الأبدي اللذين بدأت أعاينهما في كل شكل من أشكال هندسة صوفيا - الحكمة وفي كل شيء من أشياء الحياة . أصبحت أحيا بساطتي التي لا تقبل التجزئة والانقسام ، في محبتي التي تشمل الحياة وكمالها . علمتُ أن الغاية المنشودة في الحياة

تتمثل في تحقيق الكمال الأرضي أولاً ، وتحقيق الامتلاء الروحي الذي هو السبيل لتحقيق الكمال الكوني المنبث في المعجزة الإلهية العجائبية ثانياً .

الميستية و التصوف

Mysticism - and - Sufism

الدكتور

هاني يحيى نصري



﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ
فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

[فاطر: ٣٥/ ٣١-٣٢]

الإهداء

إلى والدي الدكتور يحيى نصري الذي كان

ضياع مرابع طفولتي ثم وفاته؛

صنوين في فقد الهناء الأكبر.

المقدمة

المقدمة الضرورية لفهم هدف التصوف الذي هو اللامنظور :

ربطت التجريبية مع بروز حركة التنوير في أوربة المعرفةَ والتقدمَ المعرفيَّ بالخبرات (Experiences) المرتبطة بالحواس ، أو كُلَّ واقعة (Fact)[١] بهما معاً ، رافضة وجود أي واقعة بمعزل عن الحواس ، فهي ترى أنَّ كلَّ المعارف الذاتية (Innate) أو قبل التجريبية (A-Priori) ، أو الحدسية لا صلة لها بأي واقعة (Fact) موضوعية حتى ولو كانت صحيحة أو محسوبة جيداً ، ولهذا رأت التجريبية (Empiricism) مع (هيوم) أن السببية ليست واقعة

---

(١) الواقعة (Fact) معطى غير صحيح ولا كاذب، مثل كون الذهب أصفر، والوقائع المرتبطة بالحواس يتفق عليها دون محاججة، أما غير المرتبطة بالحواس فعليها اختلافات، مثل واقعة أن الإنسان يولد حرّاً، أو الحب من الطبيعة البشرية... إلخ.

(Fact) حسية ، ولأنها كذلك فهي ليست راسخة ولا هي موضوعية ، بل إن كل ما في أمرها هو : الاعتياد على الترابط بين أمرين لا رابطة واقعية بينهما ، مثال : الشمس بهذا المعنى لا تشرق ، وظَنُّ شروقها غداً غيرُ مرتبطٍ بها بل بدوران الأرض المرتبط بدوره بالجاذبية الكونية ، التي إذا تعرضت غداً إلى ثقب أسود مثلاً ، فلن تشرق الشمس ؛ فسبب الشروق غير مرتبط لا بالشمس ولا بأي قانون كوني ، إنه مجرد تلازم في الوقوع والغياب .

فنحن اعتدنا على ربط أمور بعضها ببعض وسميناها أسباباً لها ، ليظهر التجريب أنها ليست كذلك ، بل هي مجرد تلازمات في الوقوع والغياب تحكمها العادة ولا يحكمها قانون ثابت .

وهذا ما تعرض له (كانط) في (نقد العقل العملي) مؤكداً أن هناك أموراً لا تخضع للتجربة ، تسبقها سبقاً منطقياً لا سببياً فقط من مثل : (٢) قبل (٤) ، وتتوقف عليها كل التجريبية وكل الوقائع (Facts) دون أن تكون سبباً لها ، ومن دونها لا توجد واقعة ممكنة ، وهي الفرضيات المنطقية والرياضية - فرضيات المنطق الرياضي - البحتة التي تتوقف عليها كل العلوم ، فهي متعالية على التجريب

(Transcendental) ، وهـي وإن كانـت غـير واقعـية ، بمعنى غـير قابلـة للخضـوع للتجريب ، لكن كل تجربة لا تكون من دون افتراضـاتها ، فمـن دون المقـولات المنطقـية لا يمكنـنا أن نـتحدث بأي لغة ، فهي متعالية على الزمان والمكان كمقولتين تحكمـان كل موجود ؛ له فعل وانفعال ، وكم وكيف وجوهر ، وخاصـة وواقعـة وجوديـة (Fact) ، وهـذه المقـولات سـابقة على كل لغة ، فهي متعالية فوق كل نطق ، وهـي ليست مرتبطة بعضـها بـبعضٍ سـببياً ، بـل رباطهـا أيضـاً مـنطقي مـتعالٍ عـن التجربة .

كذلـك أكـد (كانط) أن المتعاليات عن كل تجربة واقعية (Fact) تظهـر للعيان بظاهرة ما ، حوامل جوهرها المجهولة (Noumena)[1] الـتي لـن نعـرفها ، فهـي متعالية عن التجربة أيضـاً ، وهـذا السـؤال (الكـانطي) للظواهـر لـيس سـؤالاً عن (ماهـية) الحديـد مـثلاً ولا عن ماهية الخشب مثلاً ، بل لماذا الحديـد لـيس نحاسـاً أو خشـباً ، أي هـو يسـأل عن حاملٍ ما الـذي يحمـل جوهـر الحديد ليكون حديداً ، أي هو يسأل عن الشـيء بذاتـه الـذي يحمـل مجموعـة مـن الجواهـر التي تصنع

---

(١) وهـي ليست (Nominal) أي اسمية لا وجود لها مثل: أبو الهول (Sphinx) أو العنقاء مثلاً.

الوجـود ، وهـذا الشيء بذاته عند (كانط) هو الذي يدلنا على وجـود الله ، وليس سواه من حجج منطقيةٍ تثبت أو تنفي وجود الصانـع .

ولأنـنا لا نعـرف مـن الأشـياء سـوى ظواهرها التي تدلنا على بواطـنها ، دون أن نعرف أي شيء بذاته عن حوامل ماهياتها ، لذلك هناك أربع متمانعات - أي غير قابلة للحل - منطقياً وهي :

العالم قديم	العالم محدث
يوجـد بسائط ؛ شيء بسيط لطيف لا جوهر له	لا يوجـد شـيء بـلا جوهـر إلا في الذهن
يوجد واجب للوجود	لا واجب للوجود
هناك سببية	لا تحكـم السـببية إلا العـادة ؛ وهي لا تحكم كل شيء

فإذا عرفنا أن هذه المتمانعات الأربع غير قابلة للتجريب ، ولا للـبرهان علـيها مـن خـلال الواقـع ، فحججهـا متكافـئة منطقـياً ، لأنهـا متعالـية عـن التجربة ، خاصة أن وجود الله ظن متـناقض ، فصـانع الوجود لا يمكنه أن يكون فيه ، وإلا خضع لقوانـين الوجـود الـتي وضعها هو تعالى ، وهذا دور منطقي - هرطقي - كبير ؟ !

لكـن دلائـل الشـيء بذاتـه الـذي يحمل جواهر الأشياء أي (الـنومن) الحاملـة لجواهـر (الفيـنومن - الظواهـر) ممكنة الوجـود بواجـب وجـود أوجدهـا ، ومـنها ظهـرت كـل مـادة ، كفاعلـية من فاعلياتها ، مما « يعطي برهاناً وحيداً على اعتماد كـل الطبـيعة قطعـاً عـلى الله » كمـا أكـد (كـانط) بالـبرهان الوحـيد الممكن لإثبات الخالق ، (ص ١٦٣) والذي سنتطرق له لاحقاً .

الشـيء بذاته (النومن) محجوب عن معرفتنا التي تقتصر على الظواهر والبواطن (فينومن) ، والله تعالى محجوب عنا ، لكـن فلسفة (كانط) المتعالية (Transcendental) تؤكد أننا محـاطون بهمـا من كل جانب ، بل إن كل الكون المادي محاط بهمـا ، ناهـيك عـن أن خـالق كـل (الظواهـر والـبواطن) و (الـنومن) لم يسـمح للـنوع الإنسـاني بالتواصل إلا مع بعض الظواهـر (Phenomena) الـتي تشـكل العالم الخارجي ، كما تؤكد الفيزياء الحديثة وعلم الفضاء ، فكل العناصر الطبيعية — ٩٢ عنصـراً كيميائـياً - تشـكلت مـن الهـيدروجين مهمـا كـان شـكل المادة بعد ذلك ، سواء القلم بيدي (المذهّب) أو عظام يـدي (الكالسيوم) ، وهـذه المادة مُخْتَرَقة بما يسميه العلماء بـ (النيوتريـنو) « فلـو نظـرتُ إلى الشـمس لمـدة ثانية ، يدخل مليار (نيوتريـنو) عـبر عـيني لا توقفهـا شبكة العين مثل ما

تفعل مع (الفوتونات) العادية ؛ بل تستمر دون أن يعيقها أي شيء . . . متدفقة عبر الأرض »[١] نحو الفضاء الخارجي متحركة إلى ما لا نهاية .

يقول (برايان غرين) : « الجسيمات تبدو وكأن ليس لها بنية داخلية أبعد من نظرية الأوتار . . . أنشوطة أحادية . . . فتيل يتذبذب ويتراقص مثل حلقة من المطاط أطلقوا عليها اسم : String »[٢] ، وهذا هو الذي دفع الفيزيائي الفضائي المعاصر ، (فرانك كلوز) إلى القول : « إن الطريق إلي وإليك يبدأ بلقاء (بروتونين) في مركز الشمس منذ بلايين السنين »[٣] ، و « تستغرق الشمس ٢٠٠ مليون سنة من سنواتنا حتى تكمل سنة واحدة في مجرتنا ، وهي تأخذنا معها في رحلتها »[٤] عبر عالم الأبعاد الثلاثة ، في هذه السماء ، ولكن هناك عوالم مخفية عن حواسنا فيها « تترك علاماتها بما ينشأ عنها من كهرباء ونشاط إشعاعي تدل . . . على أن ثمة كوناً خفياً بالكامل يعمل هنا في داخل الكون المألوف

(١) كارل ساغان، الكون، عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر ١٩٩٣، ص ١٩٥ - ٢٠٠.

(٢) برايان غرين، الكون الأنيق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٥م، ص ٢٩.

(٣) فرانك كلوز، النهاية، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر ١٩٩٤م، ص ١٤٤.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٠.

منا »[١] ، وأنا لا أتحدث هنا عن عالم (الفيروسات) ولا (الميكروبات) ، بل أتحدث عن عوالم ذات أبعاد أكثر أو أقل من ثلاثة ، وعن المادة السوداء - اللامرئية - التي تشكل معظم كوننا المنظور ، يقول (هوكنغ) : « إن المادة السوداء الموزعة بصورة شمولية عامة عبر الكون هي بحد ذاتها مؤثرة على توسع الكون »[٢] ، لكننا لا نستطيع معرفة أي شيء عنها ، علماً بأننا سنكون جزءاً منها حين دخولنا بظلام القبر .

لِنسمِّ كل هذه المعميات المحيطة بكوننا وبنا داخل هذا الكون : باللامرئي أو باللامنظور لنجد أنه - أي هذا اللامنظور - هو سبب بحث الإنسان عن العقائد والأديان ، فأنا أشعر أنني محاط بعوالم تعلوها عوالم ، وبأنساق تعلوها أنساق ، كما أشعر بأن هذا اللامنظور الذي فيها أمامي ، هو أيضاً بداخلي ؛ فيما يسميه علم النفس بالخافية ، أو اللاشعور إن أحببت ، يسير توجهاتي ويدفع مسبقات البرمجة بي عبر الرغبات والمشاعر إلى كل الأفعال التي لا أقاوم اتخاذ القرار السريع فيها ، فتتحرك كل طاقاتي وقدراتي لخدمتها .

فما فعلَه أبعدُ جدٍّ من جدودي - البلايين عدداً - منذ

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٢) Stephen Hawking, Black Holes and Baby Universe, Bantam Books, London 1994, P. 153.

أربعـة ملايين سنة[١] من الآن ، يقرر نظرتي الغزلية أو الغضبية أو ابتسـامتي في هذه اللحظة ، عبر مسبقات البرمجة اللامنظورة مني في خافيتي[٢] .

عـذراً أيهـا السـادة : هذه هي لغة التصوف المعاصرة المبنية على الخضوع لخالق جبار أكبر من كل تصور ، وضعنا بعالم - كـون - جـبار من صنعه وأكبر من تصوراتنا ، وأصغر بكثير من تصـوره ، لغـة تسـتخدم كـل معـارف هـذا العصـر عـلى قـدر الإمكـان ، وتحـتاج إلى الـرموز الرياضـية ، لا الـرموز السحرية (القبالية)[٣] ، وإلى العلوم العصرية لا علوم الباطن المضمحلة بسرانيتها ، بل إلى الرمزية المنطقية والمنهجية العلمية ، فكل من يـريد ولـوج التصـوف المعاصـر علـيه أن يخلـع مـن ذهـنه (الـبارانويا) التألهـية ، ويفحـص نفسـه قـبل سـواه ليستدل على خلوهـا مـن الأمـراض النفسـية ، متقلباً بين بحوث العلوم كلها ، مـن رياضـيات وفـيزياء وكيمـياء عضـوية وطبيعـية . . . إلخ ، ليدخل باب (حِطّة) من الفلسفة العلمية العصرية[٤] .

---

(١) Jim Brooks, Origins of life, A Zion Book, England 1985, P. 17.

(٢) لي كتاب تحت الطبع بعنوان: (لغة إيماءات الجسد).

(٣) أساس علم السحر عند اليهود.

(٤) إشـارة إلى قولـه تعـالى خطاباً لبني إسرائيل : ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة...﴾ [البقرة : ٢/٥٨] .

فإذا كان لكل علم خلفية يجب أن يقف عليها ، فلا عمارة من دون خلفية فنية ، ولا هندسة مدنية من دون خلفية رياضية ، ولا طب من دون خلفية فيزيولوجية ، ولا فيزياء من دون خلفية كوزمولوجية . . . ولا واحد من العلوم والمعارف من دون خلفية فلسفية ، فإذا كان الأمر العلمي اليوم كذلك ، فلا تصوف من دون خلفية بكل هذه العلوم وبكل الأديان ، ولا قيمة لأي تصوف دون (ميستية Mysticism)[١] .

ولهذا يمكننا أن نؤكد أن شروط دخول المريد إلى الطريق أو - الطريقة - اليوم ؛ لم يعد يفرضها الشيخ كما كان في السابق ، بل أصبح يفرضها منهج المعرفة العصرية بكل فلسفاته العلمية .

ومن لم يزل يفعل خلاف ذلك سيظل مجالَ هزءِ المجتمع المثقف والدول المتقدمة التي قد تستعمله لأغراضها الاقتصادية والاستعمارية من دون أن يدري ، بل وهو يظن أنه يقاومها ؛ فالنفس أصبحت موضع معرفة واسعة ، وغسيلُ الأدمغة كغسيل الأموال تجارةٌ تتعاقد عليها الدول مع مراكز البحث العلمي ، والدراسات الاجتماعية ليست من أجل العلم والمعرفة فقط ، بل هي في العالم المتقدم للسيطرة على

(١) سنأتي على هذا المصطلح لاحقاً في هذا البحث.

(دراويـش) عالمنا الثالث ، الغارق بحساب الجمل ، التائه بين تراكيـب الأحـرف ، الغـاطس بـين الكتـب الصـفراء الـتي تشتمُ بالسِّر دينَها على ظن الوصول .

علـى الصـوفي المعاصر تبعة مواجهة كل هذه المؤسسات الشـريرة بسـلاحها ؛ بالعـلم الموسـوعي والخشـوع الإسلامي ، فـإن فعلَ ، حمل ثقل الأمانة حقاً فصار جديراً بالأمان من ربٍّ أمـين لا يقـبل مـن عـباده إلا مـن هـو أشدهم عملاً ، فعن أي صوفية تتحدثون ؟ ! أو تريدوننا أن نتحدث ؟ ! . .

أنـتحدثُ عن التصوف الإسلامي القديم بخلفيته المعرفية قبل العثمانـيين والمغـول ، أم عـن التصـوف الحديـث بخلفيـته المؤسساتية في الغرب ، أم بخلفيته العلمية والفلسفية الحديثة ؟ !

لا تصـوف بمعـزِل عـن هـذه الخلفـيات ، ومـن أسباب تخلفـنا ممارسـة التصـوف الـيوم مـن خـلال خلفيـته القـرن وسـطية ، لذلـك يهـزأ مـنه كـل مـثقف ، وإن لم يفعـل يعد الحديـث عـن اللامـرئي – اللامنظور – مجرد حاسة إضافية لـيس إلا (Extra – Sensory Perception ESP) عـلى أحسن الأحوال ، لأن المتصوفة – مدعي التصوف – العرب المعاصـــرين جهلـــة بالمرئـــيات العلمـــية الظاهـــرة (Phenomenology) للعـــيان الحســـي ، وبالمرئـــيات

الواضحة في العيان العقلي الفلسفي ، وهم يدعون تواصلهم باللامرئي قبل أن يتواصلوا مع ما هو واضح نظراً وعقلاً أمامهم ! . .

ورغم ذلك نرى الجماعات الدينية الشرقية اليوم تتهافت على ادعاء التصوف إلى درجة تسمية أنفسهم بالروحانية ، مثل تهافت مدعي الشعر - وهم كثر أيضاً - على الشعر المرسل الحديث ، والشعبي من (نبطي) و (زجلي) على أمل الاستفادة من قلة قواعد هذه الفنون ، فلا حاجة لدراسة الموسيقا ولا أوزان الشعر ولا قواعد اللغة ، كي يحاول الدارس بعد ذلك كتابة شعر قد لا يملك موهبة فيه .

وبعبارة أخرى : نحن نهرب من المنهج العلمي في أي معرفة ، وعداؤنا للعلم ناتج عن جهلنا بأسسه المنطقية ، وهكذا تجتمع كراهة المنطق والخوف من الزندقة في معرفته ، مع الجهل بالعلم ، ليصبح الإنسان عدواً لما يجهل ، فملاذه المعرفي الباقي ادعاء التصوف دون أي خلفية معرفية ! !

صحيح أن التصوف ذوق ومعرفة ذوقية ، لكن الذوق بلا عقل ولا معرفة مرآة عتمة ، تعكس أحوالاً تعبر عن اضطرابات نفسية ؛ لا وسائل لفتح مغالق اللامنظور .

التصوف مرآة معرفة كل عصر بكل علومه وفنونه

وفلسفاته ، فإذا بقي على حاله عندنا فإنه سيعكس صوراً شوهاء من معارف تخطاها العلم في عالم الظواهر ، الخطأ فيها يقود إلى (وقب) ظلام اللامنظور والباطن والنومن ، فبدلاً من أن تكون الأحوال وسيلة مقام معرفي أعلى ، تصبح أدنى ، متشبثةً بمعارف أكل الدهر عليها وشرب ؟ !

بقي سؤال هام يواجه الصوفية و (الميستية) على حد سواء وهو : إنه ما دامت سلالتنا البشرية أسيرة حاسة اللمس التي هي مع ذرات الهواء شم ومع ذرات الجماد لمس ، ومع موجات الصوت سمع ، ومع موجات الضوء رؤية ، ومع ذرات العضوية - الطعام - ذوق ، أقول : ما دامت سلالتنا أسيرة حاسة اللمس هذه فهل بإمكانها أصلاً تجاوزها عند البعض ، أي هل بإمكان (الجين) الموجود في (الوطواط) أن يتسرب إلى (جينٍ) بشري يجعل شخصاً ما ذا قدرة على الشعور بالرادار لا مجرد رؤيته على جهاز بصري ؟ !

وهل بإمكان آخر تسربَ له جين من الخيل الشعور بالزلازل قبل حدوثها ، أو ثالث – وعذراً من التشبيه – تسرب له (جين) فأر فيشعر بالخطر قبل وقوعه[1] ؟ !

---

(١) وخاصة (تسونامي) البحار فتهرب الفئران من السفن قبل إبحارها؟! وهو أمر غير مفسر وعجيب؟!

إن اللامنظور المحيط بنا وفينا أخطر بكثير من أن يترك بأيدي الدراويش ليعلمونا ما هو ، وكيفية جرّه إلى حيز النظر والمعرفة ، وهو أخطر بكثير من أن تتعاوره أيدي الجهلة الذين ظنوا أنه مجال ادعاءاتهم وشبقهم للشهرة وصناعة الأتباع بادعاء التصوف ! ! ؟

ضمن هذه الفوضى العارمة في شرقنا لا حبل يربطنا باللامنظور سوى حبل (الإسلام كما بدأ) فاعتصموا به ليرحمكم الله ، فإذا وجهتم طاقاتكم وقدراتكم للعمل بما أمر صرتم أرقى الأمم وأشدها عملاً .

الباب الأول

من

التصوف

- التصوف ومبرراته :

  أ- المبررات القديمة .

  ب- المبررات الحديثة .
- صعوبات التصوف .
- الحقيقة الصوفية .
- النبوة والتصوف .
- الكرامات .
- لماذا كان عدم البوح وتجنب الغلو .

التصوف ومبرراته

نحن لا نعرف ما الحياة (الروح) ، ولكننا نعرف مسارها الكلي :

ذلك أن حياتي وحياتك قطرتان من بحر محيط كوني كلي حي ؛ فهل تعودان إليه بالموت عودة قطرة الماء إلى المحيط ، أو الكثائف إلى لطائفها ؟ . .

مبررات التصوف :

أ- **المبررات القديمة** : هي سلوك ضد اللامرئي كما أثبتنا سابقاً ، إما من خلال الرغبة فيه لإيصال الإيمان به - دينياً كان أم اعتقادياً - إلى شهادته ومعاينته ، أو من خلال الرغبة - وهي هنا من جانب الإرادة في النفس أيضاً - بتسخير اللامرئي لتنفيذ إرادتنا ، ويسمى هذا سحراً .

التصوف القديم سلوك ضد اللامرئي للخضوع له أو لإخضاعه ، وكلاهما من عمل الإرادة ، من أجل تأمين المصير ، إما بعد الموت بمهادنة اللامرئي ، أو في أثناء الحياة بتوجيهه من أجل ما نظن أنه أفضل لمصيرنا ، وهو : السحر ،

والكرامة بهذا المعنى إشارة أو تحقيق إرادة ما ، عبر الظن بأنها نتيجة المجاهدات التي قام بها الصوفي ضد مسبقات البرمجة فيه ، شرك يقع به من يظن أن مجاهداته أعطت أكلها ، وبتعبير آخر : الكرامات تزلق صاحبها نحو السحر (الوهم) ، لذلك خافها المتصوفة وتجنبوها ، أو سكتوا عنها ولم يذيعوها :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء البائحين تباح

كما قال الحلاج !

ب- **المبررات الحديثة** : وهي لا تختلف عن المبررات القديمة إلا باستعانتها بالعلم وبالفلسفة لتؤكد وجود اللامرئي ، الذي أكده الدين للمبررات القديمة ، فبدل الشيطان صار الدماغ القديم هو المسؤول عن كل شر غريزي عند الإنسان ، فُسِّرَ الجان بالميكروب والفيروس اللامرئي كسبب ما كان يتلبس الإنسان ، وبدل أحوال القلب التي أكثر منها المتصوفة القدامى ، صارت الحواس الإضافية عند البعض Extra - Sensory(ESP) تدعي إمكان البعض التأثير بالأمور الفيزيقية عبر تركيز فكرهم عليها ، والتأثير بالبشر عبر التنويم الذي به يمكن تلقي إشارات دماغ المنوم للذي ينومه (Hypnotism) - الإيحاء .

وبدل البا (Ba) التي هي الجسم الأثيري للميت الذي رسمه الفراعنة كطائر يحوم فوق المومياء ، أصبح بإمكان الدراسات الإحصائية عن الذين ماتوا وعادوا إلى الحياة ، الحديث عن كيانهم الأثيري الذي فارق جثثهم لحظة الموت ، بشكل يشبه الشفق (Aurora) التي صوروها بالأشعة السينية (Scan) للجسد (Astral Body) ، ناهيك عن القنقنة (Dowsing) و (الهالة) التي تحيط بالأجسام ، والتي يلتقطها بعض الناس ، فيقررون وجودها في التراب ، كالماء أو الأحياء المدفونة .

هذه الطاقات والقدرات تسمى عند من يمتلكها اليوم (ESP) وكان صاحبها يسمى بالولي أو القطب أو العارف بالله ، ويضعونها في مراتب الشطح ، وإن أحسنوا ففي مراتب (الأوقات) ، ولفقوا أحاديث مثل : « أقرب الناس درجة من النبوة أهل العلم (بالدين) ، والجهاد (الأكبر للنفس) » ؟ ! . .

إنَّ المبرر القديم للتصوف كان بحاجة إلى معرفة دينية وإلى التأثر بأكثر من دين واحد ، ففي كل مدرسة صوفية تنعكس آراء دينية محلية سابقة ، ولكثرة الأديان في بلاد الحضارات القديمة كـ (سورية) مثلاً ، صارت مركزاً

للصـوفية إلى درجـة أن (الغـزالي) حـين أراد أن يجـاور المتصوفة مكث فيها .

ولمـا كـان الديـن السـائد هـو الإسلام لم يجرؤ أي صوفي عـلى الخـروج أو الجهر بالخروج عنه بتأثراته الدينية السابقة ، وهذا ما أشار إليه المعري بعدة مواقع ، منها :

إذا آمـن الإنسـان بـالله فلـيكن
لبيـباً ، ولا يخلـط بإيمانـه كفـرا

وله :

قـد أسـلم الـرجل النصـرانُ مرتعـباً
ولـيس ذلـك مـن حـبٍّ لإسـلامِ
وإنمـا رام عـزاً في معيشـتهِ
أو خـاف ضـربة ماضـي الحـد قَـلاّمِ

وتحديـداً يمكننا القـول : إن الكفـر المخـتلط بالإيمان هو : السـحر المختلط بالتصوف ، أي توجيه كل طاقات وقدرات المرء لخدمـة إرادتـه هـو لا إرادة خالقـه ، وحسـب التعبير الحديـث : تسـليط كـل مـا يمكـن أن يتمـتع بـه الإنسـان مـن قوى محسوسة وفـوق محسوسـة (Extra-Sensory) لإعاقـة إنسـان آخـر ، مـن أجـل إرادة مـا تـريدها مـنه ، وأبسط صور هذه الإعاقة تظهر على

أجهزة قياس موجات الدماغ مع الإيماء لآخر بأمر توتري ، حيث تؤدي الإيماءة التوترية إلى تخفيض موجات دماغ المفحوص إلى (بيتا) (Betta) بدل (ألفا) (Alpha) .

هذا شأن الإعاقة السيكولوجية التي تسمى سحراً ، أي توجيهاً لإرادتك نحو إرادة آخر ، ومنها جاءت عبارة سحر العيون حرفياً ، لإرادة التي تريد أن تسحرك بهما .

أما الإعاقة لإرادة الآخرين كمجتمع فتكون بفرض عقيدة مجتمع آخر عليهم ، أو فرد على أمة ﴿ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : ٧٩/٢] تحت مسمى الشطح والتصوف .

لذلك خَطَّأَ أقدم كتاب صوفي وهو (اللمع) المتصوفةَ بثلث كتابه ، وشرح خطر أخطائهم المتعمدة وغير المتعمدة .

ولأجل تلافي هذا الأمر بالأديان التي تحكمها مؤسسات كالكنيسة الكاثوليكية ، وضعت تلك الأديان عوائقَ تجاه الشطح لا نجدها في التصوف الإسلامي ، وأهمها عند الكاثوليك لقب قديس (St) ، به تمنع الكاثوليكية ادعاء الألوهية الذي ميز الشطح الإسلامي عن الشطح المسيحي ، لذلك يمكننا القول : إن التصوف (Sufism) يختلف عن (Mysticism) الميستية الغربية ، بأن في الأول هرطقة

الخــروج عــن الديــن بادعــاء الألوهــية ، سواء لشخص الصوفي المـتأله ، أو حتى لشخصية إسلامية لا تقبل بهذا التجني من آل البيت النبوي ، أو الأقطاب .

(القديـس) مقـابل (القطـب الإلهي)[١] نجدهما بأسماء المتصـوفة والميسـتية الغربية متعارضـين مـثل : سـانت برنار ، سانت كاثرين ، سانت تريزا ، سانت جون . . . إلخ .

والعـارف بـالله فـلان الـتي يمكـن لهـم أن يؤولوهـا كمـا يشاؤون ، في فسحة التأويل الواسعة باللغة العربية .

لذلك جاء في التصوف المصري أبيات من مثل :

ليتـــــــنا لم نعـــــــش إلى أن رأيـــــــنا
كـــــل ذي جِـــنَّةٍ لـــــدى الـــناس قطـــبا
إن نســــــــوا الله قـــــــائلين فـــــــلان
عـــــن جمـــيع الأنـــــام يُفْــــرِجُ كـــــربا

فمـا سمـاه (الـلمع)[٢] بأخطـاء المتصـوفة هـو خـروج

(١) الجيلاني مشهور بأنه القطب الرباني.

(٢) ذكـر نيكلسـون في كـتابه ، في التصـوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة عفيفي ، عـن لجـنة التألـيف والترجمـة والنشـر د . ت ، ص : ٩٨ ، أن اللمع أقدم من كـتاب كشـف المحجـوب ، فهـو أقـدم كـتاب في التصوف الإسلامي العربي . والصـحيح أن (الهجويـري) في كـتابه (كشـف المحجـوب) ينقل عن (اللمع)

=

الذي حققه (نيكلسون) بعد ذلك وطبعه في مطبعة بيرل في ليدن ، هولندا ، عام ١٩١٤ ، كما ينقل عن الرسالة القشيرية معظم قصص الكرامات ، انظر : علي الجلابي الهجويري الغزنوي ، كشف المحجوب ، دار النهضة العربية ، بيروت ، عام ١٩٨٠م .

فقد ورد في (اللمع) تبرير لمقولة أبي يزيد البسطامي : « سبحاني سبحاني ما أعظم شاني » ، بأنه - أي هذا الشطح - ناتج عن قول الله في الحديث القدسي : « . . . فإذا أحببته . . . يسمع بي ويبصر بي وبي ينطق وبي يبطش » . انظر : كشف المحجوب ، ص ٤٩٥ .

ومن أمثلة نقل (الهجويري) عن (اللمع) كثير من أبيات الشعر التي لا تختلف عما ورد في (اللمع) إلا ببعض الكلمات ، مثل :

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهذا البيت في اللمع :

وفي كل شيء له شاهد يدل على أنه واحد

والأمثلة كثيرة ، كلها تدل على سبق (اللمع) على كشف المحجوب ، وعلى الرسالة القشيرية أيضاً ، مما يجعل (اللمع) أول مصدر للتصوف الذي يحاول أن يرتبط (بالميستية) الإسلامية ولا يخرج عن الشرع ، حتى لو اضطر إلى إيجاد لَيٍّ كل المبررات للشطح والخروج عن أسس الإسلام؛ بإفراد الربوبية ، إلى حد اعتبار الشطح نوعاً من (السكر الروحي) بجمل مجازية لا معنى منطقياً لها شأن كل المجازات ، ومعناها فقط تبريري اعتذاري لا قيمة فكرية له ، فلا يكفي أن أقول : أنا غير واعٍ لما أقول ، ثم أثبت أقوالي بكل المراجع وعلى ألسنة الأتباع ، كمن يشتم شخصاً بقوله : لا أريد أن أقول لك يابن كذا وكذا... في لا وعيي وصحوي ؟ ؟

=

إرادتهم عن الإرادة الدينية المنزهةِ لله تعالى ، المتعالي عن كل امتداد له في موجوداته (وحدة وجود) ، وعن إمكان التوحد معه (وحدة شهود) ، وعن أي تشخيص أو تجسيم ، ذي أصول دينية محلية أو هندية أو حتى (دينوسية) إغريقية تنسب إليها عربدات الرقص التي يؤدي الجذب فيها (Ecstasy) إلى رؤية ما لم تره عين ، وسماع ما لم تسمعه أذن ، بسبب نفاد السكر من الدم نتيجة الجهد الزائد ، كما يفسر ذلك الطب الحديث .

وهذا يقودنا إلى أهمية مراعاة (الوقائع) المعرفية (Facts) فيمن يريد أن يوجه إرادته نحو اللامنظور ، وخاصة تلك التي لم تعد وقائع في العلم الحديث .

فقد كان على المتصوف أن يكون عالماً بالأديان ! !

والآن عليه أن يعلم العلوم الوضعية كلها ؟ !

صعوبات التصوف :

إن مبررات التصوف هي مثل صعوباته ، فالمبررات القديمة تحتاج إلى وعي بالاعتقادات القديمة المنسلة إلى

=

فسلوك كهذا لا تصح فيه عبارة الشطح ، بل هو يدل على التجاسر على الله ، وعلى قلة الأدب والذوق ، التي - مع تبجح الصوفية بأنهم أصحاب الذوق وروّاد معارفه - تجعلهم أحط من العوام والسفلة .

الإسلام ، فإذا شعر بها ممارس طريقة صوفية ما ، فمشكلته بضرورة دراستها ؛ أي دراسة العقائد والأديان السابقة المؤثرة به وبطريقته أيضاً ، وإذا لم يشعر بها فتلك مصيبة تجعله يتخبط بما يسمى (الدوغما) ، أي ظن صحة العقيدة ، لأن الجماعة التي ينتمي لها ترحب به وبها .

لكن إذا درس هذه العقائد المؤثرة ، فعليه أن يواجه الصعوبات الحديثة ، وأهمها : تغير الوقائع (Facts) ، فما كان يظن أنه صحيح وقد بنيت عليه طرق صوفية كاملة ، تدمره الوقائع العلمية الحديثة ، مثل التقمص أو التناسخ في مواجهة الاستنساخ (cloning) ، والتوالد في مواجهة الإنجاب عند كل الكائنات ، والفضاء في مواجهة السماء في علم الفلك ، والجذب الكوني في مواجهة الجاذبية والبقع السوداء - شبابيك عوالم أخرى - لا يعرفها إلا الله .

ناهيك عن ضرورة معرفة علم النفس في مواجهة ما يسمى بالروحانيات ، كما يواجه علم الفضاء التنجيم ، فمرض مثل انفصام الشخصية عن الواقع (Schizophrenia) يجعل الإنسان يرى اللامرئي ؟ ! ونسبة المصابين فيه ١٣٪ من حالات المرض النفسي (Morbid) ، علماً بأن الدلائل

الواقعية (Fact) على وجود اللامرئي خارج إطار حواسنا ، ليست نتاج خلل بدماغ دارسيها :

ففي الفلسفة الكانطية أكثر من برهان على وجود (الشيء بذاته) أو (النومن Noumen) الذي به استدل كانط على وجود الله المتعالي عن كل تجريبية بشرية إمبريقية[١] ، فأكد ضرورة المثالية مع الإمبريقية للبحث عن الحقيقة – كما ذكرنا – .

وفي علم الفضاء هناك (Black Holes) كوقائع استدل عليها العلم النظري قبل رؤيتها ، وهناك واقعة نظرية (Facts) الآن تؤكد أنه بين الانسحاقين : الانفجار الأول (Big Bang) والانسحاق الأخير (Big Crunch) ، يتحرك القبل والبعد بمقياس حركة المادة الذي سماه (هوكنغ) بسهم الزمن ، والذي نتجه معه نحن الآن نحو الانسحاق الأخير مع كل مجرتنا بسرعة الضوء ، فإذا عاد على مساراته ذاتها بعد الانسحاق القادم بمليارات السنين – التي هي يوم أو بعض يوم بالنسبة إلى المتوفى الآن – فستلد الأَمَةُ ربَّتها ، وتخرج الشمس من مغربها ، ونعود إلى حياة عكسية هي من أشراط الساعة ، التي ذكرها الأثر الإسلامي الشريف .

---

(١) Kant, The One Possible Basis for a Demonstration of the Existence of God, University of Nebraska Press, 1994.

المتصوف اليوم عليه أن يكون صاحب طاقات وقدرات موهوبة أولاً ، يجب حين يشعر بها ألا تغره فيركن إلى شطحها وشطحاتها ، بل عليه أن يوجهها لمعرفة موسوعية علمية ودينية قبل أن يدعي أنه سالك .

وبعبارة أخرى : إن المتصوف الحديث اليوم لا يكون من دون علم ، بمعنى الكلمة المعاصرة للعلم ، إضافة إلى كونه صاحب معرفة دينية واسعة بدينه وبكل الأديان دون تعصب ، وكلمة الشطح التي كانت من مستظرفاته ، هي اليوم معيقه الأساسي عن العرفان ، العرفان الذي عليه أن يعرف استحالته قبل الموت .

مرتكزاً على حقيقة واقعة أن اللامرئي حتمي ، والموت حتمي ، والصلة بينهما لا تنال إلا بمقام العبودية لله دون سواه من ولي أو صاحب طريقة أو قطب ، فهي ليست حتمية مع هؤلاء[١] .

والموسوعية وحدها طريقه الآن في هذه الدنيا للتفكر بذوق طاقاته وقدراته في هذه الحتميات الثلاث ، وغير ذلك ظنٌّ ووهم ، وعلى الأخص خلل نفسي (Morbid) .

---

(١) كما أنه ليس محتماً على الله شيء ؟ ! فليس حقاً عليه تعالى أن يكشف لنا أي حقيقة فيما بعد الموت .

الحقيقة الصوفية :

هـل توجـد حقـيقة صـوفية ؟ ! أم أن التصـوف تمويه من تمويهات الإرادة والرغبة ، كجانبين أساسيين من جوانب النفس الإنسانية ؟ ! !

يقـول شـوبنهور : « لشـد مـا يغـيظني أن أجـادل رجـلاً بالأسباب والبراهين ، ثم يتضح . . . أنه ينبغي أن نتصل بإرادته لا بعقلـه كـي يفهم . . . فلكي تقنع شخصاً يجب أن تلجأ إلى مصلحته الشخصية الذاتية ، وإلى رغباته ؟ » .

والرغـبات الـتي تدفـع بكل طاقات وقدرات الإرادة نحو تحقـيقها ، تـتخذ في كل المجتمعات الإنسانية صيغاً وصوراً مخـتلفة باخـتلاف مـا يـراه كـل مجـتمع مـثلاً أعـلى يجـب بلوغه .

فالمـثل الأعـلى في الحضـارة الفرعونـية كـان الخلـود للجسـد ، لأن الروح « Ba » - كما أشرنا - تحتاج إلى جسد كـي تحوِّم حوله ، لذلك توجهت كل طاقات وقدرات الحضارة الفرعونـية نحـو العمـارة والقـبور والتحنـيط ، وكـان هذا الهدر الهـائل لكـل هـذه الطاقـات مـن أجـل بـناء الأضـرحة وتقديـد الجثث .

وحين شعر الناس بعبثية هذا الهدر ، بعد عدة آلاف من السنين على بناء هذه الصروح الضخمة المكلفة والمجهدة ، بدأت الحضارة المصرية القديمة تفقد هذا المثل الأعلى الذي سخرت قدراتها من أجله ، فكان لابد من بحث عن مثل أعلى من طبيعة لا مادية تشبه طبيعة كل (المُثُل) ، فظهر الدين المسيحي الشرقي بقوة فيها[١] ، لم تضارعه وتتفوق عليه سوى المُثُل العليا الأكثر تجريداً في الإسلام .

فمن التشخيص في قمته إلى التجريد في قمته أيضاً تحركت كل الطاقات والقدرات المصرية ، وما زالت تتحرك في البحث عن الخلود ، بغض النظر عن ارتدادات بين هنا وذاك كانت تحصل في فترات تاريخية متباينة ، مثل محاولة (الأخناتونية) التجريدية في عصر الفراعنة ، والعودة إلى الفرعونية في عصر تأليه الخلفاء الفاطميين داخل السياق الإسلامي .

الرغبة بالخلود ، بالإضافة إلى شعور كل إنسان باللامرئيات المحيطة به ، التي يؤكدها حتى العلم الحديث

---

(١) بعد أن مهدت له الأفلوطينية الطريق ، علماً بأن أفلوطين كان يحتقر المسيحية ، وهو ما أظهره بشكل واضح : ((Proclus) في القرن الخامس الميلادي ، خاصة (أن إله أفلوطين) هو فقط المحرك الذي لا يتحرك ولا يتدخل بمتحركاته ، ورغم ذلك نقلت عنه المسيحية و (القبالة) اليهودية ونسب التراجمة العرب تاسوعاته (Enneads) لأفلاطون خطأ .

اليوم ، هما العاملان الأساسيان بالتوجه الاجتماعي نحو هذا المثل الأعلى أو ذاك ، وتسخير كل طاقات الأفراد وقدراتهم من أجل تحققه ، فيما نسميه بالحضارة .

الحضارة إذن متصلة بإرادة الإنسان ومصالحه الذاتية ، تماماً كما حدد ذلك (شوبنهور) ، ومن هنا تخرج مثلها العليا ، فهل يخرج ما يسمى بالحقيقة الصوفية عن مثل هذا التحديد ؟ . .

طبعاً لا ! !

ما دام وجود اللامرئي أمراً حقيقياً واقعياً (Fact) ، وليس وهماً تصورياً مرضياً (Morbid) .

لكن الإشكال الأساسي للحقيقة الصوفية ، بسبب تأكيد حقيقة واقعة (Fact) اللامرئي حدسياً وفلسفياً ، وأخيراً علمياً ، هو في كيفية التواصل مع هذا اللامرئي ، وبأي الطرق ، وبأي الوسائل ، ما دامت أهمية هذا التواصل هي التي تحدد لنا القيم العليا التي يجب علينا اتباعها ، أي حضارتنا ! !

وتاريخياً كان الباب الأول الذي فتح على التواصل مع اللامرئيات هو باب النبوة ، المختلط بالكهانة القديمة ، وسبب اختلاطه هذا هو ضرورة إثبات موضوعية اللامرئي الذي ظن البعض إمكان تواصلهم معه ، بشكل مشخص

فيما سمي بالمعجزات ، وكل من كان يفشل بها كان يلجأ إلى السحر وخداع البصر للسيطرة على إرادات الآخرين ، غير عابئ بالحق والحقيقة ، ولا بالحضارة ولا بمثلها العليا .

وهذه النقطة بالذات هي التي هاجم (ديفيد هيوم) المسيحية فيها ، لكن لا (ديفيد هيوم) ولا أي عالم أو فيلسوف يستطيع إنكار وجود اللامرئي المحيط بنا من كل جانب .

يقول (كانط) بكتابه (نقد العقل العملي) : « شيئان كلما تأملنا فيهما بمزيد من الإمعان ، يملآن الذهن بإعجاب ، ورعب متزايدين دائماً :

- السموات المرصعة بالكواكب فوق رأسي .
- والقانون الأخلاقي بداخلي .

يدلان على ارتباطي بعوالم تعلوها عوالم ، وبأنساق تعلوها أنساق »[١] .

فالحقيقة اللامرئية هي الواقعة (Fact) التي دفعت أصحاب النفوس المرهفة إلى البحث عنها ، بتكريس كل كيانهم وحياتهم من أجل هذا البحث ، وهوى هذا البحث جعلهم يقطعون علائقهم مع كل ما هو سواه ، وهؤلاء يسمون

(١) كانط ، نقد العقل العملي ، دار اليقظة العربية للتأليف ، بيروت ١٩٦٦م ، ص ٢٦٦ .

بالمتصوفة الحقيقيين ، أو بعلماء الفضاء المعاصرين ، أو أولاً وأخيراً بالفلاسفة ! !

إن الهوى قد غرنا من بعد ما قد سرنا

فاكشف بلطف ضرنا قال النبي لا ضرر

بهذا عبر (جلال الدين الرومي) عن هذا الهوى الصوفي القابل لكل هشاشات الانكسار بضياع معشوقه - المطلق أو المطلق بمشخص - ضياع (شمس تبريز) صديق رحلته نحو الإطلاق ، والتي يمكننا أن نعبر عن مثيلها بصرخة يطلقها كل من تعرض للسلب والضياع بضياع شبيهه الذي يفقده :

« يا لروحي التي انفطرت بروحك ، وبرواحك زالت ! ! » .

دلالة على أن كل انفصال بين حدين متشابهين يعيق السعي نحو التلقي الذاتي للمطلق ، وهذا هو معنى الاستلاب (Alienation) في مجال التصوف ، وهو سبب كل تفلسف .

وسواء كان هذا الاستلاب محركاً للتصوف ، أم كان معيقاً له ، فهل سبيل الاتصال بالمطلق وباللامرئي هو التصوف ؟ ولماذا كانت النبوة إذا كان هذا الإمكان وارداً ومتيسراً لكل من يقوم بالمجاهدات الصوفية ؟ !

النبوة والتصوف :

السؤال السابق هو بالضبط سبب تحسس الشرع من التصوف ، لذلك لابد من التمييز الدقيق بين المتلقي الصوفي للمطلق اللامرئي - أو بعض لا مرئياته - وبين الوحي النبوي .

وأول ما يجب أن نميزه بينهما هو أن الباحث عن اللامرئي ليس كاللامرئي الباحث عنه ؟ !

أي إن المطلق هو الذي يستدعي النبي بالوحي ، دون أن يكون للنبي أي جهد أو حتى طلب لهذا الاستدعاء ، وبعبارة صوفية ؛ دون أن يكون له أن يقيم أي (مجاهدات) .

ومن جهة أخرى ليست النبوة رؤى ذاتية فقط كالتصوف ، فمن شهد الأنبياء شهد معهم وشاركهم برؤية اللامرئي .

وكل دين يدعي إمكان هذا الإعجاز للقديسين أيضاً لا للأنبياء وحدهم ، يستحق هجوم أمثال (ديفيد هيوم)(١) ، ضد رؤى القديسين التي تريد المسيحية أن تبني عليها جزءاً من اعتقاداتها .

وبالنسبة إلى الإسلام :

(١) David Hume, Of Miracles, Open Court Classics, Illinois, 1985

في مسند ابن حنبل[١] : « أتاه جبريل في صورة لم يعرفه فيها - وكان يأتيه بصورة (دحية الكلبي) . . حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تسلم وجهك لله ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ، قال : نعم . قال : صدقت... قال : فمتى الساعة يا رسول الله ؟ قال : سبحان الله خمسٌ من الغيب لا يعلمهن إلا الله . . . وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن شئت أخبرتك بعلم ما قبلها ، إذا ولدت الأمة ربتها ، وتطاول البنيان (ارتفع) ، ورأيت الحفاة العالة على رقاب الناس ، قال : ومن هم يا رسول الله ؟ فولى الرجل فقال رسول الله : أين السائل ؟ قالوا : ما رأينا طريقه بعد ذلك . قال : ذاكم جبريل يعلمكم دينكم ، وما جاءني قط إلا عرفته ، إلا اليوم » .

أما ريبة (ديفيد هيوم) بالتشكيك برواةِ أمثال هذه الأحاديث التي تدل على تفرد النبوة عن التصوف بمشاركة الآخرين باللامرئي ، فهي شأنها شأن كل ريبة متطرفة (Scepticism) ترفض أي حقيقة لا يمكن إعادة التجربة

---

(١) دار الفكر ، بيروت ١٩٣٨م ، ط٢ ، مج١ ، ص ٣٥

علـيها ، أي تـرفض الحقـيقة غير القابلة للتكرار ، وهذا موقف متشـدد مـن الحقـيقة وغـير واقعي ، فأنا لم ألتق مثلاً (نابليون بونابـارت) أو أي شخصية تاريخية أخرى لا يمكن تكرارها ، فهل يعني أن التاريخ الذي ذكر هؤلاء كاذب ؟ !

فـإذا نحـن أخذنـا بالريـبة المـتطرفة فإنـنا لـن نتعـلم مـن الماضي العلمي ولا التاريخي ولا الاجتماعي شيئاً ، لذلك كان لابـد مـن الريـبة المعـتدلة بهـذا المعـنى ، وذلـك باسـتعمال الـتعريفات الدقـيقة كمـا نفعـل للتمييز بين الأشياء التي يحتاج عقلنـا لقـبولها أو رفضـها عـلى محك المقولات المنطقية أي : (Mitigated Scepticism) ، ولعـل (البنـيوية) الفلسـفية المعاصـرة في تقصـيها المـنطقي لـثغرات النصـوص المـنقولة تحـاول ذلـك ، رغـم شـطط كـثير رافق دعاوى وضع النص في عكس ومواجهة أفكار صاحبه .

أو كما ادعى البنيوي الأنثروبولوجي (ليفي شتراوس Levi - Straus) عـام ١٩٤٩م ، أن المؤسسـات الاجتماعـية حين ترسخ في بيئة مـا ، تحصـر الحقـيقة بإرجاعـات أساسـية في التداول لا تـتغير ، وهـذه الإرجاعـات ذات بنـية لا تسـمح بالخـروج عـنها ، وهـذا مـا أكدتـه نظرية (لاكان Lacan) في التحليل النفسي لكل خلـل لاشـعوري ، لا يخـرج مـن إرجاعاتـه الأساسية لإرجاعات

أخـرى ، وهـذا يفـرض عـلى بنيـته النفسـية مـا تفرضـه البـنى المؤسساتية من إرجاعات يظل في حلقة تكرارها مأسوراً ؟ !

والمهـم مـن كـل هذا الانتباه إلى أن الإرجاعات الأساسية في الـتاريخ ، وتـاريخ الأديـان بحـد ذاتهـا ، كانـت قـبل أن تصبح بنى معادة المضغ ، إذا صح التعبير ، كانت وقائع تاريخية (Facts) .

ومـا وجـود الاخـتراق - ببعضـها - للامـرئي عـياناً أمـام الجمـيع مـع الوحـي النـبوي ، وعـدم تكـراره بـأي مقـام حالة صـوفية بعـد ذلـك ، إلا دلـيلٌ عـلى تمـيز الحقـيقة النبوية عن الأحوال الذاتية الصوفية .

الكرامات :

إنَّ المصـادفة إذا حصـلت عند الحاجة إليها ، ارتبطت فوراً بالسـببية (السبب والنتيجة) ، ولذلك تسمى : (كرامة) ، فإذا كانـت الحاجـة إليها شديدة جداً صارت (خارقة) ، وإذا كانت الحاجـة إلـيها مرتـبطة بالحـياة والمـوت سميـت (معجزة) ، والأمثلة لا تحصى .

ففـي غـزوة (تـبوك) قـال عمـر (رضـي الله عـنه) : « خرجـنا إلى تـبوك في قـيظ شـديد ، فنزلـنا منزلاً أصابنا فيه عطـش ، حـتى ظنـنا أن رقابـنا سـتنقطع . . فقـال أبـو بكـر

الصديق : يا رسول الله ؛ إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا . فقال : أوَ تحب ذلك ؟ قال : نعم . قال : فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم . ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت المعسكر . . وأنهم قالوا لرجل معهم منافق : ويحك هل بعد هذا من شيء ؟ ! فقال : سحابة مارة »[١] ! !

فقوله سحابة مارة دلالة على أن هناك دوماً مجالاً لإنكار خوارق الأنبياء ، لتدخل عنصر الإرادة الذي تحدثنا عنه في تشكيل القناعات ، فمن لا يريد الإيمان فسوف يتذرع بألف سبب ، وينكر ألف عيان واضح ، وقد عبر الله تعالى عن هذه الإرادة السيئة بالطغيان ، شأنها شأن كل إرادة لا تستمد مشيئتها من مشيئة الحق ، فهي شخصية مبلسة . قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ❁ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : ٩٦/٦-٧] .

وهذا يقودنا إلى أمر هام وهو أن الإنسان يستطيع بإرادته أن يحقق المعجزات ، لكن كل هذا الإعجاز الذي ينتج عن الإرادة ، لا قيمة له اجتماعياً إلا إذا استمد الإنسان إرادته مما يريده الله تعالى ، وإلا فكل إرادة تتحقق معجزة ، لكنها مبلسة أيضاً .

---

(١) واشنطن إيرفينغ ، محمد (ص) ، ترجمة هاني يحيى نصري ، المركز الثقافي ، بيروت ١٩٩٩م ، ص ٣٨٦ .

فهدف الكرامة « أن تُبدلَ خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود »[(١)]، ولذلك فرب رجل « أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرّ قسمه »[(٢)]، على أن ندرك أن الله لا يغير قدره حتى على أنبيائه، فلا يؤجل الدعاءُ الموت، ولا قيمة له بمغايرة سنن الخلق التي وضعها الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٠].

وهذا يعني أن الإرادة المرتبطة بالإعجاز وبالكرامة، حتى بالخوارق، محجوزة - سجينة - بذات المريد، لا يمكنها أن تسلط لا على قوانين الخلق ولا على العباد الآخرين، وبهذا يمكننا أن نميز الإرادة الصوفية من الإرادة السحرية، وأي خلط بينهما يحول الصوفي إلى مشعوذ.

قال صاحب اللمع: « فكذلك الأولياء يظهر الله تعالى لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم.. والأولياء كلما زيد في كراماتهم يكون وجلهم أكثر، وخوفهم أشد »[(٣)]، وهم إذ ينالون ذلك ينالونه « حتى يحتجوا بذلك على أنفسهم عند اضطرابها وجزعها »[(٤)].

---

(١) نيكلسون، اللمع، مطبعة بيرل، ليدن، عام ١٩١٤م، ص ٣٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٩.

لذلك دافع الغزالي عن الحلاج في كتابه : (مشكاة الأنوار)[١] لتوبته حين قال :

بالسّر إنْ باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماءُ البائحينَ تباح[٢]

وهذا نموذج من بوح أسراره ، قال الحلاج :

كفى حَزَناً أني أناديكَ دائباً
كأني بعيدٌ أو كأنّكَ غائبُ[٣]

هذا التبجح على الله جاء من مفهوم الحب الصوفي ، إذ للحبيب دالةٌ على حبيبه إذا قاطعه ، لكن هذا كله يختلف مع مفهوم العبد الإسلامي ، فالإنسان ليس حبيب الله بل عبده ، ومن شرف العبودية هذا ناجى الرسول ﷺ الله دون دالة ولا شطح في الكلام كما فعل (الحلاج) بعد ذلك . . (كأنك غائب) ؟ !

ففي (بدر) قال رسول الله ﷺ مخاطباً الله ربَّ الجلالة والإكرام خطاب العبد الذي يرى خطراً على

(١) ماسنيون ، ديوان الحلاج ، طبعة مصطفى الشيبي ، ١٩٧٤م ، ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

سيده ، ناقلاً له رسالة من الأرض كما ينقل رسائله من السماء ، لكن بصيغة قلقة فيها إنذار يقترب من الشطح دون أن يقاربه ، قال ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد في الأرض أبداً . حتى سقط رداؤه وجعل أبو بكر يرده عليه ويهيب به قائلاً : يا نبي الله بعضَ مناشدتك ربك » ! !

هكذا نجد فرقاً كبيراً بين نقل رسالة الخطر إلى السماء ، وبين التجاسر الصوفي مع (الحلاج) على الله باتهامه بضعف الاتصال : (كأني بعيد) ، أو حتى بعدم الوجود : (أو كأنك غائب) ، لأنه لم يعطه كرامة ما ؟ !

وبصيغة أخرى في موضع آخر قال (الحلاج) واصفاً هذه القطيعة التي لا حق له بها أصلاً ، مدعياً على أبيه الذي في السماء كما يحب أن يعد نفسه نصرانياً ، على دين (شغب) زوجة الخليفة (المقتدر) :

إنـــي يتـــيم ولــــي أب ألــــوذ بـــــه
قلــبي لغيبـــته مـــا عشـــت مكـــروب
تعارفـــت مـــن قديـــم الـــذر أنفســـنا
فأشـــرقت شمســـهم والدهـــر غربيـــب

وعن نصرانيته قال :

ألا أبلغ أحبائي بأني
ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتي
ولا البطحا أريد ولا المدينة[1]

لماذا كان عدم البوح وتجنب الغلو :

في عمق الحقيقة الكونية قبل الادعاء بأن تنحل حقيقتي وحقيقة روحي وروحك ، في كون كلي حي ، (إنا لله وإنا إليه راجعون) ، لابد من التطهير ، لكي نعذب بالعذاب الدنيوي الذي لابد منه حتى نكون جديرين بالحضرة أمام الحق ، لذلك قال تعالى للذين ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٢/٤٦] قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ❁ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٢/١٥٥-١٥٦] .

ويتساءل الصوفية عما ستبشرهم : بالحب الذي لا شك

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

فيه ، باللقاء الذي لا فراق بعده . . بالخير الذي لا شر فيه ، بالفضيلة التي هي ليست وسطاً بين رذيلتين ؟ !

الشوق لمثل هذا وسواه يكون بالتدين ، والشوق لمثل هذا وحده يكون بالاتجاه نحو التصوف ، الأول مفروض ومطلوب ، والثاني منهيٌّ عن إعلانه كي لا يأخذ مكان الأول ولا قاعدة له لتعدد طرقه تعدد أنفاس الخلق .

الصوفي الحقيقي (ملامتي) لا يسمي نفسه صوفياً ! ! ولا يدعو لترك الدنيا حتى لا يلغي الدين الإسلامي برهبانيته التي يفرضها على نفسه ، لذلك يقول إذا سئل عن كراماته عند الله :

وكان ما كان مما لست أذكره
فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

فلماذا لا يريد الصوفي الحقيقي إلغاء الإسلام والتسليم ؟ ! :

لأن المنعزل الذي يهرب مما ذكرته السورة السابقة ، من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس وثمرات عمله ، المنعزل الذي يهرب من كل هذا ، الذي يهرب من الدنيا ، لا ينال العذوبة من عذابها ، فهو غير جدير بالحضرة الإلهية التي لا يستحقها إلا من خبر الدنيا وعذابها ، وإلا فهو بحاجة إلى عذاب آخر كي يعذب .

فالسنة النبوية الشريفة لا تريد إلا من هو متمثل برسول الله ﷺ ، منخرط بأمور الدنيا دون نسيان الآخرة ، لذلك كان ﷺ نبياً وليس بناسك مهزول منعزل بالصوامع ، ينتظر المعجزات دون أشد أصناف العمل والجهاد ، وانخراطه في كل جوانب الحياة اليومية لا يجعله يخالف سنن الخالق ، لا في الزواج والنكاح ، ولا في الغرائز التي وضعها الله في صلب بنية عقلنا (وتحديداً تحت المهاد في الدماغ) ، ولا في مواجهة السيف بالسيف والقلم بالقلم ، وهو يعرف أنه في أثناء هذه المواجهات سيبتلى ، شأنه شأن كل من كانت أمه تأكل (القديد) وتبحث عن رزقها في أي زمان ومكان ، سيبتلى بالخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات . . وسيصبر ؛ لأن هذه هي شروط تطهير الأنفس في هذه الحياة ، والصابر عنها وعليها هو الذي سينال بشارة رضا الحق بنفسه عليه ، وثمرة هذا الجهاد لا للنفس كما يظن المتصوفة ، بل للآخرين ؛ وهي إيصال الناس كل الناس إلى وعي الواحدية المطلقة لله تعالى دون أي وهم حلولي أو تشخيصي أو شهودي وهمي .

وبمجرد أن يحصل هذا الوعي عندي وعندك تصبح أنظارنا معلقة بكل مثل سام رفيع ، يرفعنا من تفاهات الحياة اليومية إلى التهيب من البقاء إلى الأبد مع تلك التفاهات ،

فنشارك بكل (طاقاتنا وقدراتنا) من أجل هدف مثل هذا الخلاص .

فمصائب الجوع والخوف والنقص من أنفس من نحب ، وكل مصائب هذه الدنيا يجب ألا تمنعنا من الانخراط بها ، لنؤكد أينا أشد عملاً في سبيل خالقنا ، فإذا فررنا من كل هذا إلى الصوامع عند أول كرامة ننالها ، وبحنا بها تبجحاً ، خالفنا سنة الله بخلافة الأرض ، ولأنه تعالى غني عن العالمين حتماً فإنه سوف يستبدل بنا قوماً آخرين ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/ ١٠٥] ؛ ولم يقل المتبجحون بما أكرمهم به الله ، الغالون بكل شيء ، وأخطره غلوهم بالدين ، وانسحابهم من الدنيا قبل الموت بالعزلة ، وبها ما يسمونه مجاهدات تزوي بالجسد قريباً من الموت ، وربما تؤدي إليه ، ولا يقبلون تسميتها انتحاراً .

وينقل (الغزالي) قول رسول الله ﷺ وهو على فراش الموت قال : « ما تقولون ؟ ! قالوا : نقول : نخشى أن تموت ؟ ! . . فخرج للناس وقال : يا أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون علي الموت كأنه استنكار منكم ، وما تنكرون من موت نبيكم ؟ ! ألم أنعِ إليكم وتنعَ إليكم نفسي ؟ هل

خلد نبي قبلي ؟ . . ﴿ وَالْعَصْرِ ❁ إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ❁ إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العصر : ١٠٣/١-٣] . . وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمرٍ على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه . . »[١] .

فالذي يعاجل الله بالموت يغالبه ، ولا غالب إلا الله ! ! لذلك قد يسارع الله له بما طلب وقد يؤخر ، وبكلا الأمرين لا يخدع الله كل مخادع لقدره تعالى .

ولماذا هذه المواجهة مع الحق تعالى بدعوى الزيادة بالزهد بما أعطانا أصلاً ؟ ! بدل أن نشكر نعمته ونظل أمناء على وصيته بالزهد بإمامتنا على أرضه تعالى ، نصلحها كما أمرنا ، ومن أجل هذا نظل نحن أوصياءَ على ملكه عبيداً له ، فلماذا نأبق بهذا الغلو بالزهد ؟ !

إن الزهد في الإسلام هو أن تزهد بما في يد غيرك لا أن ترفض ما يعطيك إياه الكريم الوهاب ، بل تأخذه وتشكر نعمه وتتلو : ﴿ فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ❁ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النّارِ ❁ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمّا

(١) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، مج ٤ ، ص ٤٧٠ .

كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴾ [البقرة : ٢/٢٠٠-٢٠٢] .

هـذه هي عظة من عظات وسطية الإسلام ضد الغلو ، الذي هو : الزيادة والتطرف فيما نظنه من الدين وهو ليس منه .

الباب الثاني
الميستية والتصوف
في الحضارات الشرقية

- مقدمة .
- الميستية والصوفية في الهند .
- التصوف حالة فردية لا يمكنها أن تكون اجتماعية .

مقدمة

إن التصـديق المطلـق كالريبـية المطلقـة (Scepticism) لا حـدود لهمـا ، وكلاهما يستند إلى ما يظنه صاحبه أنه وقائع (Facts) حقيقية تدعم وجهة نظره ، فإذا تبين أن هذه الوقائع ليسـت واقعية تحول الريب إلى تصديق ، أو العكس ، التصديق إلى ريـب ، فالفيلسـوف برتـراند رسـل (Bertrand Russell) كـابن لتقدم العلوم في القرن العشرين ، والذي شهد تغيراً هائلاً في الوقـائع (Facts) ، في الطبـيعة ومـع الإنسـان ذهـب إلى رفـض الميتافـيزياء والدين معاً ، وأكد على أن لا معرفة يقينية إلا بالتجريبـية الفلسـفية والتجريب العلمي ، لذلك قال : « إن مـا يسمى بالفكر - فكرنا - قد بدا أنه مرتبط بمسارات دماغية تعـتمد عـلى التـناغم والانسجام فيما بينها ، بالطريقة ذاتها التي يعـتمد بهـا المسـافر عـلى الطرق وسكك الحديد . . . فنقصٌ بالإيودين (Iodine) سيحول أذكى الرجال إلى أهبل ، وهكذا ترتـبط الظواهـر الذهنـية كمـا يـبدو ببـنى (Structure) مادية »[1] .

---

(١) Russell, What I Believe, Routledge, London, 2004, P2

لكن الأمر الناقص في مثل هذه التعليلات هو : أن الوقائع (Facts) العلمية حين تتغير لا تثبت على تغيرها ، ودون السؤال وإلحاحه على الذهن تجاه حدود أي واقعة مقنعة جديدة ، لا يخصب مفهومنا عن الوقائع ، وبتطبيق هذا على رأي (رسل) السابق نسأل : أين دماغ - ذهن - النبات المتسلق الذي يأمر كل جسد النبتة بالاتجاه نحو النور من جهة ، ونحو الأشجار المجاورة لتعلق عناقيد عنبها عليها من جهة ثانية ؟ ومن دلها على الأشجار المجاورة وعلى جهة الضوء الشمسي الأفضل ؟ !

فإذا كان التفاعل البيوكيميائي في (اليخضور) يفعل كل هذا ، فلماذا نريد أن نحصر الفكر في الدماغ الإنساني فقط ؟ ! لم لا يكون اليخضور (clorophyll) عقلاً ؟ !

أقول هذا لا لكي أذهب بعيداً في حوار مع التجريبية الفلسفية ، بل لأؤكد للقارئ فقط أمرين : الأول ؛ هو أن تغير الوقائع المنطقية - العلمية - يغير القناعات .

والثاني ؛ وهو أن الإنسان إذا ما تحول من الريب إلى التصديق ، بناء على واقعة أو وقائع صحيحة الآن ، أو إذا تحول من التصديق إلى ريب مطلق ، يتعصب لموقفه الجديد أو القديم بتمسكه بالوقائع الجديدة أو القديمة التي بها اقتنع ، يصبح دوغمائياً متشبثاً بمعتقدات زائلة .

وعلى هذا الأساس دخلت المعتقدات القديمة في الدين الإسلامي لتشكل ما سمي بعد ذلك (بالتصوف الإسلامي) ، وهي كما سنرى مبنية على وقائع (Facts) تدمرها أبسط الملاحظات العلمية اليوم ، أو تهز ما لم تدمره منها هزاً عنيفاً ؟ !

على ألا تعمينا هذه النتيجة عن رؤية هذه المحاولة الإنسانية الضخمة التي تحركها كما تحرك نقيضها – المنطق العلمي – إرادة الإنسان ؛ من أجل التواصل مع المطلق واللامرئي بكل السبل ، حتى (رسل) الذي يسمي نفسه لا أدرياً (Agnostic) بكل زخم إلحاد اللاأدرية يقر بأنه « محال علينا أن نقرر السلوك الصحيح الذي يجب علينا اتباعه... ما دام كل السلوك الإنساني ينبع من الرغبات (الإرادة) »[١] .

إن إرادة الإنسان تحفزه على البحث عن اللامنظور وأن يُشغَفَ بالمطلق ، لذلك يسخر كل طاقاته وقدراته لا من أجل هذا البحث فردياً ، بل من خلال من يظنهم قد وصلوا إلى نتائج أفضل مما وصل إليه .

وبهذا الحدس الذي يوجه الإرادة الفردية نحو الإرادة الجماعية الاجتماعية ، ذهبت الاعتقادات الهندية القديمة كل

(١) Ibid, P 14 .

مذهب ، ووصلت إلينا مع الإسلام وقبل الإسلام ، ووصلنا إليها من كل صوب .

وبناء عليه لا أستطيع - كما سيرى القارئ - أن أقر أن التصوف الإسلامي ، وليد الرهبانية المسيحية وحدها ، فما ذكره (الغزالي) أن « عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى »[١] وأن الحسن البصري (رضي الله عنه) قال : « لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف »[٢] ، فهذا لا يعدو عن كونه زهداً ! !

أما قول (ماسنيون) : « إن (الحلاج) رجل متصوف روحاني ، وإن فوارق الأديان لا يحسب لها حساب في حالته »[٣] ، فيجب أن يؤخذ بمعناه الواسع لا بمعنى تأثره بالمسيحية فقط ، رغم بروز هذا التأثر بشكل واضح ، كما سبق وأشرنا ، خاصة أن (الميستية المسيحية Mysticism) لا تسمح ، من خلال الكنيسة ، بالقداسة أن تتجاوز حدودها نحو التأله ، وبعبارة ثانية ضبطت الكنيسة المسيحية الشطح الصوفي

---

(١) إحياء علوم الدين ، مرجع سابق ، مج ٥ ، ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ديوان الحلاج ، مرجع سابق ، ص ٩ .

كمؤسسة دينية إرجاعية - يجب أن يرجع إليها كل مسيحي حتى تعترف بإقراره الكنسي - ضبطت الشطح بلقب : (القديس) ، بدل (أنا هو) ، و (ما في جبتي غير الحق) ، و (الحق أنا) . . . إلخ من حلول إلهي بالبشر يدعيه التصوف الذي يصر على أن يسمى إسلامياً ، لعدم وجود مؤسسة في الإسلام كالكنيسة تحدد حدود الهرطقة .

نحن إذن بحاجة إلى أن نلقي نظرة سريعة على الأثر الهندي في التصوف قبل أن نبحث عن الأثر المسيحي (الميستي Mystic) فيه ، مع اضطرار تسميته بالإسلامي ما دام أصحابه يدعون أنهم مسلمون ، من المنطلق الإسلامي الذي لا يجوز فيه تكفير أحد يدعي الإسلام ، مهما بدا ادعاؤه باطلاً ، سماحة لا تجدها إلا في الدين الإسلامي الحنيف ، إلى حد أن الغزالي حين نقل عن جعفر الصادق أنه حين « خرَّ مغشياً عليه وهو في الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها »[١] ، لم يبد أي استغراب لهذا الخروج عن التوحيد الإسلامي ونهاية النبوة مع محمد ﷺ ، بل برز ذلك بقوله : « فالصوفي لما لاح له نور ناصية التوحيد . . . يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة ،

(١) إحياء علوم الدين ، مرجع سابق ، مج ٥ ، ص ٥١ .

كشجرة موسى عليه السلام . . . إلخ » ، فاتحاً بذلك باباً للأولياء أوسع من كل أبواب الأنبياء ، فمحمد ﷺ لم يكلم الله ، لكن أولياء التصوف كلموه كشجرة موسى (عليه السلام) ، وبذلك صار قياس الولاية على النبوة أرفع ؟ !

هكذا ظلت إرادة الاتصال بالمطلق ، واختراق حدود اللامنظور منذ أن كان البشر ، تلح على علم النفس ألا يتعرض بصفة المرض لمدعيها ، وللناس وعلى الناس لتشكيل العقائد ، وأول مؤثر من آثارها في حضارتنا جاء من الهند .

الميستية والصوفية في الهند

قدمت الحضارة الهندوسية قبل المسيح (عليه السلام) مجموعة من المصطلحات للزهاد ، كي تشجعهم على توجيه إرادتهم ضد إرادتهم ، عسى أن يكون ذلك طريقاً نحو اللامرئي ، لكي يصير بعضهم رهباناً (ميستيين Mystic) ، وبعضهم متألهةً (صوفيين) .

ففي (الفيدا) أي الحكمة التي هي أساس الهندوسية ، والتي أدخلها إلى الهند قبل ألفي عام مجموعة من الغزاة الآريين البيض (Aryans) ، لترسخ سيطرتهم العرقية على الدرافيديانس (Dravidians) أي السكان الأصليين لما سمي بالهند بعد ذلك ، في (الفيدا) دوغما رسخها الآريون على الأسس التالية[1] :

١- البراهما هم خدام الآلهة ، فإذا رضوا رضيت الآلهة ، وعم النظام (ريتا Rita) ، وخلص الناس من فوضى وشرور الشر (فريتا Vrita) .

---

(١) Hopkins, The Hindu Religious Tradition, Wadsrworth, CA 1971

٢- يجب على الناس ممارسة التأمل (يوغا Yoga) وهم يرتلون (الفيدا) ، لأجل تحويل الإرادة نحو الذات لا على الآخرين .

٣- (الكارما Karma) هي طاقة الحياة التي تشتتها الإرادات الفردية ، مما يجعل الإنسان أقل إنسانية فيتقمص أدواراً أقل مرتبة في حياته القادمة .

٤- ويمكن للتقمص أن ينحط بالإنسان إلى درجة الحيوان حتى الجماد ، أما إذا ارتفعت (الكارما) بإطاعة (الفيدا) فقد يولد الإنسان (آرياً) أو يصبح (براهما) أو متألهاً ، وسمي هذا تناسخاً وعكسه فسخاً ومسخاً ورسخاً في أغلال التناسخ[1] .

٥- تحدد منزلة الذات - النفس أو الروح - بعد الموت (Atoma) ، فإذا كانت صالحة - حسب معايير الآريين - تتحد مع (البراهما Brahma) وبذلك يصبح الفرد كونياً كلياً ، مطلقاً دون بداية ولا نهاية ، ويخلص من دورية التناسخ التطهيرية عبر كل (كور) و (دور) .

(١) إن الذي لا يؤمن بالتناسخ من أهل يؤمنون به ينفسخ عنهم في حياته القادمة ، فإذا كان فاسقاً تحول فيها إلى مسخ حيواني ، فإذا لم يتعظ فسيصير راسخاً بدورية التناسخ إلى الأبد وهذا هو : الرسخ . إن التهويل والتخويف هنا لا البرهان أو الذوق هو أساس الدوغما التقمصية أو التناسخية على سواء .

هـذه (الدوغمـا) لم تناقشـها كـل الديانـات الهـندية ولا الاعـتقادات الباطنـية الإسـلامية ، بل بنت عليها وبحثت لها عن تأويلات من القرآن والأحاديث بشكل مجحف بحقهما .

لذلـك دخـل مـا سمـي بعلم حساب الجمل المرتكز على الفيثاغورية و (القبالة) السحرية اليهودية ، بالبحث عن كل ما من شأنه أن يبرر هذه (الدوغما) التي تقود إلى نتيجتين :

الأولى : خلـود تطهـيري بـالأرض يـؤدي إلى ارتفـاع بالدرجات ، أو العكس .

والثانـية : مصـلحة سياسـية لـلحكام الذين هم في موقعهم العـالي أو المـتعالي عـلى الـناس ، يـنظر إليهم على أنهم كمن أنجـز واجـبات التطهير واقترب من الألوهة ، أو حتى صار هو (الـبراهمان) أو الكـيان الكلـي الإلهـي ، أو هـو تعبير عنه في الأرض .

هكـذا رَسَّخَت مفاهيم التقمص والتناسخ الطبقية والعرقية الاجتماعية ، والطغيان الشرقي ، وأعطتهما بعداً صوفياً ودينياً ، فـلم يعـد الحـق الإلهـي والـتأله لـلحاكم مقتصـراً على تفاسير النصـوص ، كمـا عند المسيحية في عصور الظلام الأوربية ، بل صار هو النصوص ، أي هو الدين بحد ذاته .

أمـا المعـرفة فتـنال مـن الـذات بالـتأمل الـيوغي (Yoga Meditation) ، لا بالبحـث عـنها في العـالم المحـيط بـنا ، بل

بقطع العلائق مع كل ما هو خارجي بما في ذلك كل حاجات الجسد (Patanjali) ، حتى يدرك ويتوحد مع (البراهما) فيخلص من دورة التناسخ إذا مات ويتحرر[١] ؟ !

ومما تجدر ملاحظته بهذا الشأن أنه منذ أن وضع (الآريون) هذه الدوغما راح كل الشرق والمشرق يأخذ بها دون مناقشة ، مع تعديلات مختلفة ؛ فالذين تأثروا مثلاً في المشرق العربي بالعصبية (اليهودية) تبنوا التقمص ، على أساس أن شعبهم المختار لا يمكنه أن يرتد بهيمة في التناسخ ، وجل ما هنالك أن من يخرج عن انغلاقية وقوقعة هذه العصبية التي رأت هذه الدوغما بالتقمص غيبية معززة لها ، « يفك رقبته » من المسيرة نحو الكلية الكونية عند من أُلِّهَ من الحكام ، ويظل يتنقل خارج عصبيته بين الأديان - التي يرونها تأويلية وتنزيلية لا تفهم واحديتهم الدوغمائية هذه - إلى ما لا نهاية في (أكوار) و (أدوار) التقمص ؟ !

أما الذين تأثروا بالأديان التأملية التي اشتقت عن (الهندوسية) هذه كالطاوية المشتقة من البوذية في الصين ، والتي عاملت الجنس (Sex) على أسس سحرية كجزء من

---

(١) Mircea Eliade, Yoga, Imortality and Freedom, Princeton university Press, N. J. 1969.

النشـاط الرياضـي يتـبادل فيه الذكر والأنثى امتصاص طاقة كل مـنهما (Dao) ، لذلـك تنصـح الطـاوي بالإكـثار مـن النسـاء لامتصـاص طاقـاتهن عـبر فـن قـدرات يعـلمها له الطـاوي أي الحكـيم ، عـبر سلسـلة تعالـيم تخـتلط فـيها الآراء الكنفوشـية والبوذية بالطاوية (Zongjiao) .

والذيـن تأثـروا بهـذا في العالم الإسلامي فأفرزوا الشيوعية القرمطية (كالمزدكية) ، يقول عبد القاهر البغدادي :

« صـنف مـنهم كـانوا قـبل دولـة الإسـلام (كالمزدكـية) اسـتباحوا المحـرمات ، وزعمـوا أن الـناس شـركاء في الأمـوال والنســاء . . إلى أن قتــلهم (أنــو شــروان) في زمانــه »[١] ، وعـندما جاء الإسلام قالت بقولهم (المحمِّرة) الذين « ظهروا في دولـة الإسـلام ، وهـم فريقان : أتباع بابك الخرمي . . . إلى أن أخــذ بـابك وأخـوه إسـحاق بـن إبراهـيم وصـلبا في أيـام المعتصم ، واتهم (الأفشين) الحاجب . . وقتل أيضاً »[٢] .

لذلـك لجـؤوا إلى (التقـية) وخاصـة مـن بقـي منهم من أتـباع (مازيـار) ، فبنوا « في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن

---

(١) عـبد القاهـر الـبغدادي ، الفَـرْق بـين الفِـرَق ، منشـورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٢٥١ .

(٢) المرجع السابق .

فيها المسلمون ، وهم يعلمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلون في السر ولا يصومون . . . وكانت فتنة (مازيار) قد عظمت في ناحيته إلى أن أخذ في أيام المعتصم أيضاً وصلب بـ (سر من رأى) »[١] .

أقول : أمثال هؤلاء ممن تأثر بالأديان التأملية التي اشتقت من الهندوسية كالطاوية ، قالوا بالتناسخ ، على العكس ممن قال بالتقمص من الذين تأثروا بالإسرائيليات في الإسلام ، ورأوا أن المرأة بهيمة لا تتناسخ ولا تتقمص ، وعاملوها كساقطة مشاعة لهم جميعاً .

وكلاهما ظن أن هناك حقيقة صوفية هي : دوغما تنقل الأرواح بعد الموت وأثناء الولادة مباشرة ، أو بعد حين معلوم يحاولون تحديده بهلوسات الفيثاغورية بحساب الجُمَّل .

هكذا قدمت الصوفية الهندية دوغما التقمص والتناسخ للعالم الإسلامي ، وعززتها الحلولية الميستية الفيثاغورية الإغريقية المتأثرة بالديانات الفينيقية وخاصة بالإله (تموز) إله التقمص الذي انتقل مع بعض الآريين إلى الهند قبل (الفيدا) هناك بعدة آلاف من السنين ، وإلى اليونان من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

«ساحل بلاد الشام، فقد ظهر (تموز) في شخصية الإله الفينيقي (أدونيس)»[١].

هكذا نجد أن التداخل بين الحضارات القديمة كان أقوى وأكثر مما نتصور اليوم، وأن ما نسميه أدياناً فيها اليوم، لم تكن أكثر من تخمينات صوفية في ضوء ما كانوا يظنونه وقائع (Facts)، يمكن أن تبنى عليها مبررات اعتقادات الإنسان وسلوكه تجاه حقيقة وواقعة وجود اللامرئي، الذي نعرف اليوم أننا لا نعرف عنه شيئاً.

هذه التخمينات الصوفية القديمة حين أخذت كمعارضة للإسلام والمسيحية، بعد أن أشارا إلى الله الواحد الذي بيده كل لا مرئي، صارت تعدّ هرطقة يجب كبحها كما فعل الإسلام السني، أو السيطرة عليها كما فعلت الكنيسة، وذلك باحتوائها تحت ألقاب القداسة، التي ما زالت تسمح بانتشار المسيحية في الهند ضمن إطار تلك البيئة الصوفية فيه، لأسميها الميستية المسيحية في مواجهة التصوف الديني الشرقي.

وعلى العكس، فإن معيق انتشار الإسلام بكل عقلانيةِ أخباره عن اللامرئي هو الواجب الإسلامي بقمع كل ما يخرج من التصوف فيما يعارض الشرع، ولهذا السبب تحولت في

---

(١) أنطون مورتكات، تموز، مؤسسة والتردي غرويتر، برلين ١٩٤٩، ص ١٣.

الهـند الصـوفية الهندوسـية إلى (السـيخية) مـن حـركة تعليم صـوفية أرادت الجمـع بـين الهندوسـية والإسـلام ، إلى حـركة مقاتلين (Sing) التي تعني بدل (سيخ) التلميذ ، تعني الأسد المقـاتل ضـد الإسـلام ، وهـم يزهقون دماء المسلمين من أجل الظـن الصـوفي بأن « الله يختار البعض ليكون مقرباً منه ، ومن خـلال كلامـه ، أي كـلام هـذا المخـتار الذي يسمى المعلم أي (غوروس Gurus) يكلم الله الناس »[١] .

خـلاف حـول اللامـرئي وإمكان بعضهم الاتصال به من ما وراء النـبوة ؟ ! لأجلـه تسـفك دمـاء الهـنود وخاصـة المسلمين مـنهم ، أمـام المعـبد الذهـبي للسـيخ (أمريتسـار Amritsar) الذي يعني : باب الأستذة ؟ !

هـذه بعـض مـن تجلـيات الميسـتية والصـوفية على أرض الواقع بين شعوب أمية ؟ !

فكـيف يـنحدر المطلـب الصوفي لا بالمعرفة ، التي يحبها الفلاسـفة ، ويـراها المتصـوفة أقـل بكـثير من طموحاتهم ؛ بل بالعـرفان ، إلى الجـرائم وإراقـة الدمـاء اجتماعياً ؟ ! أم أن هذا مصـير كل ذوق فردي راق بين يدي الناس ، والمجتمع الذي لا يفهـم الأمـور إلا بمنطق الإرادة في القهر ، منطق (De Facto)

---

(١) Owen, W. Cole, The Siks, Routledge, London 1978.

أي الأمـر الواقـع ، لا مـنطق البحـث عـن الوقـائع (Facts) ، وخاصة اللامنظور منها ، لكن الذي عليه يتحدد مصيرنا ؟ !

التصوف حالة فردية
لا يمكنها أن تكون اجتماعية

وقد قدم (الغزالي) ترجيحه لذلك ، وقدمت الكنيسة (الميستية Mysticism) كضابط للتصوف الاجتماعي ، فكيف كان ذلك ؟ !

وقد رأينا الأسباب التي سمحت للمسيحية بالتقدم في الهند منذ أن ضبطت الكنيسة الشطح الصوفي فيها ، وحولت الشطاح إلى القداسة بدل الهرطقة ، بينما تراجع الإسلام - الذي لم يعد في (الهند) ديانة استعمارية كالمسيحية - تراجع إلى حدود (باكستان) .

ورغم أن الغزالي لم يعالج التصوف من الناحية الاجتماعية ، فمال إلى تفضيله في نهاية حياته (اقترابه من مصيره) ، فإن انعدام هذه المعالجة دفعت بكثير من الفقهاء إلى القول :

إن الغزالي لم يضل إلا في منقذه[١] .

---

(١) من أواخر كتبه كتاب المنقذ من الضلال .

لأنه آثر العزلة وترك الجماعة شأنه شأن « آلاف من رجال المسلمين ونسائهم ؛ الذين اعتزلوا الناس . . إما فرادى أو مع نفر قليل من أصحابهم ، لما رسخ في نفوسهم اليقين من عذاب الآخرة وأهوال يوم القيامة »[١] ، ومن هؤلاء من كان يدعو نفسه : (سالكاً) يتقدم في (مقامات) مرتبة ، خلال طريق يهدف إلى (الفناء) في الحق[٢] .

أما ترتيب المقامات فهو على الشكل التالي :

تبدأ بمقام (التوبة) ليمارس صاحبها بعد ذلك (الورع) و (الزهد) في الدنيا ، فيقودانه إلى (الفقر) ، لذلك عليه (بالصبر) و (التوكل) بمعنى الاتكالية المطلقة ، و (الرضا) بعد ذلك حيث تتغير (أحواله) أي حسب علم النفس المعاصر تتغير توجهاته (Attitudes) فيتغير سلوكه (Behavior) ، وهذا يعرضه إلى توترات نفسية شديدة نتيجة ضغط الحاجات والغرائز فيه ، فيقع بترقب (Dread) يقوده إلى بعض الخلل النفسي (Disorder) يسميه المتصوفة : تغير الأحوال ، ويذهب بعضهم إلى التشبيه الباطل بأن الله تعالى هو : في كل لحظة بحال ، ومن هذه الفكرة قيل بـ (البداء) ،

---

(١) نيكلسون ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .

(٢) نيكلسون ، الصوفية في الإسلام ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥١م ، ص ٣٣ .

بمعنى أن الله – تعالى عن ذلك – قد يبدو له أمر ما بسبب تغير أحواله وشأنه ، فيغير مسيرة الكون ، وكل ما كان قد قُرِّر فينسَخ ويثبت ، وادعوا أن منسوخ القرآن هو كذلك ؟ ! حجتهم قوله تعالى : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢ /١٠٦] دون أن يربطوا هذه (الآية) بسابقتها التي تتحدث عن أهل الكتاب والمشركين الذين أنساهم الله شرعه (المشركين) ، ونسخ كتبهم بالقرآن (أهل الكتاب) ؟ !

وهذه مشكلة أساسية ؛ لا مع التصوف وحده ، بل مع كل الفرق الإسلامية ، حيث يريد البعض تأكيد وجهة نظرهِ بآيات من القرآن الكريم ، حتى لو نزعها من سياقها الكلي .

هكذا بدأ التصوف بداية فردية ، راحت تفخر على مجموع المسلمين بكل شذوذ أحوال أصحابها ، فصار المرض النفسي (كرامة) و (ولاية) ، والشذوذ قرباً من الله وعبادة حقة ، إلى درجة أنهم كفروا من يطلب من الله شيئاً حين يعبده « فإن من يعبد الله ابتغاء شيء ، فإنما يعبد نفسه دون الله »[(١)] .

ولأنهم سكنوا المغاور واعتزلوا الناس شاع بين الناس أنهم أصحاب الحق ، ومن ثم فالحقيقة شيء والشريعة شيء آخر ،

---

(١) الصوفية في الإسلام لنيكلسون ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

الأولى لخواص الله والثانية للعوام ، فأدى ذلك إلى أن هؤلاء المعزولين بهجرهم للشريعة شجعوا الناس على هجرها ، وبتعظيمهم لكل خلل نفسي ، شجعوا الخروج عن المنطق .

فإذا أضفنا إلى كل هذا محاربةَ أمثالِ الغزالي للفلسفة وما بها من استقصاءات منطقية ، صار كلُ ما يتعلق بالسببية مرفوضاً ، وكل ما يتعلق بالهوية مشكوكاً به أيضاً ، فتراجع منهج البحث العلمي ، وصار بالإمكان الحديث عن أكثر من هوية للإنسان ، مما فتح باب دخول فلسفات التقمص إلى التصوف .

وقد لمح (نابليون) حين دخوله مصر هذه المخارق الفردية فسأل العلماء عن « الفقراء الذين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويدعون الولاية ويعتقد بهم العوام »(١) .

بدراسة التصوف إذن نستطيع أن « نتبين أثر الثقافات الأجنبية في كل منحى من مناحي التفكير الإسلامي . . . وقد استغل الحديث في تكوين هذه المذاهب لأنه كان من السهل على المسلمين أن يضعوا ما شاؤوا منه . . على لسان الرسول ﷺ »(٢) .

---

(١) توفيق الطويل ، التصوف في مصر إبان العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة ، عام ١٩٨٨ ، ص ١٧٣ .

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .

ويضع (عبد الرحمن بدوي) فصلاً لما ينسبه المتصوفة إلى النبي ﷺ من أحاديث عن الرهبان والرهبانية ، وكيف ينافح المتصوفة عن الرهبانية ، فالجنيد يقول : إن الله عابهم على ترك الرهبانية « فقال : ﴿ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها ﴾ ، فذمهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يُفترض ولم يوجب عليهم ، فكيف بمن ضيع . . . التقوى »[(١)] ؟ !

كل هذا يعيدنا إلى حقيقة أن التصوف مسألة فردية تفقد لطفها وذوقها وحقيقتها حين تصبح في التداول الاجتماعي ، شأنها شأن الحب - كعاطفة فردية - حين يدخل هو أو أي عاطفة أخرى مجال البحث القضائي مثلاً أو العقلي ، كالرجل الذي من شدة حبه لأبنائه لا يرسلهم إلى المدارس خوفاً عليهم من أخطار الطريق وانحرافات الناس ، حين يواجه القضاء ضد قانون التعليم الإجباري للأحداث .

و (الغزالي) الذي مارس هذه الفردية في نهاية حياته ، لم ينتبه إلى الخطر الاجتماعي الذي دعا له في التصوف ، ومهاجمة المنطق والفلسفة اللذين استعملهما هو كمنطقي وفيلسوف ، وفاته أن أسلحته الفكرية هذه لا تنتقل إلا

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٨م ، ص ١٠٦ .

بالتعليم ، فمن أخذ بنتائج أقواله هذه دون الأسس التي بنيت عليها هذه الأقوال ، ولا المناهج الفكرية التي تجمح ولا تشطح ، جموح الفلسفة لا شطح التصوف ، من أخذ بنتاج مثل أقواله دون الأخذ بأسسها ساهم بتأخر هذه الأمة .

ولأن (الغزالي) ليس عالم اجتماع فمن حقه علينا ألا نحمله تبعة ما حصل ، فقد حاول أن يحد من جموح التصوف (بميستية) كونه حالة فردية لا يجب دفعها نحو المجتمع ، كي تعارض الدين والعلم فيه ! !

فاستصوب رأي (الملامتية) وشرحه بدقة من يميل إليه ، يقول : « الملامتي هو الذي لا يظهر خيراً (ذاتياً) ولا يضمر شراً . . . فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله »(١) .

ويمكننا أن نؤكد أن التصوف لكونِهِ مرتبطاً بالمشاعر فإنه لا يمكن أن ينقلها صاحبها لأحد ، ولكونه مرتبطاً أيضاً بالطاقات والقدرات فالحكم عليه يكون لا من خلال مشاعره إذا عرضها ، بل من خلال سلوكه وأعماله وتبدي طاقاته بين الناس ، لذلك حاربت المجتمعات عرض المشاعر أمام الناس بقدر ما رحبت بنتائجها ، فالعرب في الجاهلية قبل الحنيفية الإبراهيمية وقبل الإسلام وقبل التصوف لا تزوج من يظهر مشاعره لامرأة يخطبها

---

(١) إحياء علوم الدين ، مرجع سابق ، مج ٥ ، ص ٦٩ .

(يتشبب بها) ، لكنها كانت دوماً ترحب بأولاد النجائب من النساء ، دون أن تسألهن عن كيفية الحبل ؟ !

وإلى اليوم ما زلنا ننفر من المتبجح بعلاقاته مع النساء ، ونحترم من يحب زوجته ويرعاها .

المشاعر ذاتية ، والإخلاص بالعقيدة ذاتي أيضاً ، ويالاحتقارنا لمن يدعي الزهد والصلاح والأحوال والمقامات :

ليس التعبد أن تبيت على الطوى

وتروح في خرق من الأثواب

لذلك أورد (الغزالي) رأي الملامتي بالإخلاص ، ودعمه بحديث (معنعن) عن الإخلاص الذي هو عكس التبجح « قال : . . . سألت حذيفة عن الإخلاص : ما هو ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت (جبريل) . . . قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : هو سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي »[1] ، ولكونه سراً فإنه يجب عدم التظاهر به ، وترك ثواب الناس على صلاح الفرد أو ذمهم له ، وبعبارة أخرى هو استواء الذم والمدح من العامة ، وسقوط أحكام القيمة -

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

كالأفضل أو الأسوأ - من حساب الملامتي ، المتصوف الحقيقي الذي يخرج الخلق من أحواله وأعماله لله تعالى .

قال (الغزالي) : « إن بعض الملامتية استدعي إلى سماع فامتنع ، فقيل له في ذلك فقال : لأني إذا حضرت يظهر عليَّ وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالي »[(١)] . وسبب ذلك أن الصوفي الحقيقي لا يريد ولا يسعى لأن يكون له أتباع ، خوفاً على ذاته من الغرور ، وعلى الآخرين أن يظنوه فوق مرتبة ما أمر به الرسول ﷺ ، فيتبعوا أقواله التي مهما كانت صائبة فقد تغير من الدين شيئاً ، ومع مرور الوقت وتعصب الناس لكل قديم ، قد يحل في رأي الناس بمنزلة أرفع من كل نبوة ، في تخاطره مع اللامرئي الذي يبوح به ، وبذلك يسهم بهدم الدين الذي يجب عدم الحَيَدة فيه عن أي قول أو فعل لخاتم المتخاطرين مع اللامرئي رسولنا ﷺ .

هذه هي عروة الدين التي يجب على كل مسلم أن يتمسك بها ، وحتى شُطَّاح التصوف لا ينكرونها ، قال أبو يزيد البسطامي : « غصت في بحر المعارف حتى بلغت بحر محمد ﷺ ، فرأيت بيني وبينه ألف مقام و (إذا) اقتربت من

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

واحـد احترقـت »[١] ، وهـو الشَطاح القـائل : « أدخلـني معه مدخلاً أراني الخلق كلهم بين إصبعي »[٢] .

لذلـك قـيل إن رسالة محمد ﷺ لا ينقصها ادعاء أي صوفي أو نكـرانه لمـبادئها التوحـيدية الصارمة ، فهي لا تموت ، ولكن الـذي يمـوت هـو الناس الذين لا يأخذون بها ، الذي يموت هو اسـتعدادك ألا تخرق اللامنظور من خلالها وحدها فقط ، وظنك أن رجالاً مثلك قادرون على خرق اللامنظور بصورة أفضل .

يصـف (بـراون) - كمـا ذكـر (نيكلسـون) - الديانـة الفارسـية حيـث يقـول : « والحقـيقة أن الفرق عظيم بين فكـرة الفُـرس عن الدين وفكرة أهل الغرب عنه ، فالغربيون يعتبرون الإيمـان والصـلاح أسـاس الديـن ، والفـرس يعتـبرون المعـرفة والأسرار .

الغـربيون يعدون الدين قانوناً . . وأملاً . .

والفـرس يعدونـه مفـتاحاً لفـتح أسـرار العـوالم الروحـية والمادية »[٣] .

---

(١) عـبد الـرحمن بـدوي ، شطحات الصوفية ، كتاب سيدنا أبي يزيد البسطامي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٨م ، ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) نيكلسون ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

والسبب - برأينا - هو الفرق بين الميستية والتصوف ، بين فهم المؤسسات للدين وفهم العصائب له ، بين محاكم التفتيش التي حاول الغرب حماية الدين وفرضه على الآخرين بها ، وبين الطغيان الشرقي الذي أراد الدينَ أداة لتثبيت الملك ؟ !

بين ما تناله من الدين ، وما تناله من الطاغية الحاكم المحتاج دوماً إلى الفتاوى السلطانية ، من رجال باعوه آخرتهم بدنياه لنسمهم بما نالوه من لقب دنيوي هو : مفتي السلطان .

فأنت عندما تظن أن الدين أداة معرفة ، وتسميه علماً ، تربطه بكل ميكانيزمات العلم وآلياته التي تزود العالِم بقوة ، وهنا أعني قوة المعرفة وزيادة عليها يقيناً يحول المعرفة هذه إلى عرفان .

وهنا نصل من المعرفة إلى وهم العرفان بالتصوف الذي يتلعب بالإرادة التي أجازت طريقه ، قال أبو العلاء المعري :

وكم من فقيه خابط في ضلاله
وحجته فيها الكتاب المنَزَّلُ

فإذا لم يجد ما يعنيه من كتاب الله ، خبط باب الشطح في التصوف ، وعكس الشرع بدعوى (السكر) والأحوال المفتوحة على مصراعيها ، يقول الحلاج :

إذا بلـــغ الصـــب الكمـــال مـــن الهـــوى

وغـــاب عـــن المذكـــور في ســـطوة الذكـــرِ

يشـــاهد حقـــاً حـــين يشـــهده الهـــوى

بـــأن صـــلاة العاشـــقين مـــن الكفـــرِ

كل هـذا بادعـاء عرفان من معرفة ، تدعي بصورة مرَضية فتح الأسرار الحقيقية للعوالم الروحية والمادية ، حتى الألوهة صارت مجرد أحجية يدعيها كل (واصل) حسب المتصوفة ، ولم يسلم منها (الغزالي) الذي قال :

إذا غبـــت عـــني كنـــت عـــندك حاضـــراً

ومـــن عَجَـــبٍ أن غيـــبتي فـــيكَ حضـــرتي ؟

مـــلأتُ جهـــاتي السِّـــتَّ مـــنك فأنـــت لـــي

محـــيط وأيضـــاً أنـــت مركـــز نقطـــتي[١]

---

(١) أبـو حـامد الغـزالي ، معـارج القـدس في مدارج معرفة النفس ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٢٠٢ .

الباب الثالث

الميستية الغربية

- ميستية الكنيسة الغربية .
- المشاهدة الميستية .
- ترجيح السكيزوفرينا والفوبيا وحالات لا أحوال باطلة .

ميستية الكنيسة الغربية

لاحظ القارئ التميز الذي أوضحناه بين الميستية والتصوف (Mysticism) (and Sufism) ، وهو التمييز ذاته بين تشابه الأحوال والمقامات والورع ، أو بين الزهد والصبر اللذين يؤديان إلى ترك الدنيا والتوكل ، وهي مقامات طلاب الاتصال باللامرئي والأمل بالخلاص من سجن الوجود ، نحو رحابة الحقيقة عند الحق والعرفان بدل مجرد المعرفة التي ننالها بالقطارة في هذا الوجود الذي نحن فيه ، فنشعر بالقوة التي تزودنا فيها كل معرفة ، مما يدفعنا إلى طلب القوة المطلقة من العرفان ، وكل هذا واحد بين كل الناس لتشابه الطبيعة البشرية الواحدة بين الشرق والغرب .

لكن الاختلاف لا يأتي من الطبيعة الفردية الإنسانية بين الشرقي والغربي ، بل من الاختلاف بالطبيعة الاجتماعية بينهما ، فإذا كان « الدين يعد قانوناً وأملاً عند الغربي ، ومفتاحاً لفتح أسرار اللامرئي » للسيطرة عليه عند الشرقي ، كما وصف (براون) الديانة الشرقية - الإيرانية - فيما سبق ؛ فإن سبب ذلك أن الكنيسة التي ورثت هناك المؤسسات

الرومانية الرواقية والدينية ، بُنِيَتْ على أسس مؤسساتية ، بينما الدين الإسلامي الذي انتشر بين عصائب قبائل أقوام متباينة ، لم يقم على أسس مؤسساتية ، بل على أسس وراثية في الخلافة التي تناوبت تلك العصبيات والأقوام السيطرة عليها ، بدءاً بالعصبية الأموية العربية ، فالعباسية الفارسية ، ثم التركية فالمغولية فالتركية ثانية ، إلى أن انتهت الخلافة بها ١٩٢٤م .

وحسنة هذا الأمر هي أن الإسلام لم يكن حكراً على العصبية أو القومية الحاكمة ، ولم يرتبط بفتاوى السلاطين فيها ، إلى درجة أن سقوط الخلافة العثمانية لم يؤثر في قليل أو كثير بالبنية الإسلامية ولا بنشر الدعوة الإسلامية في أصقاع الأرض ، فظل الإسلام من دون منة من أحد أسرع الأديان انتشاراً إلى اليوم .

ظل الإسلام بمعزل عن أي فتوى سلطانية من أي مؤسسة للدولة ، غير مرتبط بتوجهاتها ، وحديثاً يمكننا القول إنه : لا (أزهر) عبد الناصر ولا (زيتونة) بورقيبة ، ولا مفتي السلاطين والدول الإسلامية كان لها أي أثر بتوجيه الإسلام بمجرد أن يتلاشى صدى قوتهم السياسية والعسكرية .

وعلى العكس من ذلك تماماً في المؤسسة الكنسية ، وخاصة البابوية ، حيث السلطة (للباباوات) في تقرير ما

يجوز وما لا يجوز في مستجدات الدين المسيحي الاجتماعية .

المؤسسة في مواجهة العصبية سواء كانت عشائرية أم قومية ، هي ما أفرز (الميستية Mysticism) في مواجهة (الصوفية Sufism)[١] ، والفارق الأساسي بينهما هو في مدى ضبط الشطح ، وخاصة في التأله الذي تنتهي إليه الصوفية .

فقد قبلت الكنيسة برأي (الأكويني) في نظرية الفيض (Emanation) ، حيث كتب أن « كل كمالات المخلوقات قد نزلت من الله بنظام ، يدل على أنه النظام الأعلى بذاته ، فعلى الإنسان أن يبدأ من أحط المخلوقات ويرتفع بدرجات في المعرفة للوصول إلى الله (الرجوع إليه) » وأضاف (Suso سوسو) أن « التنوير يتم من خلال شعاع الألوهة الذي يهدي السالكين »[٢] .

الارتفاع بالدرجات للعودة إلى الله ، والتنوير كلها كي لا يعد الإنسان أنه بعيد عن الله ، أما حلول الله - حاشاه - في بشر والعكس فهو مرفوض في المسيحية ومقتصر على المسيح

---

(١) Ghose Sisirkumar, Mystics and Society, Asia Pub. House, London 1968.

(٢) Life of Henry Suso by himself, Trans by T F Knox, London 1913.

وحده ، ولترسيخ هذه الدوغما يجب محاربة أي رأي مشابه لها لأناس آخرين غير المسيح ؛ الذي وضع برأيهم الجسر الذي يصل المطلق بالمحدود ، وفتح وحده مغالق الشر بالمصالحة مع الله بتحمل الصلب ، والمعاناة البشرية ، إذ ليس من المعقول مثلاً أن يكون مخلوق من مخاليق الله أقدر من خالقه على تحمل الألم ، فأيوب بهذا المعنى تصدى لقدرة التعذيب في أقصى تحققاتها ، مما استدعى (يهوه) النزول والحلول بالمسيح لاختبار الألم البشري ، وهذا هو اللامدرك وراء تسمية المسيح بالفادي .

والكنيسة لا تقر بهذا طبعاً ، لكنها لا تسمح بأي حلولية صوفية أو غير صوفية فيها ، وإلا صار هناك أكثر من مسيح في المسيحية ، فإذا ادعى ذلك شخص ما كان عدوَّ المسيح أو المسيحَ الدجال (Anti - Christ) .

لذلك لا تقبل المسيحية قول أمثال أبي يزيد البسطامي : « انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ثم نظرت (إلى نفسي) فإذا أنا هو »(١) ، وقوله : « أنا اللوح المحفوظ »(٢) .

---

(١) شطحات الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

بينما يفسر (إيكهارت Eckhart) الشطح بقوله : « كل هذه الدوافع التي تحركنا ليست إلا الروح القدس »[١] ، والحب برأيه كما برأي (أوغسطين) هو التعبير عن (الروح القدس) وهي عند (Miester Eckhart) مبدأ كل جذب صوفي يوقع صاحبه بوحدة الشهود ، وما هو أكثر : الواحدية مع الخالق ، (تعالى عن ذلك) .

وبعبارة علم النفس المعاصر : الوله يؤدي إلى كل الهلاوس في الأحلام واليقظة ، فمن يحب أمراً ثم يفقده تضطرب أحلامه ، ويظن في كل إشارة حين يقظته أنها من الحبيب الغائب ، حتى إن كل ادعاءات التخاطر (Telepathy) لا تحصل إلا بين الأحبة ، فإذا فقد أحدهما أو مات قوي هذا الشعور ، إلى حدود الظن أن التخاطر يتم أيضاً مع الأموات ، والجهد النفسي الذي يصيب الإنسان من جراء ذلك منهك للجملة العصبية التي بإنهاكها تزيد من خواطرها تجاه هذا الإنهاك .

ومثل هذا التحلزن بين الحب والتخاطر بكل عنفه دفع (إيكهارت) إلى إرجاع كل جذب صوفي و (ميستي) إلى الروح القدس فقط .

---

(١) Eckhart, Sermons, C. De Evans, London 1924, PXXI.

والروح القدس عند المسيحية تحوير (للوغوس) ، وهو القانون الكلي الذي يربط بين قوانين الوجود عند الإغريق ، شخصته المسيحية بملاك ؛ ربما جبريل أو سواه من قوى خفية ، نظراً لتلك القوة اللامنظورة الهائلة التي تسيطر على حياة الإنسان إذا وقع بالوله ، سواء بابن أو بأب أو بأم أو حتى بعشيقة ، حين يشعر بقرب فقدانه .

لذلك قال (هرقليطس) مخترع عبارة اللوغوس (Logos) : « إن الطبيعة تحب أن تتخفى »(١) ، ولكي تكشفها يجب أن تكشف قوانينها و « اللوغوس هو القانون العام ، إلا أن الغالبية تعيش كما لو كان لهم فهم خاص (به) وبأنفسهم »(٢) .

ولعل استحالة فهم كل قانون من القوانين التي تحكم الوجود ، دفع المسيحية إلى إضفاء صفة الغموض الملائكي على (اللوغوس) ؛ فتارة هو عندهم الروح القدس ، وأخرى هو المسيح (عليه السلام) بذاته ، وثالثة هو كلمة الخلق (كن) .

هذه هي خلفية قيمة الحب عند المتصوفة والميستية معاً ، لكنه بالأولى يشطح إلى ضرورة طلب التوحد مع الله إلى حد

---

(١) مجاهد مجاهد ، شذرات هرقليطس ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

تهديده ، قالت رابعة العدوية : « إلهي إن ألقيت بي يوم الحساب في النار أذعت سراً يبعد النار عني بألف سنة »[١] ، ثم ماذا ؟ !

هي تريد أن تسعى إلى الله بذاته ؟ ! لذلك قالت : « إلهي كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك لأني لا أسعى إلا إليك أنت وحدك »[٢] .

هذه هي المحبة بكل عنفها الصوفي ، فلننظر إليها في كل عنفها (الميستي) مع القديسة (تريزا)[٣] بالمقابل .

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، عام ١٩٧٨م ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ أيضاً .

(٣) George Godwin, The Great Mystics, Watts, London 1947 .

المشاهدة الميستية

إن الـذي يجـب أن يلفـت انتباهنا في كل دعاوى المشاهدات (الميسـتية) و (الصـوفية) ، أن معظـم القـائلين بهـا مـن كـلا الجانـبين أدبـاء وشـعراء قـبل أن يكونـوا متصـوفة أو ميسـتيين ، يطـوف بهـم طـائف شـعري مـن تأنيـب الضمير ، فالشر كمشكلة (أنطولوجـية) في حصوله لا كعقاب على أي شيء أحياناً ، كأن يـتألم طفـل رضـيع إلى حد الموت من آلام لا تطاق ثم لا ينجو مـنها ، مـن دون ذنـب ، أقَـضَّ مضـجع (الثيولوجيا) المسيحية ، وأقـره الإسـلام كواقعـة (Fact) يجب استعاذةُ الله — الذي خلقها — مـنها بـالمعوذتين في القـرآن الكـريم ، دون أن تقـره المسيحية عـلى أنـه « مـن شـر مـا خلـق الله » وألقـت اللـوم كـاملاً عـلى الشـيطان ، فرفعـت مـن شـأنه إلى حـدود الألوهـة (مـزاحمة اللهِ الخير المطلـق) ، وسـانت (تريـزا) الـتي تعـرف كـل هـذا في خافيـتها ، شخصـت الشـيطان كمـا تشـخص المسيحية الله ، فرأته جالسـاً عـلى رأس مسـند كـتاب الصـلاة ، بعـد أن اشـتمت رائحة كبريت نتن ، فرشقته بالماء – ماء العمادة – فغاب وتركها[1] .

---

(١) The life of St. Teresa of Jesus, Autobiography, D. Lewis, London 1916.

بمـاء العمـاد يمكـن إزاحة الشر كما تريد الرمزية عند سانت (تيريـزا) أن تقول لنا ، دلالةً على الحاجة إلى : « المعوذتين » كي لا يضطرب الإنسان ، من شرور ما خلق الله .

هكـذا يتكـلم اللاشـعور - الخافـية - عـند الصـوفي بلغـة الجسـد والرمـز ، فـإذا كـان تحـت سـلطة الكنيسة ولا يريد أن يخـرج عـنها أعلـن الميسـتي أن رؤاه داخلية ذاتية أو لم يعلن ، يظل يتجنب ما يزعج الفقه الثيولوجي ، كقول الحلاج :

رأيـــــت ربـــــي بعـــــين قلـــــبي

فقلـــت مـــن أنـــت ؟ قـــال : أنـــت[١]

أو قولـه : « فصـاحبي وأستاذي إبليس وفرعون ، وإبليس هـدد بالـنار وما رجع عن دعواه ، وفرعون أغرق في اليم ، وما رجع عن دعواه »[٢] .

هـذا هـو الفـرق بـين المشـاهدة (الميسـتية) والمشـاهدة الصـوفية ، الأولى منضـبطة بقواعد اللاهوت الكنسي ؛ ما ظهر منه ومـا سكت اللاهوت عنه ، والثانية لا ضابط لها لذلك تتأله ، فتدك الإسلام بصلبه وتدفعه إلى التخلف والجاهلية ثانية .

---

(١) ديوان الحلاج ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ .

(٢) الحلاج ، كتاب الطواسين ، باريس ص ٥١ ، Paul Geuthner, 1913

فـإذا رسـخت هـذه الجاهلـية بفـرقة بعـد مـوت المـتأله الصـوفي ، وحاربـتها الفـرق الأخـرى ظهـر مـا يمكنني تسميته (بالجهـاد المـرتد) الـذي أنهـك قـوى الأمـة ورسـخ الطائفـية بصيغها الاجتماعية الدينية المتهافتة اليوم .

فالـرؤية بعـين القلـب عـند (تريـزا) كانـت مـن أجـل أن توجههـا ؛ لا مـن أجل جنون العظمة (Paranoia) التأله ، لذلك نسـتطيع أن نؤكـد – بغـض الـنظر عـن مرضـية مـثل هذه الرؤى نفسـياً – أن رؤى (تريـزا) كانـت كلها محكومة بسماع أصوات ترشـــدها إلى أدق الأمـــور في حـــياتها اليومـــية ، وتـــتدخل بمخططاتهـا ، لكـنها ولا مرة قالت لها : أنا أنت ، ولا هي هددت ربها بإذاعة سرها معه – تعالى عن ذلك – كما ذكرنا عن رابعة .

وحـتى لا يظـن القـارئ أن الأمـر مقتصر على (تريزا) ، يمكنـنا أن نؤكـد له أن مـا انطـبق عـلى (تريـزا) هـو أن هذا الفـارق عام مع (إيكهارت) و (سوسو) ومتطابق مع (جان أوف آرك St. Joan of Arc) الـتي أعطتها الكنيسة الكاثوليكية لقـب قديسـة عـلى هلاوسـها الصـوتية هـذه ، الـتي دفعتها إلى مقاومـة الـنفوذ البروتسـتانتي الإنجلـيزي في فرنسـة حربـياً ، ولأسـباب مشـابهة تكـلم فرانسيس أوف آسيسي (Francis of Assisi) مع تمثال على الصليب ضمن حرب (الكاثوليكية) على إلغاء الصور (البروتستانتية) .

هكـذا صارت الميستية أداة من أدوات تدعيم (الكثلكة) ، فأكـثرت مـن توزيـع ألقاب القداسة ، وما زالت تفعله في دول العـالم الثالث ؛ حيث هناك قديس مقابل كل عالم في الغرب ، يأتيان من الكنيسة عندهم(*) .

فهـل الـرؤية الحقيقية في الرؤية العقلية لهذا الأمر ، أم في رؤى (جـون أوف آرك) الـتي تسـفك الدمـاء ، أو رؤى تأكيد أهمـية الإيقونـات مع (أسيسي) ، أو على أحسن الأحوال مع (بليك) في الشجرة التي كانت تملي عليه قصائده ؟ !

هـل عقـول أم قلـوب العـارفين لهـا عـيون تـرى مـا لا يـراه الـناظرون ؟ ! مـع القلوب وقفت الميستية مع التصوف دون شطح أهَّلَها لأن تقف بعد ذلك في الغرب مع العقل ، وبقينا مع من

إذا نســـــــوا الله قـــــــائلين فـــــــلان

عـــــن جمـــــيع الأنـــــام يفـــــرج كـــــربا

مـن مـنطلق صـحيح هـو ضـرورة ألا يـرى الإنسـان نفسـه مفصـولاً عـن الله ، لكـن المعـاني الكثيرة التي تترتب على مثل هـذا الاتصـال ، قد توجه سياسياً وإيديولوجياً ، وقد ينشأ عنها

(*) نذكـر بهذه المناسبة كثرة من طوبتهم روما من القديسين والقديسات من لبنان بعد الحرب الأهلية الطائفية فيه .

ثنائية نفسية واختلافات مع الشرع ، وتخبطات سيكولوجية ، تشبه قول المعري :

حياة وموت وانتظار قيامة

ثلاث أفادتنا ألوف معاني

ولضبط مثل هذه التشعبات وضعت الكنسية التصوف الغربي - الميستية - بطريقين سارت عليهما القداسة مع كل القديسين ؛ أولاً ، لكي نفهم الله يجب النظر إلى المتعاليات العقلية على كل تجربة ، وقد شرحناها في مقدمة هذا البحث ، ثم الالتزام بالدين ثانياً[١] .

فإذا التزم الميستي بذلك عدت الكنيسة رؤاه رحمانية وشجعتها ، بدءاً من الحدوس التي لا شكل بصرياً لها ، حتى الرؤى البصرية الواضحة للمتعاليات ، لذلك لم تعد رؤى (تريزا) الواضحة التي خبرت عنها عن (المسيح) رؤى نبوية[٢] ، وتركت الحكم على هذه الرؤى للآخرين بالسواء النفسي من عدمه ، أما الكنيسة فهي التي تقرر القداسة (لتريزا) أو (جان دارك) حسب ما يخدم مصالحها

(١) Sidney Spencer, Mysticism in World Religion, A. S. Barnes, NJ 1966.

(٢) Ibid, P. 27.

كمؤسسة ، وبذلك فصلت الكنيسة الشهود عن وحدة الشهود التي تسم التصوف العربي ، فالشهود الذي يحصل للذين أقرت المسيحية - الكنيسة - قداستهم يؤدي إلى تقوية وترسيخ الإيمان ، إذ إن العجائبيات صارت في خدمة الكنيسة ما دام لا شطح فيها ، وإن حصل هذا الشطح ، تضبطه الكنيسة بالقداسة التي هي من نتاج الحب الفائض عن الروح القدس ، كما أوضحنا حسب زعمهم ! !

لذلك قال (هيوم) : « إن الدين المسيحي لم يكن أول دين يحرص على المعجزات ، لكنه إلى اليوم لا يمكن أن يؤمن به أي إنسان عاقل دون معجزة »(١) .

والمشكلة التي لم ينتبه لها (هيوم) بهذا الصدد هي أن التصوف وضع الكنيسة بين مطرقة الهرطقة ، بالخروج عن المسيحية عبر الكرامات والرؤى وادعاء التأله ، وسندان ضبط هذا الشطط بالقداسة (الميستية) .

فإذا قلت لي : إن الكنيسة هي التي فتحت هذا الباب بمعجزات القديسين الأوائل ، فإن إغلاق هذا الباب لا يمكنه أن يتم إلا بالاستمرار بالسلوك الإعجازي ضمن شروط لاهوتية صارمة .

---

(١) Of Miracles, op. cit, P. 55.

لذلك قال القديس (جون أوف ذي كروس - St. John of The Cross) : « يحصل أن الرجال الروحانيين قد يتأثرون بإحساسات خارقة للطبيعة وبموضوعات كذلك ، فبعضهم يرى رؤى من العالم الآخر ، أو يرى قديسين ، أو ملائكة خيرة أو شريرة ، أو بعض الأنوار غير المألوفة ، أو يسمعون أصواتاً غريبة ، وأحياناً يرون من ينطق بها أو لا يرونه ، كما قد يتعرضون لإحساسات ذوقية يشتمون روائح عطرية دون معرفة مصدرها . . . فهي كلها ، وعلى الأرجح ، ليست من الله . . . فالله لا يتصل بالناس عبر هذه التمويهات . . . لذلك على الروح التي تطلب التوحد مع الله ألا تخضع للأوهام الحسية التصورية »(١) .

حتى القديسة (تريزا) أظهرت هواجسها من أوهام الرؤية والكرامات الصوفية من تلك التي كانت تحصل لها ؛ تقول : « في أمور كهذه يوجد دوماً الخوف من أن نتوهم ، إلى أن نتأكد من أنها قد جاءت من الروح القدس ، لذلك من الأفضل مقاومتها - مقاومة هذه الرؤى - في البداية »(٢) .

---

(١) Mysticism in World Religion, op. cit, P 201.

(٢) Morton Kelsey, Myth History and Faith, Paulist Pub, NY 1974.

هـذا تصـريح ميسـتي قلما نجده في الصوفية التي لم يشك أصـحابها بـرؤاهـم ولا ذرة شـك ، لكـن بعضـهـم شككك بسلوك بعضـهم الآخـر ، فلعـبد الغـني النابلسـي بهـذا المقـام كـتاب (المسـلك الجلـي في حكـم شـطح الولـي)[١] ، ولـيس لـدى المتصـوفة الكبار أي تشكيك بإمكان الرؤية ، مما شكل مذهب وحـدة الشـهود الـذي يتقاسـم مـع وحـدة الوجود كل المعارف القرنوسطية ، التي تدعم التصوف .

أمـا المعـارف العلمـية المعاصـرة الـتي تتقاسـم نقـد الـرؤى الصـوفية الـيوم فهـي : بـين عـلم الأديـان المقـارن وعـلم الـنفس ، وتحديـداً بـين الديانـات الـتي تشـجع لا منطقية عدم وجود هوية فـردية ، معتبرة كل فردية كناية عن كثافة طاقة (كارما Karma) الحـياة ، المبـثوثة في كل الكون ، وهي بفلان أو علان ، ويسمونها في الجاينـية (Janism) = (Jiva) الـتي لا تحـتاج إلى فـردية فـلان ولا عـلان ، كما لا تحتاج إلى أي مادة (A - Jiva) ، وهي الـتي تسـعى إلـيها البوذية (بالنيرفانا Nirvana) ، وهذه (الكارما Karma) هـي الـتي اعتـبرها (شـوبنهور) نومـن كـل شـيء موجود[٢] .

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، شطحات الصوفية ، مرجع سابق .

(٢) The Oxford Dictionary of Philosophy, N. Y Oxford 1996, 342.

وبناء على هذا التصور يصبح التناسخ ممكناً ، لأنه مبني على ضياع الهوية ضمن قمصان الروح الجسدية المختلفة ، بينما الواقع (Common sense) المنطقي إذ ينفي ذلك لاستحالة أي أمر من دون مبدأ الهوية المنطقي ، يقف علم الأديان المقارن مع علم النفس في اعتبار الرؤى الصوفية غير المضبوطة و (الميستية) المضبوطة سواء ، على أنها نتيجة مرض شائع بنسب محددة في كل مجتمع ، أعني مرض الانفصام عن الواقع : (Schizophrenia) .

ترجيح السكيزوفرينيا (Schizophrenia) والفوبيا (Phobia) ، وحالات لا أحوال باطلة

إن الفكر التناسخي التقمصي يرفض الهوية الفردية الظاهرة بكل إنسان ، حتى بالحيوان ، فهو يرفض المنطق الذي يقوم أصلاً على :

- مبدأ الهوية .
- مبدأ الثالث المرفوع .
- مبدأ عدم التناقض .

فأنا فلان الذي لا يمكنني أن أكون سواه ولا كنت سواه أيضاً ، لأنني لا يمكن أن أكون في مكانين وزمانين مختلفين ، وهذا هو الثالث المرفوع ، وإلا تناقض وجودي ، وكل تناقض حتى في القول أو الفعل مستحيل ومحصلته لا عقلية مشوشة ، فإذا خرق أي مبدأ من هذه المبادئ الثلاثة استحال التفاهم ، حتى لو بني على خرقه عدم خرق جديد مثل أن أقول : « لنسبح في بحر لا ماء فيه » ، وهذه الجملة لا معنى لها إلا بالمجاز ، والجمل المجازية أدبية لا منطقية علمية ، فلا قيمة فكرية لها .

لكن الفكر التناسخي بعد أن يقصي المنطق بالتناسخ وتعدد الهويات ، يعود إليه ليشرح كيفية هذا التعدد ، بالمسخ والفسخ والرسخ[١] كعقوبات للروح التي لا تعريف لها عنده ، وهذا يعني التبرير : أي الدخول والخروج من المنطق متى نشاء وكيف نشاء ؟ !

وهذا ما يشعر به ويعانيه المصاب (بالسكيزوفرينيا) ، فبالإضافة إلى الخلل بالرؤى والسمع ؛ رؤية أشباح وسماع أصوات ، هناك خلل بتنظيم الفكر بطرق منطقية ، بمعنى أن كلمات المصاب بهذا المرض لها معنى ، لكن جمله كلها لا تعني شيئاً لأنها متناقضة - مبدأ التناقض مختل هنا - مع مقدماتها ، وترتبط بنغم الصوت في العبارة لا بمعناها ، فقد يشتمك المصاب إذا قلت له : أنا أحبك بصوت مرتفع سريع النبرة ، ويقبل الإهانة بصوت رخيم .

لذلك تجد سياق الجمل عند هؤلاء مرتبطاً بنغم نهايات الجمل لا بمعناها ، وعلى هذا الأساس إذا كان يتحدث عن موضوع ينتهي مثلاً بكلمة نغم ، ولا علاقة له بالفن انتقل بسرعة للبحث بالفنون ، وخير مثال على ذلك نجده بكتاب الطواسين للحلاج ، مثل قوله : « الحقيقة دقيقة ، طرقها

(١) سبق شرحها .

مضـيقة ، فيها نيران شهيقة ، ودونها مفازة عميقة . . فلما قضى (موسـى) الأجل ترك الأهل حين صار للحقيقة أهل . . . دع الخليقة لتكون أنت هو أو هو أنت من حيث الحقيقة . . . شهد سـري بـلا ضميري »[١] ، وله أمثلة كثيرة على مثل هذا الكلام المرتبط بنغم نهايات الجمل لا بمعناها .

ولأن التصـوف الإسـلامي - إذا صـح ، ولا يصح التعبير - مرتـبط بنهايات جمل ، وإرجاعات ليس فيها شيء عن الصلب والعقـائد النصـرانية ، لذلـك نجـد دائـرة (السـكيزوفرينيا) لا تدخـل فـيها مـثل هـذه الإرجاعـات أو الـرؤى ، وإن كـان (الحـلاج) أدخـلها كاسـتثناء أمـلاً بشـفاعة (شـغب) زوجة الخلـيفة المسـيحية ، ولكـن عـلى العمـوم لا نرى في التصوف الإسـلامي رؤى فصـامية عـن الصـليب وظهـور العـذراء أو المسـيح ، تقـول (تريزا) : « إنها لم تجد نفسها جديرة بتلقي وعـي المسـيح حين يقف في جانبها ، وهي التي تراه دون عين جسدية وعين الروح بل بما يسمى بالرؤية الذهنية »[٢] .

ولعـل السـبب في عـدم تـزود الفصـامي - عـن الواقـع (Schizophrenic) الصـوفي - بالـرؤى (الميسـتية) هـو أن

---

(١) كتاب الطواسين ، مرجع سابق ، ص ٢١ - ٢٤ .

(٢) Myth History and Faith, op. cit, P. 72.

الإرجاعات الإسلامية التي نشأ عليها خالية من رؤى الصليب الدامي ، والعذراء الباكية ، أو طيف المسيح الشافي . . . إلخ .

ذلك أن كل حضارة تحتفظ بحلقة من الإرجاعات المعرفية تميزها عن سواها ، ولذلك لا يمكن دراسة علم الاجتماع الحضاري ، ولا حتى علم النفس ، وممارستهما في بيئة حضارية مخالفة لما نشأ عليها الباحث ، إلا إذا أدرك حصراً الإرجاعات الحضارية التي تقوم عليها تلك البيئة .

ومثال ذلك اليوم ما يراود خافية معظم الباحثين عندنا من ذعر من المعرفة العلمية في شرقنا ، لجهلهم بإرجاعاتها الحضارية والظن بأن هناك احتمال تناقضها مع إرجاعاتنا الإسلامية الحضارية .

هذا الجبن في التفكير ينتج عنه بارانويا (Paranoid) الانفصام عن الواقع العلمي المعاصر في الدول المتقدمة ، بادعاء أن لدينا علوماً سرية أفضل من كل علومهم ، هذا من جهتنا ، وفوبيا (Phobia) الخوف من الإسلام من جهتهم ، بدل دراسة الإرجاعات التي تميز حضارتنا عن حضارتهم ، كما نفعل الآن بالتمييز بين الميستية والتصوف ، فنحن بحاجة إلى تميزات مشابهة في كل مجالات المعارف لكي نتقن إرجاعات الحضارات ومدى فائدتها في تقدم البشرية كلها .

خذ مثلاً إرجاعات حضارة البوذية اليابانية ، وخاصة لدى فرقة (الزن) (Zen) البوذية ؛ تجدها من منطلق أن الإنسان لا يعاني من البؤس الاجتماعي أقل من معاناته من الألم المرضي الفردي ، وبناء عليه فإن التأمل اليوغي (Yoga Meditation) في عزلة تامة عن المجتمع والآخرين ، عبر النظر ببساطة في شمعة تحترق وترك الفكر على سجيته يصور النماذج التي تبدو له من هذه الظاهرة البسيطة (Mandalas) ، مع التركيز على حركة النفس في الرئة ، ليجد المتأمل نفسه في حالة إدراك متغير للأشياء (Altered State of Consciouness) ، لا يشبه إدراك النائم الذي تتحكم به مضمرات الخافية ، ولا الإدراك الذي تتحكم به السموم في البدن نتيجة تعاطي المخدرات أو الكحول ، إنه الإدراك الخاص بالتأمل الذي يمكن أن يمارسه من يفك أي جهاز ويعيد تركيبه ، حيث تتركز كل قوى الإرادة والذات وكل طاقاتها وقدراتها على حل المعضلة .

هذا النوع من الإدراك يريح الإنسان من تشويش الحياة اليومية الاجتماعية ، حين يطلب منك أن تركز على مئة موضوع في اليوم الواحد ، دون أن تخترق بكل كيانك وإرادتك أي واحد منها بالعمق ، مما يجعلك بحالة توتر نتيجة كثرة علائقك الاجتماعية .

وعلم النفس حين درس هذه الظاهرة (الصوفية)[١]

---

(١) R. Ornstein, on the psychology of Meditation, Viking, N.Y. 1971.

الميستية ، وجد أن موجات ألفا (Alpha) الدماغية تظهر دائماً مع هذا التأمل ، ويمكن للمتأمل أن يزيد أو ينقص هذه الموجات التي ترتبط دوماً بالنشاط الإبداعي والجسدي للإنسان ، وإذا استطاع المتأمل السيطرة على هذه القدرة - الطاقة - بزيادة موجات ألفا في دماغه ؛ فسيحصل على وعي مختلف يمكنه إذا وجه تأمله إلى جسده محاربة أمراض يعجز الطب عن محاربتها ؛ وأبسطها القرحة وأخطرها السرطان ؟ !

كما وجد علم النفس أن الشخصيات الهستيرية (Hysteria) التي تتميز بانفجاراتها العاطفية ، والتي تتحول أعراضها هذه إلى أعراض جسدية مثل : الشلل والأمراض القلبية والأكزما والقرحة... إلخ ، لا تعيش بمعزل عن الناس ، وتظل على صِلات قوية مع أقرباء (هستيريين) ، يستبعدون من حياتهم كل أمر جيد ويعيشون بتوتر نفسي مستمر ، (Disorder) وفوضى اجتماعية مستمرة دون خلوة أو وحدة[١] .

وهنا هو عكس ارتداد الطاقات والقدرات والإرادة إلى الجسد للتأمل بما أنهكنا منه ، وما أتعبنا من أعضائه بالاستعمال الزائد لها ، كالغدد الصماء (الأدرينالين وغيره من الهرمونات التحفزية)

---

(١) A.T. Beck, Cognitive The rapy and Emotional Disordrs, International University Press, N.Y., 1976.

أو الإجهادات المعوية بالأغذية السيئة ؛ من دهنيات ومهدرجات وسكاكر ولحوم ، التي هي أكثر من حاجتنا اليومية ، ناهيك عن الإنهاكات العصبية في المشاحنات اليومية مع الآخرين . . . إلخ ، وكل هذا هو عكس التأمل المنعزل عن الناس الذي يسمح بظهور ألفا (Alpha) ، فتظهر موجات (Betta) وحتى غاما القريبة من الموجات التي يطلقها دماغ الحيوان .

لذلك يعمد علم النفس اليوم إلى استعمال الطاقات والقدرات التأملية في المريض - الحالة (Client) - لإبراز (ألفا) أولاً ، ثم توجيه تأمل المريض نحو العضو ، خاصة الذي يظن (الهستيري) أنه مصاب ، أو حتى العضو المصاب حقاً ، فتفعل موجة ألفا ما يشبه المعجزات التي تحدّث عنها الصوفية نتيجة خلواتهم ! !

ولأن التصوف قد مارس هذه الأمور دون إدراك معانيها ، حتى رهبان (الزن Zen) الذين أخذ منهم علم النفس دَرْسَ موجات (ألفا) لا يعرفون شيئاً عنها ، بل كل ما يعرفونه هو أثرها ؛ لذلك من الخطأ منطقياً والضلال معرفياً أن نقول : إن ما نمارسه لا يمكن التعبير عنه ؛ فمعرفتنا ذوقية فقط ، وكأن الذوق شيء خارج عن المشاعر التي هي والفكر والرغبات تشكل مع الضمير كل النفس الإنسانية ، فالذي يقول : « من

ذاق عـرف » يفـتح بـاب دراسـة الـذوق ، لا الوقـوف أمامـه ، بتعنت موقف القائل العارف بالحكمة الأزلية .

هـنا تنشـق فلسـفات العلوم بتجريبها المعرفي لكل تساؤل أو معضـلة تـبدو مستعصـية الحـل ، تنشـقُّ عـن الإرجاعـات الصـوفية الـتي تقـف أمام حواجز قِصَر عمر الإنسان في علاقته مـع المعضـلات الـتي يبحـث عن تفسير نفسي أو فيزيقي لها ، فالفلسـفة العلمـية لا تقـبل بـالمواقف النهائـية أمام المعضلات قبول من يدعون العرفان وهم يمارسونه لكنهم لا يعرفون .

هـذا هـو مـا أعنـيه بـأن التصوف الحقيقي لم يكتب بعد[1] ، وهـذا مـا أشـرت إلـيه في هـذا الكـتاب (البحـث) بأن التصوف بحاجـة إلى الإلمام بكل علوم العصر ، والمتصوف البعيد عن هذا الإلمـام ، إضـافة إلى الإرجـاع الديـني والفـني والمعـرفي بصـورة عامـة ، لا يكسـب مـن التصـوف غـير صـفة المجـذوب الـتافه لا المـنجذب ، طالـب العرفان الباحث عنه في كل معرفة ، قبل ادعاء أنه واصلٌ به إلى الله الأعلى المتعالي عن كل خلقه تعالى .

---

(١) بكـتابي ، فلسـفة التصوف قدرات وطاقات عام ١٩٩٠ ، أي قبل حوالي سبعة عشـر عامـاً مـن الـتدريس الجـامعي في العلـوم الإنسـانية كافـة بين السـعودية وأمـريكا (نـيويورك) ولبـنان وسـورية ، ومـا زلـت في الصفحة الأولى بكتاب الهوى الصوفي هذا ، ومن يدري ؟ !

الباب الرابع

اللامنظور بلاميستية ولاصوفية

تدابير الوحدة

لا يهمُّ الباحثَ عن اللامنظور النعتُ الذي سينعته الناس به ، تماماً كما لا يهم الذي يرضي الله على أي جنب يكون مضجعه حين الموت ، ولا في أي أرض يموت ، ولا ما يكسب غداً ، ولا إذا ما عده الناس ناسكاً متوحداً أو غير متوحد ، أم قالوا عنه ملامتياً أم فاسقاً ، لأنه لا يريد تزكية إلا من الله وحده .

المهم أنه يدرك في ورطة الوجود التي رأى نفسه موجوداً فيها إزاء موقفين : المطلقات الثابتة أمامه بتغيرها الظاهراتي من دورة حياة ودورة أفلاك ، وما يتخبطه فيها من مدارات الأقدار ، والمطلق الذاتي الذي يحمله في جوانحه ، والذي لا يقبل أي سلوك محدود من صاحبه مهما كان رابحاً ومفيداً له ، أعني الضمير ؛ تلك الحاسة الداخلية التي تحاورنا وتقهرنا دوماً إذا خرجنا عن مطلقاتها ، ولا يسكتها إلا أرفع الأعمال وأنقى التوجهات ، مهما كلفتنا من جهد وأثقلتنا بمطالبها من عناء .

هذا هو التوحد الذي تفرضه الذات المرهفة على صاحبها ، وهو قد يشبه متوحد (ابن طفيل) الذي فَوَّضَ

البحثَ عن الحقيقة إلى شخصيته الأسطورية التي تلخص الفلسفة المشرقية (السينوية)[١] ، أو متوحد (ابن سينا) الذي جعله في إطار الدراما ليظهر أن شخصية (سلامان) مَثَلٌ يضرب للإنسان الذي يقرؤها ، وأن (أبسال) مثلٌ يضرب لدرجته العلمية ، وعشقهما بعضهما لبعض كعشق كل ذكر وأنثى يمثل التجاذب بين النفس الناطقة والنفس الشهوانية ؟ !

يقول (ابن سينا) : « فلا تستنكرنَّ أن يكون بعض الغيب ينتقش بعالمنا ، ولأزيدنك استبصاراً ؛ فالقوى الروحانية النفسانية متجاذبة »[٢] .

ويقول : « إذا قلت الشواغل الحسية . . . يكون للنفس فلتات . . . ينتقش فيها نقش من الغيب »[٣] ، وهذا هو بالضبط ما يطلبه طالب الوحدة والتوحد ، على ألا نفهم بعبارة التوحد « الأوتية Autism » حيث لا يستطيع المصاب بها - وهي نوع من الهبل - القيام بأي مشاعر جدية ، لذلك هو قلق دوماً ، أي أننا لا نتكلم هنا عن نقص جزء من النفس الإنسانية وهو ما يتعلق

(١) نسبة إلى (ابن سينا) .

(٢) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨م ، القسم الثالث والرابع ، ص ٨٦٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٧٨ .

بالمشاعر ، بل نتكلم عن نفس سوية بها مشاعرها وإرادتها وعقلها وضميرها بشكل سوي ، لكنها لا تهتم بجانب الشواغل الحسية .

ولذلك توجه إرادتها عبر الاعتزال وترك المجتمع أو التقليل من الاختلاطات الاجتماعية المشتتة للذات ، لأجل التخفيف من شواغل الذات ، فتصبح النفس عبر توجه كل إرادتها نحو اللامنظورات (النومنية) أو الظاهراتية « قد غفلت عن كل شيء سوى ثبوت أنيتها . . . فتدرك ذاتك من غير افتقار إلى قوة أخرى . . . بمشاعرك »[(١)] ، ولأن « الجوهر المرتسم بالمعقولات غير جسماني . . . جوهر عقلي بالفعل ، وقع بين نفوسنا وبينه اتصال ما ، ارتسمت منه الصور العقلية البحتة)[(٢)] .

ولإيضاح هذا الأمر الذي يشكل أوفى شرح لصلة اللامنظور بالمنظور عند طالب الوحدة والتوحد ، قام (ابن طفيل) بوضع أسطورة (حي بن يقظان) الذي وجد نفسه متوحداً (مولوداً بجزيرة نائية ترعاه ظبية) فعاين الجواهر غير الجسمانية الحاملة لكل المعقولات الجسمانية ، والتي حتماً لا تزول بزوالها[(٣)] ، فشرح بذلك (ابن طفيل) في تدبير

---

(١) المرجع السابق ، القسم الثاني ، ص ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ، القسم الثاني ، ص ٣٧٥ .

(٣) Hani Y. Nasri, Mystic and Society, Fordham University I. P. Q, N. Y. 1986, yol. XXVI, No 3. PP 223 – 227.

المتوحد كل فلسفة (ابن سينا) في صلتها مع التصوف ، وكذلك الفلسفة المشرقية حول هذا الأمر ، ليخلص إلى أن التوحد الملحّ على الإرادة بكشف حوامل متغيرات المعقولات الجسمانية ، هو سبيل البحث عن اللامنظور ، كما أسميه في هذا البحث ، وقد كانوا يسمونه تصوفاً في مجال اللامرئيات ، وهو ميتافيزياء في المجال المرئي[(١)] .

على أن نعرف أن هوس مثل هذه البحوث مضنٍ إلى أبعد الحدود ، لما يتقاذف الباحث فيه من أمل ورجاء من جهة ، ويأسٍ وقلق من جهة أخرى ، تماماً كما يحصل لقارئ هذا الكتاب حين يفاجأ برأي ميتافيزيقي أو (ميستي) أو حول اللامنظور فيشعر بغبطة سرور الاكتشاف التي لا تلبث حين تثير مزيداً من التساؤلات أن تضعه أمام قلق وربما يأس جديد ، وهكذا .

فَمَثَلُ الباحث عن اللامنظور كمثل الباحث عن منظورات الحقيقة ، يتلعب به اليأس والرجاء بالقدر الذي تسمح له الحقيقة بأي كشف ، ثم لا يلبث أن يرى أن ما خلفه ومستدعياته أكثر غموضاً من كل ما بان له وظهر ، تلك هي

---

(١) انظر كتابنا ، الميتافيزياء والواقع ، المركز الثقافي العربي ، بيروت والدار البيضاء ، عام ١٩٩٨م .

متعة السير في درب الحقيقة عند الفلاسفة ، والصدمة التي يلقاها من يظنون أنهم وصلوا من الميستية أو المتصوفة ! ! والسبب في أن الأول - الفلاسفة - يعرف حدود قدراته وطاقاته كبشر ، بينما عند الثاني - المتصوفة وحتى الميستية - كثير من التبجح .

الأول يعرف أن اليأس والرجاء حالات نفسية تتعاقب ، بينما الثاني يريد تسميتها : أحوالاً ومقامات تأتيه من علٍ ، وهكذا تعتل نفس الصوفي من أبسط ما يعرفه عالم النفس فلا يؤثر فيه ؟ !

ولعل سبب تبجح الصوفية بتسمية الحالات النفسية التي تتعاقب على كل إنسان بين انبساط النجاح وانقباض الفشل بأحوال : « القبض والبسط » في « الوجد » (Ecstasy and Rapture) ، هو ظنهم الخاطئ بأن لهم على الله دالة ، والناتج إما عن : « Schizophrenia » وحدة الشهود « Monisme » ، أو بارانويا « Paranoia » وحدة الوجود « Pantheism » .

ولأن القبض والبسط في الفلسفة ليس نتيجة أي مفهوم سابق أو أي فكرة مسبقة ثابتة « Fixed Idea » ، لذلك تركت الفلسفة البحث فيهما إلى علم النفس في مجالات الحوافز والثواب والعقاب والمنعكسات الشرطية . . . إلخ ، فأوضح

علم النفس هذا الأمر وارتباطاته بالأمراض النفسية وأمراض الشيخوخة و (ألزهايمر) ، تلك التي تقود إلى الاكتئاب (Depression) نتيجة نقص التروية الدماغية ، أو نتيجة مرض هستيري .

فالشخصيات (الهيستيرية) مثلاً (Histrionic Personality) : تتسم بعدم الشعور بالراحة إذا لم تكن مركز اهتمام الجميع ، وهي جنسياً شخصيات مغرية تغرر بمن حولها بإغرائهم جنسياً ، كي تظل مركز اهتمام حتى لو أدى ذلك إلى المبالغة الدرامية بما يحصل معها ، لذلك تتظاهر هذه الشخصيات بالحب أكثر مما هي فيه حقاً .

هذه ملاحظات علم النفس على هذا الشذوذ (Disorder) ، فإذا كانت مثل هذه الشخصيات في وسط (ميستي) مثلاً ، لاقى عدم شعورها بالراحة تسمية : (الوجد) ، ولاقت إرادتها الصلبة رغبة الكنيسة بالقديسين ، لذلك يقول عالم النفس (جوزيف بروير) أستاذ (فرويد) : « عندما يشغل تصورٌ ذهني ما كلَّ النتاج الفكري الخاص ، تبدأ الأعراض إذا كان الشخص هيستيرياً ، وبعض هؤلاء يمتلكون ذكاءً صافياً وإرادة صلبة وعقلية انتقادية ، فالهيستيريا لا تلغي المواهب النفسية . . . لكن المرض يمنع من استعمالها ، إن رئيسة المصابين بالهيستيريا

القديسة كاترين "St. Catherine of Siena" كانت امرأة عبقرية وتتمتع بحس عملي متكامل »[١] .

وهذا لا يعني أن كل متوحد يريد أن يكتشف الحياة من مستوى متعالٍ عبر التأمل (Transcendental Contemplative) ، هو بالضرورة مريض نفسياً ، بل يعني أن المبالغة بما حصل عليه من كشوف هي دلالة على المرض النفسي ، خاصة إذا ادعى أنه بمنزلة (سفير للقدرة) أي ممثل للامرئي بيننا .

ذلك أن الطبيعة الحقيقية التي لا يبتغي صاحبها علواً في الأرض إذا أبرزها ، هي : ما يظهر على كل متوحد من موهبة ، وما يبدو عليه من تغير في مطالب شخصيته .

فهو لا يعود يكترث بالثروة ، وإن كان يهتم بالمال كي يعيش بلا ذل سؤال الدراويش ، ويحفظ كرامته بالخوض بكل ما هو ثابت ، وتجنب ما هو عرضي دون مساس بمتطلبات الحياة ، وثمرة ذلك طبعاً شعوره بالتحرر من كل قيم الآخرين ، مما يجعل ذهنه صافياً لتلقي كل ما من شأنه أن يتصل برفيع القيم .

وينعكس هذا على نفسيته التي تتحرر من التوترات التي

---

(١) جوزيف بروير ، الهستيريا ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت عام ١٩٨٦م ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

تقـع بهـا الـنفوس الهاربـة من ذواتها عبر مصاحبة الآخرين(*) ، ولسـان حالها يقول لخافيتها : لماذا تلومونهم على إزعاجكم ، فـإذا كنـتم غير قادرين على ملاقاة أنفسكم بأنفسكم ، فما ذنب الآخرين بتحمل ثقلكم النفسي هذا ؟ ! . .

هكـذا نجـد أن التحرر النفسي من أجل التوحد ، لا يمكنه أن يـتم دون قدرة الإنسان بدايةً على ضبط توتراته (Stress) ، تلـك الـتوترات التي قد تكون فيزيائية . . وقد أشرنا إلى كيفية التقلـيل منها بالـتوحد ، وضبطها بالاتكال بعد العمل لا قبله ، وإلا تحـول إلى هـروب مـن القـدر الـذي بـدوره لابـد مـن أن يلاحـق الإنسـان بصور مختلفة ، وقد تكون التوترات ناتجة عن حـالات نفسـية أو اجتماعية أو اقتصادية ضاغطة ، أو مهنية . . أو صـحية . . ، وكـلها صـور مـن صـور ملاحقـة الأقـدار لكل إنسان لا يواجهها .

وعـدم القدرة على ضبط هذه التوترات ، تجعل الإنسان في حالـة فوضـى توتـرية وتشـد الخـناق علـيه ، كمـا تعـني عبارة (Stric-Tus) اللاتينية التي منها عبارة (Stress) الإنكليزية ، أي : التضييق .

وحسـب المتصـوفة تسـمى هـذه الفوضى التوترية الناتجة

(*) وخاصة الشخصيات الهستيرية كما سبق وأوضحنا .

عن الضغوط بكل أشكالها (القبض) الذي يأتي بعده الوجد (Rapture) ، وهو نفسياً كل فوضى توترية (Stress Disorder) من أمر ما يحله بعد ذلك الزمن والقدر اللذان سبّباه ، وما الوجد (Ecstasy) في نهاية التحليل سوى التعلق بأي إشارة وَهْمٍ تخلصنا من توتراتنا .

وقد قام علم النفس باختبارات لفحص قدرة الإنسان على تحمل الضغوط ، مثل ما فعل (ديفيد سبيغل David Spiegel) بدراسة فئتين من المصابات بالسرطان ، فئة اجتماعية تضم المصابات اللواتي قررن التآزر ، وأخرى لم يشاركن في هذا الدعم الاجتماعي المتبادل (Supporting Groups) ، فوجد أن جهاز المناعة عند اللواتي تبادلن مشاعرهن حول مرضهن كان أقوى من اللواتي رفضن ذلك (المنعزلات) ، وكذلك تحملهن للألم الفيزيولوجي نتيجة العلاج الكيميائي كان أفضل ، وبعد ٤٨ شهراً من بداية الدراسة مات من (المنعزلات) نصفهن تقريباً[١] .

وهذا دليل على أن التوحد في مجتمع منهجي - يمنهج طرق محاربة التوترات وسواها من الأعراض النفسية - أمر خاطئ بعد الإصابة بما يسمى (Psychosomatic Disorder) ،

---

(١) Leff. J, Expressed Emotion, Guilford Press, N. Y 1995.

لكنه قد يكون مفيداً قبل الإصابة بها ، ويفيد في تجنبها (الإصابات النفسية ذات المظهر العضوي) ، وخاصة في المجتمعات التي لا منهج لاجتماع أفرادها ، ولا ضوابط علمية لمثل اجتماعات المقاهي والملاعب والأندية والاستقبالات الفارغة . . . إلخ .

فللتوحد فوائد هامة في المجتمعات المتخلفة ، ومضار أهم في المجتمعات المتقدمة ، فهو في الأولى وسيلة خلاص وفي الثانية حرمان من التآزر الاجتماعي .

للوحدة إذن تدابير يجب ألا تكون نتيجة مرض نفسي ، ولا هي موقف ثابت مفيد في كل حياة اجتماعية ، وهي بحث بالمنظورات بقدر بحثها في اللامنظور ، كلٌّ حسب التوجه الذي يطلبه المجتمع وتطلبه دواعي البحث عن الحقيقة في الفرد .

فالمشاركة في بحث كل الثوابت إزاء المتغيرات ليس مقتصراً على اللامنظورات في عرضيتها أو دوامها ، ولا على المشاركة في تيار الحياة الخالد في كل هذا الكون ، إنها كل عمل إبداعي تستدعي شروطه تدابير التوحد حيناً وتدابير (تنظيمات) الاجتماع أحياناً أخر .

وبذلك يتمسك الإنسان بلمع الحقيقة وبوارقها في وحدته ومع الناس ، وهو حتى لو لم يصل إلى الحقيقة التي ينشد ،

سواء أكانت ؛ فيزيقية أم ميتافيزيقية أم مفارقة ، فإنه ينال متعة البحث عنها ، إضافة إلى ما في هذه المتعة - كغيرها من المتع - من مكافأة بيولوجية ، أهم ما فيها تقوية المناعة البيولوجية والنفسية بالسيطرة على قوى التوتر التي تصاحب حياتنا اليومية ليل نهار ، والتي تزيدها وتضخمها الحياة العصرية ، مما يحرر الإنسان من ضغوطه الحياتية الداخلية والخارجية نحو أهداف حياتية أسمى .

تلك هي تدابير الوحدة المجدية في تشكيل شخصية جديدة تتحرر من الضغوط الخارجية والداخلية للإنسان وتحوله في كل كيانه إلى فكر متأمل خارج الذات ، فإذا سمي هذا خروجاً من الذات صحَّ ذلك ، وإذا ظن الظان أن الخروج من الذات غير ذلك أخطأ .

وهذا ما أعنيه بانفصال العقل عن الجسد دون قطيعة ، فصحيح أننا نعيش بعالم معظم ما فيه عاقل (يخضع للقوانين) فهو مفهوم لكنه غير معقول دوماً ، فهل هذا يعني أن العقل قابل للانفصال عن الجسد ، السؤال الذي يحتاج إلى إجابة تجريبية هو : هل هذه القابلية لمعقلة العالم تحصل بعد القطيعة - أي بعد الموت - كما نشاهدها تحصل بالتأمل والتفكر (Meditation) ؟ !

و (أرسطو) حين رجح خلود الفكر كان بذهنه شيء من

هـذا ، يقـول : « أكد ديموقريطس (Democritus) الصفة الواحدة - الهويـة الواحـدة - للـروح والفكـر »[١] ، كمـا أكد بصفته تلميذ (أفلاطـون) أن معـلمه « أراد بشـكل واضح من كلمة عالم الروح الـنوع ذاتـه لمـا يسمى بالعالم الفكري »[٢] ، لذلك أعلن استحالة فصـل الـروح عـن الجسـد كاسـتحالة فصل بؤبؤ العين عن العين ، لكـنه قـال : « إن المعـرفة كوجـودٍ بـالقوة . . والفكـر وحـده . . يجعلها فعلاً . . كذلك هو . . أزلي وغير فانٍ »[٣] .

فهـل يعـني هـذا أن العقـل قابل أن ينفصل عن الجسد وأن يتركـه لمـدة محددة ؟ ! إن هذا ما لا أقوله هنا ، وجل مـا في الأمـر أنـنا ندعـوك أيها القارئ لتدبر لنفسك وحدة مجديـة ، تحـرر بها جسدك ونفسك من الضغوط الخارجية والداخلـية ، لـتجد أنـك قـد أصبحت بقبضة فكرك وحده ، فتـتحرك يدك بالقلم دون أن تشعر ، وتنظر بعينيك إلى ما هـو أمـامك دون أن تـراه ، بـل تـرى ما يدلك فكرك عليه فقـط ، فينفصـل عقلـك عن جسدك دون مفارقة ، ودون ما يسمونه بالجسم الأثيري المغادر والعائد (Astral Body) في حالات الموت المؤقت .

---

(١) Aristotle, De Anima, Penguin Books, N. Y. 1986, P 134.

(٢) Ibid, P 141.

(٣) Ibid, P 205.

تلك تجربة لا يدلك عليها التأمل ، بل يدلك عليها دليل واحد هو الموت المؤقت ، أو ما سمي كذلك ، لكن هذا الأمر لم يُنْأَ فيه عن الخلط في تقارير كتاب مشهورين من أمثال : (أرنست همنغواي ، وأرثور كوستلر ، وفرجينا وولف ، ودي أتش لورانس) ، كما اختلط هذا الأمر على ٣٤٪ من خريجي جامعة أوكسفورد "Oxford"[١] ، لما تفرضه الكتابة على الكتاب ، والدراسة على الطلاب من تدابير التوحد ؟ !

تلك هي أقرب مسافة ممكنة في الحياة من اللامنظور الإنساني فيها ، وسوى ذلك يظل خارج أطر الفكر ، في مجالي الرغبة والعواطف الإيمانية الجيدة ، المتجاوزة لكل برهان بعظمة ذوق الإيمان الشخصي الديني :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥/٦] . .

صدق الله العظيم

---

(١) Brian Ward, The Sixth Sense, Macdonald Guidelines, London 1977, P. 34

القسم الثاني

التعقيبات

أولاً

تعقيب الأستاذ ندرة يازجي
على مبحث
الدكتور هاني نصري

ثانياً

تعقيب الدكتور هاني نصري
على مبحث
الأستاذ ندرة يازجي

تعقيب ا / ندرة يازجي

على مبحث الدكتور

هاني نصري

"الميستية و التصوف"

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقي هاني ،

في كتابك ، الذي صدر عام ١٩٩٠ ، ذكرتَ أن التصوف الحقيقي لم يُكتب بعد . هذا لأن لغة التصوف المعاصرة لغة تستخدم كل معارف هذا العصر على قَدْر الإمكان . . إنها تحتاج إلى الرموز الرياضية . وهكذا ، يلج التصوف عبر الفلسفة العلمية العصرية . وتخلص إلى القول : لا تصوّف من دون خلفية بكل العلوم والأديان . لذا ، لا يوصف التصوف القديم والتصوف الحديث إلا بخلفيته العلمية والفلسفية الحديثة .

وعلى سبيل المثال ، تتحدث عن النيوترينو الذي يخترقنا ويخترق العالم المرئي تماماً ، كما تتحدث عن وجود عوالم مخفية عن حواسنا ، وبالحري وجود كون خفيّ بالكامل يعمل هنا داخل الكون المألوف .

سررت أن أجدك تتحدث عن عمانوئيل كانط الذي تحدث ، بدوره ، عن النومين ، أي الشيء بذاته ، الذي يدلنا على وجود الله . . هذا النومين الذي يحمل جواهر الأشياء الحاملة لجواهر الظواهر ممكنة الوجود بواجب وجودٍ أوجدها ، وهكذا تقول : إن الإنسان محاط بعوالم تعلوها عوالم ، وتؤمن بأن اللامنظور الخفي الذي هو أمام الإنسان ، هو أيضاً في داخله ، وعلى هذا الأساس ، تعتقد أن المتصوفة يدّعون تواصلهم باللاَّمرئي على الرغم من أنهم لا يتواصلون مع ما هو واضح أمامهم نظراً وعقلاً . فهم يهربون من المنهج العلمي ، وهو الملاذ المعرفي الباقي ، ويدّعون التصوف دون أي خلفية معرفية . وهكذا ، يكون التصوف ، في رأيك ، مرآة معرفة كل عصر بكل علومه وفنونه وفلسفاته . لذا ، لا تسمح بترك اللامنظور المحيط بنا وفينا بيد الدراويش . ومنه ، تخلص إلى النتيجة التالية : لا حبل يربطنا باللامنظور سوى حبل الإسلام كما بدأ .

سررت أيضاً أن أعلم أنك تؤكد على استعانة المتصوف بالعلم والفلسفة اللذين يؤكدان ، بدورهما ، وجود اللامرئي . لذا ، يجب أن يكون المتصوف عالماً بالأديان ، كما يجب أن يعلم العلوم الوضعية كلها . ويقتضي هذا الواجب عدم خلط الكفر بالإيمان ، والسحر بالتصوف ،

لكي يتجنب الشطح المعبر عنه بالسكْر الروحي . وفي هذا السياق ، تؤكد أو تذكر أن التصوف مقحم في الإسلام . ومع ذلك ، تعترف أن يكون المتصوف صاحب معرفة دينية واسعة بدينه وبالأديان الأخرى دون تعصب ، وصاحب طاقات وقدرات موهوبة .

يشير حديثك في الحقيقة الصوفية إلى أن الرغبة بالخلود هي شعور أو إحساس كل إنسان باللامرئيات المحيطة به . وتعتقد أن الإشكال الأساسي للحقيقة الصوفية يكمن في تأكيد حقيقة واقعة اللامرئي حدسياً وفلسفياً وعلمياً ، كما يكمن في كيفية التواصل مع هذا اللامرئي . وحول هذا اللامرئي ، رأيتك تعود إلى كانط إذ يقول : "شيئان ، كلما تأملت فيهما بمزيد من الإمعان ، يملآن الذهن بإعجاب ورهبة متزايدين : السماء المرصّعة بالكواكب فوقي ، والقانون الأخلاقي في صدري" . ووفق هذا القول ، نستنتج ارتباط الإنسان بعوالم تعلوها عوالم ، وبأنساق تعلوها أنساق . وفي هذا المنظور ، تؤكد أن الصوفيين الحقيقيين هم أصحاب النفوس المرهفة الذين يبحثون عن الحقيقة اللامرئية . تذكر هذا الأمر ، وأنت تدرك أن الاستلاب ، وهو الانفصال بين حدّين متشابهين ، يعيق السعي نحو التلقّي الذاتي للمطلق .

لمـا كنـتَ تتساءل إن كان التصوف سبيل الاتصال بالمطلق وباللامـرئي ، رأيـتك تذكر التمييز الدقيق بين المتلقّي الصوفي للمطلق واللامرئي وبين الوحي النّبوي . وترى أن التمييز يظهر كما يلي :

١- الباحث عن اللامرئي ليس كاللامرئي الباحث عنه .

٢- المطلق هو الذي يستدعي النبي بالوحي دون أن يكون لـه أن يقيم أي مجاهدات ، أي دون أن يكون للنبيّ أي جهد أو أي طلب لهذا الاستدعاء .

٣- ليسـت النبوة رؤى ذاتية فقط كالتصوف . هكذا ، ترى أن الحقـيقة النـبوية تتميز عن الأحوال الذاتية الصوفية . وترى أن الصـوفي الحقـيقي لا يسـمّي نفسـه صـوفياً ، ولا يدعو إلى تـرك الدنيا . أما شوقه فيكون بالتدين؛ لأن هذا التدين مفروض ومطلـوب . وفي هـذا السياق ، تـرى أن الإنسـان المنعزل غير جديـر بالحضـرة الإلهـية الـتي لا يسـتحقها إلا مـن خبر الدنيا وعذابهـا . وعلـيه أن يتمـثل برسـول الله الـذي لم يكـن ناسـكاً مـنعزلاً بـل نبـياً . لذا ، كان الصبر وتطهير النفس ، كما تقول ، ثمـرة الجهاد لا للنفس بل للآخرين ، وإيصال الناس إلى وعي الواحدية المطلقة لله تعالى . وهكذا ، يكون الزهد في الإسلام ، كمـا تذكـر ، عـدم رفض ما يعطيه الله للإنسان على نحو يتمثل بالحمد والشكر .

صديقي ، أتمنى لو أنك حافظت على بحثك القيم في هذا الإطار أو النطاق ، وأعرضت عن التعرّض لمواقف الآخرين ومبادئهم وعقائدهم الفكرية أو لتقاليدهم الدينية حرصاً على احترام التنوّع الماثل في حوار متسامح لا يشير ، من قريب أو بعيد ، إلى ذكر الشطْح ، والفصام ، والهلوسة والسّكْر الروحي .

صديقي ، أنت تعلم أن محبتي الفائقة لك وتقديري لعلمك ومعرفتك اللذين يؤكدان صوفيتك الحقيقية ، أمران يستدعيان تجنّب الإدانة التي لا تليق بأمثالك ممن تميزوا بالحكمة والخير الكثير .

صديقي هاني ،

أحب أن أتحدث عن بعض النقاط الواردة في بحثك عن التصوف :

١- ذكرت مصطلح التصوف أكثر مما ذكرت مصطلح الصوفية . وهذا يعني أنك لم تقم علاقة بين الصوفية والحكمة .

٢- ذكرت في بحثك أن التصوف الحقيقي لم يوجد بعد . وذكرت أيضاً أن التصوف بدأ مع رسالة الإسلام . فكيف

يمكن التوفيق بين بدايته وعدم وجوده إلى الآن؛ علماً بأنك تحدثت عن التصوف الحقيقي ؟ ألا ترى أن ثمة تغايراً أو تناقضاً بين القولين ؟

٣- ذكرت أن التصوف قد أقحم في المجتمع العربي بتأثير تيارات التقليد السائد في بوذية الزن وفي التقليد الكنسي الغربي . والحق أن جوابي يتمثل في بحث التجربة الاختبارية التي قام بها كبار العلماء وكبار الأطباء لدراسة هاتين الظاهرتين .

أ- فيما يتعلق ببوذية الزن اليابانية ، قام أطباء كبار وعلماء كبار بدراسة الوضع الذي يكون فيه المتأمل مستغرقاً ، فوجدوا أنه كان قادراً على التأثير في توجيه موجات الدماغ الأربع ، الأمر الذي يشير إلى وضع أو حالة فوق عادية إن لم تكن فوق طبيعية .

ب- فيما يتعلق بالتقليد الكنسي الغربي وقضية إضفاء صفة القداسة على بعض الأشخاص ، سواء أكانوا رجالاً أم نساء ، ونتائج الشفاء الحاصلة عن هذه القداسة ، درس أطباء مشهورون ، على رأسهم ألكسي كاريل ، هذه النتائج بدراسة المريض قبل دخوله إلى مركز لورد في فرنسة وبعد خروجه ، فوجدوا أن نتائج الشفاء الحاصلة صحيحة وأكيدة . ومن

جانبي ، أتساءل : هل وُجدت علاقة بين المريض والقديسة أو القديس ، أم أن المريض شفى نفسه في ذلك المكان الذي آمن أنه مكان شفاء ؟ وفي سبيل الوضوح ، أقول : تحتمل صحة الافتراضين .

جـ- في كتاب وضعه بول برنتون ، الطبيب البريطاني الرائع ، وحمل عنوان Secret India ، نجد الحقيقة الواقعية التي اكتشفها هذا الطبيب المرموق وهو يدرس حالة الاستغراق التي يحققها بعض الصوفيين وهم في حالة الاستغراق التي يختبرها المستغرق عبر :

١- التركيز . ٢ - التأمل . ٣ - الاستغراق . وفي هذا الاستغراق ، يختبر المتأمل المستغرق حالة الغبطة ، التي تشير إلى تجاوز الثنائية والتجزئة والانقسام .

٤- أحب أن أقدم مثلاً يتصل بعلم نفس الظاهرات الخارقة ، أي ما بعد علم النفس العام أو علم نفس السلوك .

في بداية حديثي ، أود أن أطرح الأسئلة التالية :

هل يوجد تفاعل بين وعي الإنسان وكل ما يحيط به من طبيعة ، ندعوها مادية ، ووجود كوني ، ندعوه لا مادياً ؟ وهل ما يدعوه بعض المفكرين والعلماء بمصطلح "ما بعد" أو "ما وراء" ، يشير إلى وجود يقع فعلاً بعد أو وراء الوعي الإنساني

ويكـون مفارقـاً أو متعالـياً عليه ؟ وهل التعابير والمصطلحات الـتي تـتحدث عـن "مـا بعـد الطبـيعة" أو "مـا بعـد الفيزياء" أي المتافـيزياء ، أو "مـا بعـد عـلم النفس" ، وهو العلم الذي يعالج الظاهرات التي تجاوزت نطاق علم نفس السلوك أو علم النفس العـام ، هـي تعابير ومصطلحات دقيقة وصحيحة ، أم أن هناك حقـيقة واحـدة ، هـي عـلم واحـد تـتفاعل مقوّماتـه أو أبعاده ، المرئـية وغـير المرئـية ، المعلومة وغير المعلومة ، المحسوسة وغـير المحسوسـة ، المعـروفة بالوعي ، والطاقة والمادة ؟ وهل يقع "ما بعد علم النفس" فعلاً بعد علم النفس ، ويشير إلى علم يعـالج القضـايا الخارقـة والظاهرات التي عجز عن تفسيرها أو الاعـتراف بهـا عـلم الـنفس العـام أو علم نفس السلوك ، أم أنه يشـير إلى مرحلة متقدمة ومتطورة لعلم بدأ يكشف الغطاء عن أسـرار إنسـانية وطبيعـية وكونـية ، حاضـرة أو ماثلـة في واقـع وجودنـا ، وتحـدث ظاهـراته الخارقـة في بُعـد نفسي أعمق أو أعظـم نتـيجة لـتفاعل بـين عناصـر الوجـود ، ووظـائف النفس ومجموعـة الحـواس الخمـس والحـواس الأخـرى المـتمّمة ، وتبطل أن تكون خارقة متى سبرنا عمقها وفهمنا حقيقة تمثّلت بـ "معرفة النفس" ، وعلمنا أنها تطور لاحق لمرحلة سابقة ؟

يمكنـنا ، على هذا الأساس ، أن نعبّر عن أنفسنا ، ونقول : لا يشـير مصـطلح "مـا وراء" أو "مـا بعـد" Meta أو Para إلى

وجـود يقع إلى ما بعد وجودنا . وعلى غير ذلك ، يشيران إلى ما يلي :

أ- انطـلاق العـلم والمعـرفة إلى مـا هو أبعد وأعمق أثناء عملـية تطورهما . هذا لأن الأبعد أو الأعمق اصطلاح يُعتبر "ما بعد" أو "ما وراء" ، أو "ما فوق" قبل معرفته .

ب- الموهـبة أو القـدرة التي تتجاوز المنطق العقلي القائم على الإدراك الحسّي وحده .

جـ- تطويـر وتنمـية القـدرات العقلية والإدراكية الحسّية ، بحيث يدعى هذا التطوير "الإدراك الحسّي النامي أو الزائد" .

نسـتطيع أن نسـتنتج مـا يلـي : إذا كانت الطاقة تتفاعل مع الكـتلة ، بمعـنى أنهـا تـتحول إلـيها ، وهـذه الثانـية ، بدورها ، تـتفاعل مـع الطاقـة ، بمعـنى أنهـا تـتحول إلـيها ، فيـتكامل الطـرفان ، فـلا نخطـئ إذ نقول : إن الوعي الإنساني يتفاعل مع الطبيعة الحية وغير الحية . والحق أنه لا يوجد ما ليس حياً في الطبيعة التي تحيط بهذا الوعي ، وذلك لوجود حقيقة مشتركة ، أو جوهـر أو كـيان أو واقـع مشـترك بيـنهما . ويتفاعل الوعي الإنسـاني مـع الكـون بكامله ، أو مع مستويات الكون ، لوجود حقـيقة مشـتركة أو حـياة مشـتركة أو كـيان أو جوهـر مشترك بيـنهما . ألا يتفاعل الإنسان مع الغلاف الغازي الذي يحيط به ،

ويستنشـقه ويدخله إلى جسده ، ومع الأشعة الكونية القادمة من أغوار وأعماق الكون البعيدة ؟

أود أن أنـبّه إلى أن مصطلح "ما بعد" أو "ما وراء" أو "ما فـوق" هـو مجـرد تعـبير يشـير إلى أن علماً معيناً قد تجاوز الحـدّ أو المستوى الـذي كـان قـد بلغـه سـابقاً . لـذا ، يعـدّ مصـطلح "مـا بعد علم النفس" مرحلة متقدمة أو متطورة من مـراحل البحث النفسي أو علم النفس العام ، تجاوزت البعد الفكـري الـذي كان قد بلغه . إنما ، مع ذلك ، ظل قائماً في علم النفس ذاته . وهذا يعني أن الباحثين لاحظوا أو شاهدوا واختـبروا ظاهـرات لم يضـعوها موضـع الـتجربة سـابقاً ، وبـدؤوا يتساءلون عن حقيقتها ، فتحدثوا عن "ما بعد" أو "ما وراء" أو "ما فوق" .

عـندئذ ، أُضيفت السابقة المعروفة بـ Para أو Meta لتشير إلى بلـوغ البحـث مسـتوى أعمـق في نطـاق الدراسـة أو إلى ملاحظـة وتسـجيل ظاهـرة تتطلب التساؤل والتقصّي . وإذا كان الفيزيائـيون قـد بلغـوا ، في بحوثهـم الأخـيرة ، حدّاً أو مستوى جعـلهم يـتجاوزون إلى مـا وراء المسـتوى الـذرّي أو ما دونه ، فلابـد أن تصـبح السـابقة المعـروفة بـ Meta المضافة إلى كلمة Physics إشـارة إلى الـتعمق في البحث الفيزيائي . وفي الوقت

الحاضر ، أطلق بعض الباحثين الذين وجدوا تماثلاً بين اللاوعي الإنساني ، وهو الوعي الكامن غير المكتشف والمنطوي في الأنماط البدئية داخل الكيان ، وبين مضامين المستوى دون الذري في الفيزياء ، مصطلح "بسيكو ترونيك" على تفاعل الطاقة والمادة والوعي الإنساني تماماً كتفاعل المراقب ، وأداة المراقبة والمراقَب . وبهذا الصدد نستطيع أن نقول : يعد مصطلح "بْسيكوترونيك" Para أو Meta ، أي "ما بعد" أو "ما وراء" أو "ما فوق" بالنسبة إلى "ما بعد علم النفس" ، وذلك لأن الإنسان أصبح يعلم أن هذه السابقة مضمونة فيه بعمق . وبقولنا هذا ، نعتمد على قدرة الإنسان على اكتشاف العمق أو البعد الذي لم يعد ، بعد تقدم العلوم الفيزيائية ، والفيزياء الفلكية والبيولوجيا ، مجرّد ظاهرة خارقة تخضع لتسمية معيّنة . هذا ، لأن الإنسان ذاته وجود خارق ، ولأن كل ما في الطبيعة والكون والإنسان ، أي لأن كل ما في المادة والطاقة والوعي ، يتحدث عن وجوده بعظمة ، وعمق وإجلال .

في هذا البحث ، نطرح أفكاراً أو أطروحات تشتمل كل واحدة منها على مفهوم التفاعل بين المادة والطاقة ، أو بين المادة والطاقة والوعي .

"ما بعد علم النفس" أو الـ "بْسيكوترونيك"

في كتاب (الصفر واللانهاية) كتب آرثر كوستلر ، المختص بفلسفة العلوم التي يدعوها بعضهم "ما وراء" أو "ما بعد" أو "ما فوق العلم" ما يلي : "لو لم يكن الإدراك الحسّي النامي أو الزائد موجوداً لما كان ثمة شيء يحدّ من ازدياد شعوري بالطمأنينة . . إنه موجود ، وأنا أدرك هذا" . وإن ما يؤكد وجوده هو أن العلم ، في حالته الراهنة ، قد ضمّنه في بحوثه ، وأن العلماء يدققون في ملاحظات ضُبطت ، وفي فرضيات تجاوزت ، في مضامينها ، الفهم البشري العادي أو التقليدي .

أشار هذا العلم إلى عدم وجود علم النفس إلى "جانب" أو إلى "ما وراء" أو "ما بعد" أو "ما فوق" علم النفس ذاته . فليس هناك إلاّ علم نفس يشمل الكل : الطبيعة والإنسان والكون . وفي الوقت ذاته ، لا يوجد "ما وراء أو ما فوق العلم" لأن ما يوجد فعلاً هو العلم ذاته . ثمة تسمية واحدة تشتمل الآن على دراسة الظاهرات "غير المألوفة" السرّانية وغيرها ، والموجودة فعلاً ، وأطلق عليها ستانلي كريْبنر تسمية هي "بْسيكوترونيك"؛ الاصطلاح أو التعبير الذي يشير إلى وجود "علم متداخل التنظيم والعلاقة" يدرس تفاعل المادة والطاقة والوعي ، علم

يشير إلى التفاعلات بين الإنسان والأشياء الحية وغير الحية ، أي المادة الجامدة ظاهرياً والحية جوهرياً . وقد ساهم التأليف بين المادة والطاقة والوعي في إبطال الزعم بوجود مادة بالمعنى التقليدي للاصطلاح .

النفس الكونية الشاملة والطاقة الكونية

وجد الفيزيائيون أنفسهم وقد أصابتهم الحيرة والدهشة وهم علماء المادة ، يبحثون عن الحلقة القائمة بين الروح والمادة ، بين الطاقة والكتلة .

يعتقد فيرسوف ومعاونوه في الجمعية الملكية لعلم الفلك أن الروح كيان أو هي تفاعل شامل شبيه بنظام الكهرباء الموجود في كل مكان ، أو هو شبيه بالجاذبية الشاملة . ويحتمل أن تكون الروح معياراً للتحوّل بحيث تكون نظيرة لمعادلة أينشتاين الشهيرة : الطاقة = الكتلة مضروبة بمربع سرعة الضوء $E = me^2$. وقد أعادت هذه المعادلة الألفة أو التفاعل بين المادة العقلية وبين الكائنات الأخرى التي تمت إلى العالم الفيزيقي بصلة .

في هذا المنظور ، يعترف العديد من العلماء بوجود نفس للكون . وفي الوقت ذاته ، اعترفوا بأن المادة ليست إلا كشفاً

عن أنماط اهتزازية وجاذبة عديدة للطاقة الكونية . وإذا ما سألنا : ما هو جوهر هذه الطاقة ؟ كان الجواب : إننا لا ندركها تماماً . فنحن نستعمل الكهرباء دون علم بحقيقتها ، ولا نعرف سوى القليل عن الطاقة والنفس اللتين تحييانا وتنشّطاننا . ومع ذلك يعترف علماؤنا وحكماؤنا بها ، ويؤكدون وجودها ، ويسجلونها . وتعد هذه النفس متطورة ونامية في حقول الوجود كلها : في المادة الحية وفي المادة التي يزعم بعضهم بأنها ليست حية ، وفي النباتات والحيوانات ، وفي الكائنات البشرية .

الحواس الخمس ، تطويرها وتنميتها

تتميز حواسنا الخمس التقليدية والمألوفة بخاصة تكميلية هي تنمية عالم الداخل . وتعتبر بصيرتنا الداخلية مسلكاً يقع خلف عيوننا ، تتصل ، من خلاله ، بهذا الجزء أو بذاك الجزء من أجزاء جسمنا . ونخص منها أجفاننا التي نعتبرها التمرين الأول للممارسة . ومن هذه الممارسة ، ينتج ارتباطنا بمركز الانتباه لننطلق إلى ما هو أبعد . ونتجاوز هذه الممارسة ذاتها إلى البصيرة الداخلية . وهكذا ، يستطيع الإنسان تطوير وتنمية حواسه الخمس تطويراً وتنمية كبيرين . وثمة تمارين عديدة

تستطيع أن تجهز الإنسان ، إن هيأ نفسه سلفاً للإصغاء والاستماع المرهف ، وإلى اتصالات مع الـ "ما وراء" بقدرات عظيمة؛ لذا ، يمكننا أن نقول : إننا قادرون على اكتساب قدرات تنتج عن تطوير حواسنا الخمس . وعلى هذا الأساس نقول : إن الحاسة السادسة المزعومة ليست أكثر من تطوير وتنمية كل حاسة تطويراً وتنمية يبلغان الحدس والبصيرة وإدراك أو معرفة الـ "ما وراء" أو الـ "ما بعد" .

قدرات هي أم مواهب ؟

يشير واقع الأمر إلى عدد وافر من الناس يرغبون في زيادة قدراتهم . مع ذلك ، لابد لنا أن ندرك أن هذه المواهب أو القدرات لا تحدث جزافاً . والحق أن من يستطيع أن يوجه ذاته يجد أن كل تنمية لإمكاناته في متسع الحياة تناظر موهبة . وهذا يعني أن هذه الموهبة ممنوحة لنا على نحو كمون يتطلب التحقيق . ولذا ، نرى أن الموهبة قادرة على إخراجنا من الظلمات . هذا ، لأن كل موهبة تمثل إمكانية أو احتمال الدخول إلى حقل جديد . ووفق هذا المنظور ، نقول : يقع حقل الموهبة إلى ما بعد منطقنا العقلي ، بحيث إنه موجود فينا .

لا نبالغ في قولنا إن حواسنا الخمس، بسلوكها العادي، تُبقي ضيق أفقنا المظلم ضمن زنزانة يُطل الإنسان من داخلها إلى الخارج عبر كوة صغيرة لا يتجاوزها إلا القلة. وبخروجه من هذه الزنزانة، يكتشف الإنسان إمكانات وقدرات أخرى يفسرها باتجاه الخير. فهو يستطيع المرور، ويجتاز الكوّة الصغيرة. وعندئذ، يفسّر المواهب والقدرات تفسيراً إيجابياً.

تجاوز الأنا

وُجدت هذه الهبات فينا لكي تساعدنا على تجاوز الأنا والتسامي. فالإنسان يمتلك قدرات فطرية، ويتوجب عليه أن يكتشفها ويعمقها في كيانه ليتسنّى له فهمها ومعرفتها على نحو أفضل. ولئن كان الإنسان يمتلك قدرات عقلية وحدْسية تقتضي منه التطوير والتنمية، لكنه، مع ذلك، يمتلك قدرات روحية تتطلب التحقيق لأنها وعي يسعى إلى مزيد من التفتح.

إنه لأمر رائع أن يتعلم الإنسان يتصور ويفهم قضية تُعاش، وعلاقة تنبثق من الداخل لتنطلق إلى داخل الآخر، وإدراكاً لعمق غير عادي يتأصّل فيه. كل خير متاح لقلب يعرف كيف يشعر ولقلب يعرف كيف يُصغي، ويعرف كيف يتجاوز الثنائيات والأقطاب المتقابلة والأضداد الظاهرية

والانقسامات المفتعلة . هكذا ، يكون القلب المتفتح والعقل المنفتح طاقة كبرى تساعد كل من يرغب في الانفتاح ، وكل من يتوق إلى تسنّم قمة الحقيقة ، والعيش في الحقيقة السامية المتوافقة مع الاهتزاز الكوني . وهكذا ، يكون واجب الإنسان الحقيقي أن يجعل من كل ما هو كامن فيه حياة قائمة بذاتها ، يساعد نفسه يساعد الآخرين ليعرفوا كيف يحيون وفق أفضل إمكانية متاحة ضمن إطار القوانين الكونية .

الإحساس الأعظم النهائي

في هذا المنظور ، نذكر الإحساس ما قبل الأخير أي الإحساس النوراني الذي نعبّر عنه ونصفه بأنه إحساس الانفتاح إلى مثالية الحقيقة الكونية السامية . . والحق أن الإحساس النوراني يؤدي إلى الشعور بالوحدة ، ويتجاوز الثنائية والتعدد والأضداد ، ويحفز الإنسان إلى اكتشاف الأبدية التي يجدها في عمق كيانه ، ويلازم هذا الإحساس الإنسان إلى "ما وراء" العوائق والظواهر والانقسامات ، وهو يشبه البذرة المزروعة في كل إنسان ، والمهيأة للنموّ . وهذا هو الإحساس الذي يُبدع الاستنارة لدى بعض الناس ، وهو الذي يوجهنا ، مرحلة تلو مرحلة ، في حقل تطبيقنا للحرية الحقيقية ، ويعلمنا إياها .

وهـذا هـو الإحسـاس الـذي يهبـنا التواضـع ، والبساطة ، ومحبة الآخـرين؛ وهـو الـذي يمضـي بنا إلى التسامي والتعالي ، وإلى الحقـيقة المذهلـة ، وإلى إبـدال أبعادنـا وقياسـاتنا أو تعديلها . وبهذا الإحساس ، تحقق التحرر والانعتاق ، والاستعداد الدائم ، واليقين الشخصي في وجود الحقيقة السامية والوعي الكوني .

بهـذا الإحساس ، نكتشف عظمة المحبة . هذا ، لأنه القانون فـوق الطبـيعي الـذي يعـني أن المحـبة هي التجاوز المتسامي . ويقودنـا هـذا الإحسـاس النوراني إلى الصمت الداخلي ، وإلى السـلام ضـمن كمـال الكيان . والحق أن السلام لن يتحقق على كوكـب الأرض مـا دام الإنسـان عاجـزاً عن اكتشاف هذا السلام في داخله . لذا ، فإن إحساسنا الكوني يرشدنا إلى التسامي .

في هـذا المـنظور ، نسـأل : مـاذا يعـني حضور الإنسان في هـذا العالم ؟ ونجيب قائلين : إن حضور الإنسان في هذا العالم يعني أنه محمل برسالة .

حضور الإنسان في العالم

تخضـع الكائـنات النباتـية والحيوانية لقانون تطورها . أما الإنسـان فإنـه ، نتـيجة لكونيته ، يحقق تطوره الخاص ، ويحقق غبطته الخاصة وفق قوانين معينة ، مرئية وغير مرئية .

لقد أدرك حكماء الماضي أن عالمنا هو عالم الفكر . وفي الوقت الحاضر ، يسعى العلم الحديث إلى اكتشاف هذه الحقيقة ومعرفة قانون التطور النوعي والكيفي . هذا ، لأن لعالمنا غاية كيفية دُعيت بالقانون الغائي ، أو الغائية . والواقع هو أننا لا نجد على هذه البسيطة إلا النتائج والمعلولات أي الـ "كيف" .

لما كان العلم التقليدي أو الوضعي لا يمتلك الوسائل لاكتشاف الأسباب ، أي الـ "لماذا" ، فإن إمكان أو احتمال الكشف عن وجود الحقيقة السامية أو الوعي الكوني كان ، وما زال ، أمراً صعباً . ومن هذا المنطلق ، لا يمتلك أحد القدرة على التأكد من أن الوجود الكوني حقيقة تكشف عن ذاتها بموضوعية تامة ودون منازعة . لهذا السبب ، كان واجب كل امرئ أن يكشف الغطاء عن هذه الحقيقة بذاته ولذاته بتجربة واختبار داخليين ، وبمسارٍ شخصي بكل ما في الكلمة من معنى . والحق أن معرفة الحقيقة السامية تستحق الجهد بقدر ما تستحق المعرفة ذاتها .

وعلى سبيل المثال ، نقول : العالم يشبه تدبيجاً دق صنعه . ونحن لا نُدرك إلا القفا أو الوجه الآخر . وكل شيء يبدو كأنه يشير إلى الموضع الذي نراه . ألا يبدو لنا أن الشمس تدور حول الأرض تماماً كما يفعل القمر ؟

وبالطريقة ذاتها ، يكمن في أعماقنا حضور يجعلنا ندرك أننا الآخر ، كالذي نعتقد أننا نكونه . وليس هذا الحضور غير الحضور الكلي .

إن التدقيق والبحث في الأعماق يؤديان إلى كشوفات . وتؤدي هذه الكشوفات بدورها إلى تقريب متدرج يتنامى مع هذا الحضور الذي هو الوعي الكوني أو الحقيقة السامية . ويشير هذا البحث إلى قدرتنا على الإبداع . هذا ، لأن الإنسان ، ككل شيء في الطبيعة ، يخلق ويعود ليخلق دون توقف؛ يجد نفسه ملزماً على الإبداع والخلق . والإنسان يغتبط في إبداعه ، والإنسان ، أثناء تطوره ، يعلم أن الأشياء التي يجب عليه صنعها ، ستُصنع . . والكشوفات التي يقوم بها تضعه ضمن علاقة مع ضخامة نفث الحيّز . ويغذيه حدْس بأنه ليس وحده ، ويتملكه شعور من المعرفة ضخم ، يقوده إلى شعور التواضع العميق .

الإنسان يشعر بالجوهر الذي يهتز فيه ويحدث فيه تحولاً جذرياً . والحقيقة تصبح مثاله تماماً كما أصبح النجم القطبي مثال البحار . ويعلم أن إنسان الحواس الخمس هو الذي يخلق الجحيم .

إذ نعي مضمون هذا البحث ، ندرك حقيقة الصوفي .

تعقيب د/ هاني يحيى نصري

على مبحث الأستاذ

ندرة اليازجي

"الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة

منظور جديد"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قبل عشرين سنة ، وتحديداً عام (١٩٨٨) ، كنا نتحلق في صحن الدار العربية بمجلة الثقافة ، لصاحبها الأديب الكبير (مدحت عكاش) ، مع نخبة من رجال الفكر والأدب ، وعلى تراقص الماء في (الفستقية) بوسط الدار - الذي أصبح اليوم جزءاً من أفخم المقاهي التابعة لأفخم الفنادق بالشام - كنا نشكل مجموعة رواد تختلف في تجانسها عن رواد المقهى الذي حل محل (دار الثقافة) اليوم ، بفارق العمر والهيئات الاجتماعية والثقافية ، فروّاد المقهى اليوم من الشباب صغار السن ، وبالأمس كانوا رواد منتدى .

ضجيج موسيقاهم اليوم لا يشبه ضجيج خلافاتنا حول القضايا الفكرية آنذاك ، ولا تفاضل : إذ من يقدر أي الضجيجين أفضل ؟ ! حقيقةً لست أدري ! !

لكن الذي أنا متيقن منه اليوم : أننا قد وصلنا إلى قرب نهاية الشوط ، وهم لم يصلوا بعد ، فمعظم من كان معنا إذا ذكرناه قلنا شفاه الله ، وأولهم الأستاذ مدحت عجل الله شفاءَه ، أما من تبقى ولم يمت منهم بعد ، فباعدت بينهم السنون والأمراض والعمر ، وكذلك ، حتى لا يظن القارئ أني رومانسي (Romantic) أضفي على الماضي ما ليس فيه ، كذلك فرقتنا المشارب التي يكثر اختلافها في هذه البقعة من العالم حصراً ، فلم يبق على مشافهة اتصال دائم بين رواد النافورة - الفسقية الدمشقية - آنذاك معي ، سوى عدد قليل من هؤلاء الأصحاب يقرب إلي منهم « شاعر » و« صوفي عقلي» و« ناثرة أديبة » .

أما الشاعر فهو الأستاذ القدير (جابر خير بك) ، المجيد بلغة الضاد .

وأما « الصوفي العقلي » فصاحب هذا الذي أعلق عليه اليوم الأستاذ (ندرة اليازجي) الشفاف الطيب الرائع .

وأما الأديبة الفذة فهي « أم عمار » السيدة (وداد قباني)

رئيسة فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب المستحقة لكل تقدير[*] .

فَلَئِنْ صفا لك مِنْ زمانِكَ واحدٌ
فهوَ المرامُ ، اظفرْ بذاكَ الواحدِ

وقد صفا لي نخبة من دار الثقافة الدمشقية القديم قلما تجود الأيام بمثلهم ، أفخر بصداقتهم ويبادلونني الشعور ، وهذا لا يعني أنني الصديق الذي أشار إليه الأستاذ (ندرة) في كل بحثه الذي نحن بصدده ، فأنا أظن أنه يشير إلى شخصية افتراضية ، إشارة طالما استعملها رواد الفكر من أجل إبراز عِظةٍ ما (تشير إلى تَوَقٍ قوي لمعرفة القيمة الكامنة في الحكمة التي تدعى الصوفية)[١] ، وقد أحسن بعبارة : « تدعى » لأن الحكمة مجهولة لا نعرف ولا نقدر أن نعرف سوى التقرب منها ، وعشقها والسير في دربها الذي نعرف سلفاً أن عالم (الظواهر) لا يطلعنا إلا على ظلالها التي تنعكس على كهف عقولنا ، المشدود بالمشاعر والرغبات ، المحكوم بمسبقات البرمجة العقلية من خلال خبرات لا علاقة فردية لنا

(*) فمن بين يديها نضدت كتابي (فلسفة التصوف طاقات وقدرات).

(١) الصوفية هي الحكمة المتحققة ، مرجع سابق ، ص١٣ .

بها ، لكن لها بنا كل الغرائز التي ورثناها عن « جينات » أجدادنا ، عبر ملايين السنين من خبراتهم المتراكمة ، وتحديداً كما وجد العلم أن تراكم هذه الخبرات هو الذي يسير منطقة (المهاد) وما تحته في دماغنا .

ومن هذه المنطقة يظهر كل فعل مسبق البرمجة فينا ، أي غريزي ، يؤمن لنا استمرار الحياة من جهة فوق كل حساب أخلاقي ، ومن جهة أخرى يشعر دماغنا الذي تبرمجه ثقافتنا ودينا بالخجل والندم ، من كل رغبة يريد دماغنا - القديم الموروث هذا - تحقيقها على حساب كل القيم الاجتماعية التي يحددها هذا العصر أو ذاك .

هذه هي المعركة القديمة في الذات الإنسانية الواحدة ، التي ادعتها الصوفية في صراعها مع الرغبات ، واعدة المنتصر على رغباته - أي الذي يسيره دماغه الحديث ، الذي هو في القشرة الدماغية المتعرجة فوق المهاد - بالوصول إلى العرفان المستحيل ! ! .

وقد ذهب بعضٌ من أصحاب الأحوال الذين تتعاقب عليهم وعلى سلوكهم مرة مسبقات البرمجة فيهم ، وأخرى ما يبرمجونه من ثقافاتهم في أدمغتهم ، ذهبوا إلى الظن بأن مسبقات البرمجة هذه - الغرائز - ما هي إلا موطن

الشيطان في الإنسان ، فعلى صاحب الأحوال بين تجاذب الغرائز والمشاعر التي تقاومها فيه ، أن يقف - يوقف - عند أول « مقام » تتغلب فيه المشاعر الأخلاقية عنده على رغباته ، كما في « مقام الصدق » فلا يخاتل من أجل تحقيق أي رغبة ، أو مقام الحب « فَيُصَعّد » دوافعه الجنسية نحو عشق صور الكمال فيمن يظنها عشيقته من الجنس الآخر . . وهكذا .

هكذا أفهم الرغبة بالمعرفة بين زادَي التجريبية العلمية في علم النفس ، وفلسفة فقه تلك الوقائع (Facts) نظرياً ، التي من خلالها تتلاشى كثير من معميات التصوف ، والتي عبر عنها الأستاذ (ندرة) بعبارة : « تمثل المغزى الخفي والمستتر لمفهوم الصوفية - الحكمة »[1] .

على ألا يغرينا هذا الشوط الذي قطعته المعرفة الإنسانية بعلم النفس ، بظن اليقين فيما نقول ، فمعرفتنا دائماً وأبداً حين تظن القطعية في زمان ومكان ما تصبح ترجيحية في زمان ومكان آخرين ، حتى ولو استطاع الإنسان تجاوز (التقليدية التي تحجزه ضمن نطاق الحرفية أو الاسمية)[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٥ .

وهـذا يعـني أن اللعـبة الصـوفية شـأنها شـأن بعض اللعب الفكرية - الإنسانية - الأخرى ، هي لعبة قيمية .

لكننا نعـرف أن أحكـام القـيمة لا قـيمة لهـا مـا لم يكـن للمقـيّم سـلطة على من يقيّمه ، تزول بزوال سلطته ، حتى ولو ظـنها فكـرية لا تقهـر ؛ فهـذا (أرسـطو) يقـول عـن صـديقه (أفلاطـون) : « أحـب أفلاطـون وأحـب الحـق ، وأوثـر الحق عـلى أفلاطـون »[1] ، لكـن كـل حـق ظنه (أرسطو) حقاً ، لا يقـبله الـيوم طالـب مدرسة ابتدائية ، فليس للأرض رغبة بجذب الأشـياء إلى مركزها ، ولا يتوالد البق من أخثاء البقر والحيات من التبن ! ؟ ! .

أن تؤثِـر الحـقَّ لا يعـني أن تعطـي من يخالفك الرأي فيه كحكـم قـيمة ، مما جعل من (أفلاطون) بالقول السابق وكأنه عـدو الحـق « لأن هـذا يفسـد بـراءة الموضـوعية - الحـياد - ويجعلـك غبـياً وعنـيفاً . . تتصـرف كمدافـع عـن الحـق على الأرض ، كمـا لـو أن الحقـيقة تحـتاج إلى مـن يدافـع عنها ؟ ! وتحديداً منك شخصياً »[2] .

---

(١) يوسـف كـرم ، تـاريخ الفلسـفة اليونـانية ، لجـنة التألـيف والترجمـة والنشر ، القاهرة: ١٩٦٦ ، ص ١١٢ .

(٢) Nietzsche, Beyond Good and Evil, penguin Books, N . Y 1990, P56 .

فهل يستطيع الصوفي تجاوز تقويمه لسواه من أهل الشرع أو أهل النظر - الفقهاء والفلاسفة - مثلاً ؟ أي هل يستطيع من يظن أنه قد عرف الباطن - وهو غير قادر على نقله - أي ذاقه ، أن يكف عن رفض الظاهر ، ومتى يأخذ أصحاب الذوق بما يمكننا تسميته بالتصوف « الصراطي » في إتقان الظاهر أولاً قبل التبجح بالباطن ، الذي إذا سألتهم عنه قالوا تحتاج إلى مجاهدات ، أي تقويمات منا ، وحتى لو دخلتها فإنك تجد نفسك بعيداً عن نفسك ؛ ذائباً في إرادة آخر سموه المراد ؟ !

كتاب (الصوفية العقلية)[١] دعوة تحتاج إلى صدى يؤيدها حيث (الميتافيزياء قائمة في الفيزياء ، وما بعد الطبيعة قائم في الطبيعة ، والمثالية قائمة في الواقع)[٢] ، والظاهر حتماً قائم في الباطن والعكس ، والإلحاد قائم بالإيمان ، فلا حقيقة إلا وبها ترجيحات سواها وعكسها ، وهو ما عبر عنه منطق النقائض .

يقول (هيغل) في كتابه (علم المنطق) : « إن بداية الكون ليست وجوداً وليست تأكيداً (Affirmative) يمكن

---

(١) المرجع السابق ، ص١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٨ .

نفيه ، لكن مجرد لا شيئية ، واللاشيئية هي أيضاً النهاية »[١] ، التي يجب أن تكون بداية أيضاً حسب منطق (سقراط) عندما سأل :

« - هل يوجد نقيض للحياة ؟

- إنه الموت »[٢] .

ولكن ألا يوجد للموت نقيض ؟ !

تماماً هو اللامنظور الذي أظهرتُ بحث الإسلام عنه فيما قررته من « مستية وتصوف » في هذا البحث ، وأراد « ندرة » من الصوفية « تجاوز الثنائية والتعددية إلى الوحدة »[٣] .

ولكن لماذا كل هذا الجهد التراثي والمعاصر بالفلسفة والعلم ، وحتى بالتصوف لمعرفة ما يحكم الوجود من قوانين ؟ !

أسارع بالجواب : لأننا من هذه القوانين ، ونحن خاضعون لها ، فما تجريه يجري على الجميع ، وبعبارة أخرى : إن كل علم وكل فلسفة وكل تصوف يخلط بينهم ، تحركه رغبة ؟ !

---

(١) Hegels, Science of logic, Humanities Press inc, Nj, 1996 . P99 .

(٢) أفلاطون ، آخر أيام سقراط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، عام... ، ص٢١٣ .

(٣) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص١٨ أيضاً .

رغبة معرفة المصير التي سميتها في كتبي : (فلسفة المصير)(*) ، وحتى أسوأ حالات هذه الرغبة التي يمكنك أن تجدها باليأس الفردي من البحث فيها ، حيث يسلم المرء قيادة هذا البحث لمؤسسة ترشده ، فيقع في طقس نظام عبادة (Cult) معين يجعله رهينة لكل مقولاته ، هو بحد ذاته ناتج عن عدم قدرة مصحوبة بالرغبة في معرفة المصير .

فقد أخذ (سويدنبرغ Swedenborg) مثلاً من التصوف وحدة الوجود ، ومن خطاب الأموات - تحضير الأرواح - الثيوصوفي Theosophy (**) والحكمة الإلهية البوذية ، ومن الفلسفة حدوسها التي تنعكس على قارئها ، فشكل عرفاناً (Gnosticism) ، وجده بشخص هيلين بلافاتسكي التي أسست (المجتمع الثيوصوفي) الذي استقر بالهند ، وساعد على دخول التأثير الهندي في الغرب .

شخص كهذا يتمتع بالطاقات والقدرات الهائلة ، أصبح أسير العرفان ، الذي لا يخرج عن كونه وهماً ، يؤكده ما

(*) تحت الطبع لي مجموعة كتب عدا المطبوع حول هذه الفلسفة .

(**) إن كلمة (Theo) تعني الله ، وكلمة (Sophy) تعني الحكمة ، وهذه « اسمية » لا أساس لها واقعياً (Fact) ، لأن أحداً لا يعرف الله حتى يدعي معرفة حكمته ، وحتى لو استبدل بمفهوم الله الكونَ الكلي ، فلا أحد يعرف كل أبعاده ليدعي أن له حكمة قابلة لا للمعرفة فقط ، بل للعرفان ؟؟؟

يمكننا أن نسميه مجرى الانسياق في تداعيات الأفكار التي تخلط بين الوحدة الكونية والواحدية الكونية التي تدعي معرفة الحكمة الإلهية التي تستلزم معرفة الله أولاً .

فما هو مصدرها ؟ بما أن أحداً لم يخالط الله مخالطة ، لا مجرد تصور ؟ !

الجواب : « سكيزوفرينيا » أمثال (هيلن بلا فاتسكي) أو (هنري أولكوت) أو سواهم ممن أعجب بالأديان الهندوسية ؟ !

فأن تكون حكيماً (وفق مبادئ كونية شاملة)[1] كما أفهم من صديقي (ندرة) لا يعني أن تكون أسير أفكار مؤسساتية تدعي معرفة أسرار الحقيقة ، لذلك أوافقه على قوله : « العقل هو الأداة التي من خلالها تفصح الروح أو الوعي الكامن عن ذاته »[2] ، على ألا تأخذ كلمة كونية معنى مقدساً .

فكل قدسية هي بالنتيجة تعبير عن تصلب دوغمائي لا يستطيع شرح منطلقاته ، فالإطلالة (على المبادئ المتضمنة في الحقيقة المطلقة)[3] لا تتم إلا بمطلق مثلها (في سكينة

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢٢ .

الأبدية)[١] أي الموت ، وكل ادعاء على إمكان ذلك بحالة شبيهة بالموت ، له تسمية مرضية في علم النفس ، وأخرى في الفلسفة حيث تنبه إلى استحالة أن يخرق المحدود المطلق قبل أن يصير من جنسه مطلقاً ، لأن الشبيه لا يعرف إلا بشبيهه ، وهذا حق فردي وليس (Cult) اجتماعياً ، نناله حين الموت ، أما قبل هذا فأداتنا العقل ببرمجاته المسبقة عبر سلالتنا ، وبما نملؤه أيضاً من معلومات ، لذلك آن الأوان لكي نوجه لمحبي التصوف صعقة أن يكفوا عن احتقار الغرائز ، لكونها عقلاً برمجته مسيرة نوعنا التطورية عبر ملايين السنين من الخلق والإبداع ، لا يجوز أبداً إبداله بنتاج دماغنا الحديث الذي تبرزه هذه المعلومة أو تلك ، من هذه الحضارة المعاصرة أو تلك ، ومن هذا المذهب الصوفي أو (الكلان أو Cult) أو ذاك ، لذلك أوافق الأستاذ (ندرة) حين قال : « لأن الانضواء تحت عقيدة معينة أو منهج معين لا يسمح بتحقيق الحكمة »[٢] .

لأن : « العقل... قناة الروح التعبيرية . . ألا ترى أنني صوفي عقلي »[٣] . وقد يخفى هذا الأمر على من يقرأ كتاباً

(١) المرجع السابق ، ص٢٢ أيضاً .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢٣ .

واحداً من كتب (ندرة) ، لكنه لا يخفى على مدمن قراءته وصداقته ، إنه فعلاً « زهرة اللوتس في مستنقع الضحالة والركود والتلوث »[١] ، داخل كياناتنا العربية شبه الأمية في العلم والسياسة والاقتصاد وحتى بتفوقنا على البنغال بأمية النظافة في اليد والمال ، وحتى بالصحة والطعام .

أمية تحاصر زهرات اللوتس التي تنبت من تربة واحدة - بمستنقع واحد معها - (تشترك زهرة اللوتس مع المستنقع في جذور واحدة)[٢] ، لكن زهرة اللوتس (اليازجية) هذه عبر سلالته من الكَتَبَةِ[*] ، تُقَبِّلُ بشفتيها جذام المتسلقات القذرة حولها ، وبمكانه ؛ ما كان مني سوى البصاق في وجوهها ، فليس لدي تجاهها تطهير سوى « سؤر »[**] الاحتقار .

لكن (ندرة) الزاهد دون عزلة الصوفي ودون تحزب ، الشفاف الطيب الرائع كما وصفته ، يعالجهم معالجة منهج سيدنا المسيح عليه السلام للخطاة ، ولسان

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٤ .

(*) كلمة (يازجي) تعني بالتركية المؤلف أو الكاتب .

(**) السؤر : ما يبقى في الإناء من الماء .

حالي حين أراه يفعل ذلك ، الشكوى إلى الله كما قال (القروي) :

فكم شحذوا لخدش الفضل ظفراً

وكم سنوا لنهش العرض نابا

إلهي منك أنتظر الجوابا

فلست بقارع لسواك بابا

وقفت بذلة فيه كأني

أبيع بباب سوريٍ كتابا[(١)]

ولكنها حقيقة أن : « إنسانية الإنسان التي هي اجتماعية . . تدعوه . . إلى الامتداد إلى الآخر الذي هو صورته المنعكسة . . لأن... الحقل الوحيد لزرع بذور مبادئ الإنسانية السامية . . العقل المنطقي أو العملي . . لأن . . الإنسان لا يعرف إن كان صادقاً أم كاذباً متواضعاً أم متكبراً ، حقيقياً أم زائفاً . . منفتح القلب والعقل أم متعصباً ومنغلقاً في زنزانة أناه . . إلا في الوسط الاجتماعي »[(٢)] .

---

(١) ديوان القروي ، وزارة الإعلام ، بغداد ١٩٧٣ ، ص٢٧٣ .

(٢) الصوفية هي الحكمة المتحققة ، مرجع سابق ، ص٢٦ .

أي كما قال السيد المسيح عليه السلام : «من الثمر تعرف الشجرة . . بكلامك تتبرر وبكلامك تدان»[متى : ١٢/٣٥] .

لذلك لابد من العمل حتى لا يكون «الزهد بمفهومه السلبي ، استسلاماً وخضوعاً لا مبرر له»(١) ، وبهذا ينفصل الأستاذ (ندرة) عن الرهبانية ولا ينفصل عن جوهرها ، فما كان حرياً بها مهاجمته كل هذه السنين ، وهو المجسد الحقيقي لجوهر أقوال «الفادي» ، لا لشكلية قد تخفي خنوعاً به كل المكر وتقوى زائفة ، وربما بالغ (رشيد سليم الخوري) بنقد هذا قبل (ندرة) ، لكن فيما قالاه كثير من التشابه .

قال الخوري في مدح سلطان باشا الأطرش :

ويالك "أطرشاً" لمّا دعينا
لثأر كان أسمعَنا جميعا
إذا حاولت رفع الضيم فاضربْ
بسيف محمّدٍ واهجُرْ يسوعَا
(أحبوا بعضكم بعضاً) وعظنا
بها ذئباً فما نجَّت قطيعا

(١) المرجع السابق ، ص٢٧ .

أجِـــرْنا مِـــنْ عـــذابِ الـــنّير لا مـــن
عـــذابِ الـــنارِ إنْ تَـــكُ مســـتطيعا[١]

وإذ أؤكـد للقـارئ أن هـذا الكـلام وإن كـان لا يمارسـه (ندرة) ، له فسحة عنده ، هي التي أبقته بعيداً عن الرهبانية لا سـواها ، لاعتـباره لهـا أنها انسحابية سلبية ، يقول : « إن الزهد بمفهومـه السـلبي ، استسـلام وخضـوع لا مـبرر له . . بينما . . الزهد في معناه السري . . ليس الانسحاب من العالم ، لذا تأبى الصوفية - الحكمة ، أن تعد العالم مكان غربة »[٢] .

إن عـبارة : « الصـوفية هـي الحكمـة » الـتي عنونـت هـذا البحـث ، وتتكرر فيه عند (الأستاذ ندرة) هي ترجمة لعبارة : « ثيوصـوفي Theosophy » الـتي يجـب ألا يأخذهـا القـارئ كدعـوة لمذهـب (هـيلين بلافاتسـكي) أو (سـويدنبرغ) أو الـبوذية ، أو أي مذهـب عـرفاني (Gostic) لأن الجانـب الفلسـفي بندرة أقرب إلى (Agnostic اللاأدري) المؤكد على استحالة معرفة كل حقيقة ، وبعضهم يؤكد استحالة معرفة ولو حقـيقة واحـدة ، ألـم يطلـب « أرخمـيدس » من الآلهة أن تزوده

(١) ديوان القروي ، مرجع سابق ، ص٣٠٩ .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٢٧ .

بيقين واحد فقط ، ليبني عليه كل العالم ، وقد ظنه (ديكارت) بالكوجيتو (Cogito Ergo)[١] ، فهل يعقل أن يظنه الأستاذ ندرة بالثيوصوفية دون أن يعلمنا بذلك ؟ !

أظن في هذا تجنياً على فكره الحر من قيود كل دوغمائية ، وهو الذي أنشأ منذ ميعة صباه حرباً على الإيديولوجية التي ورثها بحكم الولادة والبيئة ، وهي الأقوى من التي يقع بسواها ، فقط لتشابه استعماله لمصطلح : « الصوفية - الحكمة » الذي رآه يقرب قراءه من أفكاره حول العلم والفلسفة والزهد والمصير ، التي تحقق (الغاية النهائية لوجود الإنسان على الأرض ، وخلاصه وانعتاقه من إشراطات التعددية المذهبية والعقائدية)[٢] ، ويمكنني أن أضيف أن الأسوأ من كل هذا هو الواحديةُ التي تدعي التوحيد ؟ والتي وقعت بها كل الإيديولوجيات التي أرادت أن تجعل من التنوع البشري نمطية واحدة ، فشكلت بحد ذاتها إيديولوجية جديدة زادت من التعدديات ، نجدها في المثال الهندي عند السيخ ، وفي المثال الشرقي بالباطنيات التوحيدية ، وبالمثال المسيحي بالبروتستانتيات ، وحتى بالمثال الشيوعي بالتروتسكيات والماويات والستالينيات واللينينيات . . وهكذا لا تكاد توجد

---

(١) انظر كتابي ، دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٢٨ .

إيديولوجية قاومت تفرعاتها إلا وشكلت دوغمائية من أمقت ما يكون ؟ !

فلكي لا يقع قارئ (ندرة) بظن أنه يدعو إلى الإيديولوجية الثيوصوفية التي تلعب بكل أوراق التراث الإنساني بخلطه بين (القبالة) اليهودية في اسميه « نومينالية Nominal » ككمون معاني الأحرف ببعضها ، وبين عبارات العرفان المستحيلة ، وتحويرات الفلسفة إلى حكمة ، وسيطرة المركز على الأتباع بالدعوة « الرواقية » إلى تحمل الحياة كما هي ، وخلط كل هذا بالبوذية الهندية والطاوية ، لكي لا يقع قارئ (ندرة) بكل هذا لأنه يستعمل بعض المصطلحات المتشابهة مع كل هذا ، أجد من واجبي كصديق قديم له أن أبرز فرادته ضمن حشد هذه المصطلحات ، وذلك بتعريف القارئ بما يدخل في الشبهات منها ، ولنبدأ بالرواقية ، التي بها كل ما يشير إليه (ندرة) من إدانةٍ (للانفعال المرافق للرغبة والتعلق ؟)[١] ، إضافة إلى عقلانية يريدها جزءاً هاماً من كل تصوف ؛ لأن (الصوفي - الحكيم هو الإنسان الذي يتميز بعقلانية . . لذا لا يتصف الصوفي الحكيم بالانفعال)[٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٠ .

الرواقية :

والانفعالات كرد فعل طبيعي على كل أذية ، تشكل جزءاً أساسياً من غرائزنا التي أدعو - على العكس من صديقي الأستاذ ندرة - إلى عدم محاربتها ، والرواقية كفلسفة واقعية ، لم تدعُ إلى محاربة الانفعالات ، بل إلى ضبطها حتى لا يصبح الإنسان أسير مسبقات البرمجة فيه ، حسب تعبيري المعاصر ، لأن علينا أيضاً أن نعمل على التوازن بين ما نبرمج في أدمغتنا وما فيها من مسبقات برمجة ، وهو - أي الانفعال - شأنه شأن الجنس بل الجنس جزء منه ، يجب ألا يباح إلا بين الأحبة ومع خلوات الذات للتعاون على فهم أسبابه ، إذ :

فلابُدَّ من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وإليك ما قلته في كتابي (دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة) حول هذا الأمر :

« الرومان الشعب الذي أخذ من فلاسفة الإغريق ريبيتهم ، ومن سياسييهم سفسطتهم ومن قادتهم أمثال (الإسكندر) قهرهم وغلبتهم ، لم يهمهم من الفلسفة إلا مفهوم التنظيم الذي

صاغه فيلسوفهم (القبرصي) (زينون الأكتيومي ٣٣٣-٢٦٢ ق .م) الذي ولد من أصول (فينيقية) ودرس في (أثينا)[(١)] ، بكتاب (الجمهورية)[(٢)] ، وهذا الكتاب يحمل اسم الجمهورية « كأفلاطون» لكنه من منطلقاته الواقعية هو جمهورية الواقع الرواقية ، التي أكدت على أن أساس الوجود هو التنظيم في الطبيعة وهو عند الناس بالسياسة[(*)] ، التي يجب أن تصان بقوانين المؤسسات التي تدعمها .

والواقع هو أن كل من يدعوك إلى أي رأي أو مذهب ، هو في الواقع يحرض انفعالاتك كي تنضم إلى مشاعره إذا لم تكن دعواه مستندة إلى وقائع (Facts) .

ويقول سنيكا (Seneca) : « إنَّ الأشياء تتجه دوماً نحو الخطأ والضلال ، واللوم يقع على الفلاسفة لأنهم . . لا يطورون شخصياتنا بل عقولنا فقط . . مما يجعلنا دارسين لكلمات - لا لفلسفة فعلية-)[(٣)] .

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مرجع سابق ، ص١٧٥ .

(٢) Letters from a stoic by Seneca and Meditations by Marcus Aurelius, Viking Press, N . Y . 1996 .

(*) كلمة سياسة تعني بالإغريقية : التنظيم ، لا ساس يسوس من جذر روض كما بالعربية .

(٣) Seneca, Letters frome A Stoic, Penguin Books, N.y 2004, P207 .

إن الرواقية بكلمة موجزة تحمُّلُ الحياة الفعلية (Facts) دون تذمر ، ومن غير أي أمل ثواب على هذا التحمل .

وكمثال على هذا نجد أن « أوريلوس » تحمل سلوك ابنه الوحيد (كومودیوس Commodus) في حياته ، وبعد موته ذهب ابنه إلى أبعد الحدود في اضطهاد النصارى في حلبات السباع ، لأنهم كانوا يتحملون ذلك على أمل مكافآت الخلاص ، وجلادوهم يفعلون ذلك لأن عليهم تحمل الأمر الواقع دون تذمر ، لذلك كنت تلمح على وجوه الضحايا والجلادين الابتسامات نفسها ؟ !

فإذا كان المسيحي متأكداً من ذهابه إلى السماء بعد الموت ، فالرواقي بعودة دورة السماء فوق الأرض - وبها - فكل ما حصل ويحصل سوف يكرر بالدورة الكونية مراراً أزلية ، وهذه عقيدة سنجد صداها بمفهوم (العود الأزلي) لدى (نيتشه) فيما أسماه (بالسنة الكبرى) ، وما يظنه العلم المعاصر من احتمال عود سيعقب التحطم الأخير للكون (Big Crunch) ، يقول (هوكنغ) : « لكن ماذا يمكن أن يحصل لو توقف الكون عن التوسع ، وعاد للانكماش ثانية . . هل سنرى الفنجان الذي وقع من الطاولة وكسر يعود إليها ؟ ! . . هل سنعيش حياتنا عكسياً فنعود من الموت إلى الولادة . . إن الكون سوف يتوسع ثم ينكمش ثانية طالما ليس له أطراف ولا حدود . . لكن الحياة

العاقلة لا يمكنها أن توجد إلا في عالم متوسع . . والقوانين العلمية لا يهمها ، إذا ما كان الكون يتجه نحو التوسع أو الانكماش»[١] . . الوجود العاقل لا يمكنه أن يتواجد إلا بعالم يتسع ، لكنه بعد أن تواجد هل يمكن للعالم المنكمش للكون المنكمش ، أن يسير على خطوط قطب التوسع نفسها ؟ . فإن فعل ؟ ! فكل ما في الأمر أن غداً يصبح الأمس ، والشمس تشرق من مغربها ، ليصير النسيان هو التذكر ، والسير إلى الخلف هو قاعدة إشارات المرور ؟ !

عالم كهذا كاريكاتوري كفلم يعاد مقلوباً ، إذا صار واقعاً لن نشعر به ، لأن المشاعر والفكر لا يعملان إلا بزمن يتحرك إلى الأمام ، فتموت الرغبات بمثل ذاك العالم .

وقلت أيضاً في كتابي (دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة) :

ومن لا يستطيع تحمل هذا الوجود - الكينونة - وآلامه ، أي من تغلب مشاعرُه عقله ، فلا خلاص له إلا بالانتحار ، وهذا ما مارسه الكثير من الرواقيين ، حتى صار شرفاً يهبه القيصر في الدولة الرومانية لمن يغضب عليهم ؟ !

تلك كانت آراء (سنيكا Seneca ٦٥ - ٢ق .م) ، وله قدم تلميذه (نيرون) شرف الانتحار فمات عن طيبة خاطر ،

---

(١) Abrief History of time, op . Cit, p116-169 .

ثـم تبـنى الرواقـية الإمـبراطور الفيلسـوف الروماني (ماركوس أوريلوس Marcus Aurelius ١٢١-١٨٠م) .

الرواقـية (Stoics) إذن مذهـب قال به (فينيقي) هيليني في (أثيـنا) وتبـناها إمبراطور روماني ، وضحى بحياته نتيجة قـناعاتها فيلسـوف الطاغـية - (نـيرون) الـذي اشـتهر بإحراق روما بعد ذلك - وهو (سنيكا) الروماني أيضاً[١] .

ولعـل (تأملات) أوريلوس التي حدد فيها السياسة المدنية - لـلجمهورية - المديـنة الفاضلة ، التي قال بها (زينون) وهي النسـخة الأساسية التي وضعت للمذهب الرواقي ، والتي وصلتنا عـنه ، وقـد اقتـبس مـنها (القديـس أوغسـطين) مفهومـه عـن (مديـنة الله) بعـد ذلك ، فتأثير هذه التأملات أساسي في الفكر المسـيحي الذي صارع الرواقية بشدة في الإمبراطورية الرومانية ، ففـيها نقـرأ : إن الله هـو الأب وكـل البشـر إخـوة ومواطنون في الإنسـانية لا في دولـة معيـنة ، وأن الإنسان المصنوع على صورة الله حـين يمـارس إرادتـه بتحقـيق الفضـائل يمـارس جـزءاً مـن الألوهة في الواقع ، وهذه هي حريته[٢] .

---

(١) History of Western Philosophy, op . Cit, p . 267 .

(٢) وانظر أيضاً : Ibid . p273 .

Mercus Aurelius, Meditations, Penguin Books, N .Y, 1994 .

أما الرذيلة فتؤدي إلى كثافة جسدية كما كان يقول : (بوسيدونيوس Posidonius) السوري لأنها تمنع تبخر الروح ، مما يضطرها إلى التناسخ الحيواني ، وهذا هو الجانب (الغنوصي) في الرواقية الذي لم تؤكد عليه .

ولأننا جزء محدود من الطبيعة وسنعود لننحلَّ فيها بعد الموت ، وهي أمور لا يمكننا تغييرها أو تجاوزها ، فمن الضلال الأخلاقي والخطأ المنطقي محاولة هذا التجاوز أو التغيير بالأوهام ، تلك هي أسس الأخلاق الرواقية(*) ، فكل مأساة بالنسبة إلينا هي مجرد شعور ، وهي جزء من مشاعرنا التي يجب أن نعتبرها ضالة ، أو على الأقل شاردة من شاردات العقل ، الذي عليه أن يعود إلى ضبطها ، وتلك هي وظيفته بالتلاؤم مع الوجود بقبول كل وجود .

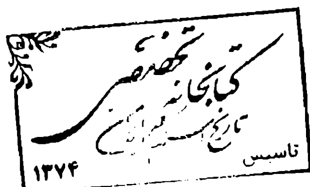
عقلانية صارمة مع قبول بالواقع إلى أبعد الحدود ، وسعادة بأن هذا الواقع كان يمكن دوماً أن يقع أسوأ منه ؟ !

لذلك قيل : كل رواقي رواقي ، وليس كل مسيحي مسيحياً ولا كل مسلم مسلماً ولا كل متدين بدين يمثله ،

(*) ولتأكيد هنا أقول : من الخير للإنسان أن يموت وهو لا أدري (Agnostic) على أن يعيش على آمال عقيدة غير واقعية ولا صحيحة .

تمثل الواعي لما يقع على رواقه من أحكام القدر ؟ ! بشكل عقلاني فلسفي بحت ، أكثر من ذلك :

أرني إنساناً منطقياً عاقلاً لا يضطر إلى شيء من الرواقية في مواجهاته مع لا معقولية الأقدار ، أو تنكر ما تعد به الاعتقادات والمبادئ أحياناً ؟ !



المصائب والمصاعب :

فالإنسان حين يواجه المواقف النهائية التي لا حل لها ، وأسميها : مصائب لا مصاعب ، لأن المصاعب قابلة للحل ، بينما المصائب تجبرك على واقع لا تستطيع إزاءه فعل أي شيء ، كأن : تفقد بصرك مثلاً ، أو تفقد حبيباً كان بالنسبة إليك صورة من صور الحق ، آنذاك يلجأ الفكر من دون أن يستشيرك إلى التأمل الفلسفي ، فوحدته التي أبعدته عن النور بالعمى مثلاً أو وحدته التي أبعدته عن المطلق ، لا حل لها إلا مغادرة هذا الوجود ، فإذا لم يستطع لقوة مسبقات البرمجة فيه أو لدافع ديني ، ممارسة الانتحار ، ولم يخدمه تعرضه للأخطار بالموت ، آنذاك يجبره التأمل على التفلسف ، فتلتقطه (الرواقية) أول ما تلتقط .

والأستاذ (ندرة) على حد علمي بأحواله التي عركتها المواقف النهائية فيه مضطر إلى الذهاب بهذا الاتجاه كما

ذهبنا ، من دون أن نبتلع كل الطعم الرواقي لأنه لا رأي ولا مذهب في الوجود يستأهل منك أخي القارئ أن يلتقطك التقاطاً كاملاً ، فلأعِد تنبيهي إليك : « إنَّ كل من يدعوك إلى أي رأي أو مذهب يريدك أن تنضوي تحت جناحه » ، وحتى ما قرأته عني في هذا البحث عن (المستية والتصوف) لا يخرج عن هذا ، قاعدة عامة لكل فكر حر ، لا لأي فكر مرهق باستحالات المواقف النهائية التي لم يجد حلاً لها ، وظن خاطئاً أن هناك واجدين ؟ !

وهذا الظن هو جوهر التقديس الدوغمائي الفارغ لرجال طالتهم الآجال ، أو هي بصدد ذلك ، تماماً كالواقفين أمام التلفاز من خبراء الصحة الذين يدعونك إلى طرق الرشاقة وبطونهم المدلاة ، تعبت من ثقلها سيقانهم حتى عند الجلوس .

لذلك أستسمح صديقي هنا بالإعلان عن استحالة وجود حكمة في هذا الوجود ، وأقصى ما يمكننا هو الاقتراب منها عبر الحقيقة والدقة المنهجية والمنطقية ، وحبها : أي أقصى ما يمكننا فعله إزاءها هو التفلسف ، لأن الحكمة كالعدل ، كالحق ، كالخير ، كالجمال ، ميتافيزيائية ما وراء هذا التواجد ، ومطلقة .

وبتعبير كلامي إسلامي : هي صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى لا نطالها إلا تصوراً ، بحبة سُبحَةٍ بها تسع وتسعون منها مشابهةً ، هي غاية ما يمكننا تصوره من أسمائه تعالى ، الحكيم المتعال .

نخرج من هذا إلى التأمل :

إنَّ كل من يشتغل بالفلسفة رواقي وغير رواقي بآن واحد ، وهو كذلك تأملي وتصوري بآن أيضاً ، فلنستعرض أول من قال بالتأملات لنرى موقعنا والأستاذ ندرة في هذا الجانب من البحث عن الحقيقة :

فالتأمل كما شرحه (مارتن هيدغر) بأنه كل استغراق نقوم به بأي موضوع يثير اهتمامنا ، فتنقطع علاقتنا بباقي الموضوعات حولنا ، كمن يستغرق في إصلاح أو جمع أجزاء جهاز قام بتفكيكه مثلاً ، وفي أثناء هذا الاندماج أو الاستغراق بالموضوع الذي يعالجه أو يصلحه أو يجمعه أو يفككه أو يفكر فيه تجريدياً (تحل اللاشيئية على كل الوجود خارجنا ؛ خارج ما نستغرق فيه)[1] ، لذلك كانت قصص الحب خطيرة

---

(١) Martin Heidegger, Existence and Being, Regnery/Gateway INC . Indiana 1979, p360 .

على تواجد المحبين ، وحتى لا يذهب ذهن القارئ إلى أن الاستغراق أو الاندماج بالآخر هو عمل جنسي أو غرامي فقط ، لابد من لفت نظره إلى أهمية هذه الغريزة الاستغراقية في كل ما نتوجه بكل حواسنا له أي نحبه ، فقد يحب المهندس فراغياته الرياضية ، والفيزيائي مجهرياته والفيزيولوجي عضوياته ، وقد يحب أو يقع المرء - مثل الشاعر بليك - بغرام الشجر ، و(كوخ) بغرام اللون الأصفر . . إلخ ، فللحب ألف وجه غريزي مطبوع - مسبق البرمجة - في جبلة كل شخص يختلف عن سواه ، لكن الكل يشتركون بالاستغراق والاندماج فيما يحب واحدهم ، وهذا الاستغراق - الاندماجي - في هذه المحبوبات هو : التأمل أي الشعور بالوجود من خلال تواجد معين .

وقد مارسته البشرية قبل أن تعرف محتواه ؛ فظنته إلهياً ، لهذا كان الانقطاع فيه عن الأشياء الأخرى خارجنا مما يقرب تواجدنا (Being) من تواجد آخر نلمح فيه كل عظمة الوجود (Existence) ككل ، ومن هنا برز الظن بأن العالم الأصغر ، أي التواجد (Being) ، يضم كل العالم الأكبر أي الوجود (Existence) ، بما يتلاءم مع رغبة كل منا بأنه جزء هام من هذا الوجود ، وليس هامشياً فيه ، كغريزة نشأت عن تأمل الذات مهما كان متقطعاً طوال فترة الحياة ، كذلك نلحظ

زيادة الأنانية في الإنسان مع تقدم عمره ، وما عليك سوى أن تقارن طفلاً يبالغ في مستحوذاته ومدى قبوله بالآخر ، مع فارق الدرجة والتعقيد ، لكن من الناحية الأخرى ، بغض النظر عن الأسوأ والأحسن هنا ، نجد أن الإنسان كلما تأمل ذاته اكتشف ما بذاته ، أي كلما اكتشف فيها « طاقات وقدرات »(*) ، كان (أرسطو) يعتبرها تعبيراً عن « وجود بالقوة » لا يصبح « فعلاً » إلا حين اكتشافه ، وعلم الوراثة خير معين على إيضاح هذا الأمر اليوم بين الصفات الوراثية الظاهرة والصفات الوراثية المحمولة ، حيث تعكس الأولى شكلنا وسلوكنا الواعي ، وتعكس الثانية مسبقات البرمجة فينا ، التي سماها تاريخ علم النفس مع (فرويد) وأمثاله باللاشعور ، والأفضل تسميتها المعاصرة في علم النفس مع (كارل روجرز) بقوى (تفعيل الذات Self - actualization) .

وهذا ما أعجبت به (الهندوسية) في الهند منذ فجر التاريخ دون أن تحلل محتواه عملياً ، فعزت هذه الطاقات والقدرات التي يظهرها سلوك البعض حين المواقف (بالفعل) إلى تجربة - تجارب - حياتية سابقة سمتها تناسخات أي حلولات في جمادات ثم في حيوانات ثم في

(*) فلسفة التصوف .

بشر ، فإذا وصلت التناسخات إلى حد البشرية تكون قد قطعت طريقاً طويلاً في التطهير ، فتحتاج إلى تقمصات بشرية عديدة قبل أن تصبح كلية كونية تخلص من دورية التواجد للوجود « والحق أن هذه الصوفية العقلية بددت ظلام حياتي . . وفي مرحلة حياتي الحاضرة - وهي المرحلة الأخيرة - تحققت صوفيتي العقلية في مثالية الصوفية - الحكمة التي أصبحت الطريق الذي يصلني بالحكمة الكونية والوعي الكوني ، والحقيقة السامية »[(١)] ، ومما يؤيد (وجود حقيقة كونية شاملة واحدة)[(٢)] ما وجده الأستاذ ندرة (في مؤلفات الحكمة القديمة المتصلة بالحكمة الكونية . . أمثال إخوان الصفا ومؤسسي هيكل دلفي الذين احتفظوا بسرانية هذه العلوم)[(٣)] .

كذلك يمكنك أن تجد هذا قبل كل هؤلاء بالهندوسية وما تبعها من بوذية ، يعدان مصدر هذا الفكر السراني التقمصي .

فمن واجبي حين أعلق على (ثيوصوفيا) الأستاذ ندرة أن أبرز خلفيات هذه الأفكار ، شرط أن ينتبه القارئ إلى ما قاله

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٩ .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٦١ .

(٣) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

الأستاذ ندرة عن منهجه بأنه لا يمت إلى ظل عقيدة واحدة، قال:

« الصوفي الحكيم في تحمله وتسامحه لا يدعي التصوف في ظل عقيدة واحدة، أو وجهة نظر واحدة، هذا لأن الانضواء تحت عقيدة معينة أو منهج معين لا يسمح بتحقيق الحكمة والوعي إزاء الآخرين.. وهكذا تدرك عدم وجود أنواع من الصوفية.. الصوفية حكمة تؤلف التعددية والتنوع في الوحدة »[١].

وخلفية هذا تجده في (الهندوسية) التي شرحتها في كتابي (الإسلام ليس إيديولوجية)، حيث قلت عن (الهندوسية) الشرح التالي:

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨، وإذا سمح لي الأستاذ ندرة تعديل عنوان بحثه أقترح أن أضيف إلى عبارة « منظور جديد » في العنوان، عبارة: منظور جديد لآراء قديمة، فيصير العنوان:

الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة (منظور جديد - لآراء قديمة).

الهندوسية Hindusm (*)

الهندوسية ديانة تقمصية شأنها شأن كل الأديان من شرق آسية حتى المحيط الهادي ، وكما لم تحدد ما تعنيه بالتقمص كذلك لم تحدد ما تعنيه بالحقيقة التي يسمح دينها بتبنيها من باقي الأديان والمذاهب "Embrace truths" ، وبسبب هذه اللاتعيينات أي الغموض المتروك لكل "هندوسي" تفسير دينه كما يشاء ، وفي ضوء ما يراه من وقائع جديدة يمكنه إدخالها في صلب معتقده فوراً ، وبسبب استسلام الهندوسية السريع للنقل فيها إلى العقل إذا صح التعبير ، ولعدم المطالبة بأي جهد فلسفي لأي تحديد للحقيقة التي تركت للمعايير الذاتية التي تشبه مواقف "السفسطة" إلى حد بعيد ، نجد حوالي سبع مئة مليون "هندي" يدينون بهذه الديانة ، التي تريح العقل من عناء التجربة الفلسفية ، والنقل من التصلب الدوغمائي من أجل عدم المواجهة الإيديولوجية ، لا من أجل الخلاص من التعصب بل للخلاص من أي مستمسك ضدها .

(*) سبق الحديث عن الهندوسية في هذا البحث عن الميستية والتصوف في الهند ، ص١٣٤-١٣٨ ، لإظهار من تأثروا بها في العالم الإسلامي خلافاً للقصد من شرحها هنا .

لذلك يصعب على دارسي الأديان إعطاء أي تعريف جامع مانع للهندوسية لكثرة تنوع الاعتقادات فيها ، والتي تتراوح بين توحيد الله وتعدد الآلهة ، وحتى عدم الاعتقاد بالله أو الآلهة عند آخرين(١) .

لذلك يمكنني أن أدعي أن الهندوسية أقرب إلى القومية منها إلى الدين ، وإلى السفسطة منها إلى الفلسفة ؛ لأننا في كل نتاجها الأدبي الغزير لا يمكننا أن نعثر على ركن أساسي تتمحور حوله هذه العقيدة الدينية ، إذا صح تسميتها بالدين ، وعلى الرغم من أن "الفيدا Veda" التي تعني الحكمة ، والتي كتب معظمها في زمن معاصر للمسيحية – قبل حوالي ألفي سنة – لا يستطيع أحد حتى "البراهمين Brahmin" أن يفهم مقصودها ، رغم أنهم يحفظونها عن ظهر قلب ، وهو أمر شبيه إلى حد بعيد بالتسمية ذاتها في التراث الفاطمي لكلمة : حكمة ، ولا تعني كلتاهما ، أي موضوع منطقي يمكن فهمه ، مع فارق أن "الفيدا" متوافرة للدارسين لا متخفية وراء حجب القداسة التي لا يوجد فيها شيء مفيد ، بينما فائدة "الحكمة" طبقية بحتة(٢) .

---

(١) Hopkins. The Hindu religious tradition, Wadsworth, CA 1971.

(٢) Ibid.

ولعل كلمة "هندي" المشتقة من الفارسية - هندو أوربية - كلغة أم لأكثر من مئة مليون إنسان في شمال الهند - اللغة الهندوإيرانية- هي التي أعطت لمزيج معتقدات هؤلاء الناس صفة الهندوسية كدين[١] ، و"للفيدا" صفة الحكمة كنوع من الاحترام والشعور بالأهمية لهذا العرق المتميز من الأعراق البشرية ليس إلا (الآريين) .

على ألا يفهم القارئ من كل هذا أن الأدب الهندوسي مقتصر على "الفيدا" ، فهو - نظراً لقبوله بكل تنوع - يعكس صفة الغزارة بالإنتاج ، رغم انتشار الأمية بين معظم الهندوس ، وقلة من يقرؤه لما به من تعليمات متناقضة تعكس ما أشرنا إليه من تنوع .

ولعل تاريخ الأدب الديني الهندي يتجلى بشرائح اعتقادات مضاف بعضها إلى بعض على مر العصور ، دون أي إلغاء لأحدها على حساب الآخر الجديد ، وكأننا هنا إزاء ثقافات متراكمة كأوراق كتاب في كل صفحة نص مختلف عن الآخر ، وهل في الحضارات - كل الحضارات القديمة - أقل من هذا ؟ !

فبدلاً من أن تتخفى الحضارة المغلوبة بتفسيراتها الخاصة

---

(١) Encyclopedia International, lexicon puf 1979, vol 8, p445.

للحضارة الغالبة دينياً ، بما يشبه ما يسميه التراث الإسلامي : بالتقية ، وتظل تدعي الانتماء للغالب وهي تغالبه سراً كما في الشرق الأوسط مثلاً ، مما أفرز كل هذه الأديان والمعتقدات المتناقضة ، نجد الهندوسية في تقلب الأحوال - لا الدول - عليها كما في غرب آسية ، تكتب نصوص حضارتها المتباينة بحد ذاتها بمنطقة بها قبائل وشعوب مختلفة كالشرق الأوسط .

وبعبارة أخرى يشكل الدين الهندوسي بهذا المعنى ترتيب تاريخ حضاري – اعتقادي – متسلسل "Chronological" للهند ، قبل تعرضها لأي ضغط "إيديولوجي" خارجي بعده .

فهو يتضمن من أقدم الترانيم للآلهة البشرية إلى النصوص الصوفية التي تبحث عن الله التوحيدي ، وما بينها من كيفية الحياة اليومية بتفاصيلها حول كيفية اختيار الطعام الصحي ، وسوى ذلك من ملاحظات حياتية دقيقة .

و"الفيدا" التي أدخلها إلى الهند مجموعات من الغزاة "الآريين" لم تطالبهم بترك كل هذه المعتقدات ، بل كان هم كتابها الأوائل "الآريين" Aryans ترسيخ سيطرتهم العرقية – البيضاء – على الهنود – السمر - بدعوى أنها وحي إلهي يرسخ الفوارق الطبقية العرقية ، إذا صح التعبير ، فدخل هذا الغزو الأول للهند في صلب الهندوسية ، وقد استقطبت

الهندوسية التوحيد الإسلامي أيضاً مع الغزو الثاني للهند على يد "المغول" ، وهي تحاول اليوم استقطاب العلوم الغربية ضمن الدين الهندوسي ، منذ الاحتلال الإنكليزي الأخير للهند إلى مشاريع العولمة اليوم ، على ألاَّ ننسى محاولات استقطابها للشيوعية مع اشتراكية "نهرو" ، قبل العولمة اليوم بيوم .

وعلى هذا الأساس ولترسيخ السيطرة "الآرية" كان لابد من التمييز العرقي ، الذي أدخل مع "الفيدا" إلى روع السكان الهنود الأصليين – السمر – أنهم سلالة بشرية منحطة ، فغرس منذ البداية عُقدَ نقص ما زال الهنود إلى اليوم – شأنهم شأن كل العالم الثالث – يعانون منها ، مع فارق أنها غرست داخل الهندوسية – دينهم الرئيسي – من خلال طبقية لا يمكن حتى للتقمص تجاوزها بسهولة ، عبر "الأكوار و الأدوار" حسب "دوغماهم" .

وعلى هذا الأساس الاعتقادي خضع الهنود الأصليون الذين كانوا يسمون أنفسهم : "درافيديانس Dravidians"[١] ، وقبلوا أن يشكلوا طبقات منحطة في خدمة "الآريين" .

---

(١) Ibid.

الثيوصوفية والهندوسية

على أن يلاحظ القارئ محاولة تكرار هذه التجربة مع (الثيوصوفي) الكولونيل - المقدم في الجيش الأمريكي - (أولكوت) الذي رافق السيدة (هيلين بلافاتسكي) في استقرارها بالهند في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ، من منطلق تراثي مهدت له الاعتقادات الآرية الراسخة في الهند ، والتي ساعدت المستعمر البريطاني قبل هذا ، من خلال الخضوع لكل القادمين من الشمال الأقصى ، واضعين إياهم على رأس طبقة اللاهوتيين أي "البراهمين" ، الذين يقومون بشعائر "الفيدا" التي استقدموها معهم أو ألفوها من أجل سيطرتهم ، وآلهتهم عبارة عن قوى طبيعية إذا خضعوا لها تتوقف عن إيذائهم ، تماماً كما توقفوا هم عن إيذاء "الدارفيديانس" بعد أن خضعوا لهم ، من منطلق طبيعة العبادة في فجر الحضارة الإنسانية القائمة على الخضوع لكل القوى التي يعزى إليها كل مصيبة تصيب الإنسان ، فإذا أصيب الإنسان بالحمى فإله الشمس غير راضٍ ، وإذا أصابته البردية فإله الليل غاضب ، وإذا وقع له نحس ما فبسبب "براهما" ما ، يعرف كيف يهيج الآلهة عليه ، لذلك تداخل إرضاء الآلهة مع إرضاء خدامها "البراهمين" ، وبذلك أوجد "الآريون" لأنفسهم

وظيفة اجتماعية – إبريشية – رفيعة ، وعاشوا متطفلين على الهنود الأصليين الذين يقدمون لهم كل الخدمات اليدوية ، التي اعتبروها نجسة لا تتلاءم ووضعهم الاجتماعي الرفيع ؛ لذلك لا يمارسونها ويمارسها خدامهم ! ووظيفتهم الأهم ، بهذا المعنى هي ترتيل شعائر "الفيدا" ، التي من خلالها يضمنون توازن العالم بإرضاء الآلهة ، والتي يتواصلون معها عبر دخان الأضاحي ، وهكذا ترضى الآلهة ويبقى النظام "نوس" مسيطراً لا الفوضى "كايوس" – حسب تعبير الإغريق – وبلغة الهنود "ريتا" هي النظام "Rita" التي تقتل الفوضى – شيطان الفوضى – "فريتا Vrita" ، وهكذا يحصلون على الصحة والغذاء الوفير والطمأنينة نتيجة النظام ، وهو هدف "الفيدا" حسب بعض الشروح ، كهدف عملي في هذه الحياة ، أما ما بعدها فغامض في نصوص "الفيدا" الأصلية إلى حد بعيد .

ولعل الفكرة المتسلطة "Obsession" على الآريين كانت الخوف من انتفاضة "Dravidians" عليهم ، لذلك ركزت "الفيدا" على "اليوغا Yoga" بتحويل البحث عن الحق نحو الذات ، لا بأخذه من الآخرين ، فظهر هذا المطلب التأملي الذاتي من البراهما للناس والعكس ، من أجل الخلاص من العودة التناسخية في أشكال حيوانية خطرة إذا لم يفعل المؤمن ذلك ، أي إذا لم يطالب بحقه من الآخرين فتغضب

"الكارما Karma" أي طاقة الحياة فتمنعه من التقمص وتعاقبه بالتناسخ .

لذلك إذا وجد الإنسان نفسه بمكان منحط طبقياً ، فعليه أن يسأل نفسه ما فعله في حياته السابقة ، من خلال تأمل ذاته : "يوغا Yoga" لا أن يسأل المجتمع ، ولا حتى الظروف الاقتصادية والاعتقادية التي تقوده إلى الانحطاط ؟

فلا يمكن الفرار من دورة التناسخ "Samsara" الأزلية إلا بالتأمل العميق للحق في ذات كل فرد ، وخاصة حول الثوابت التي فيها إزاء المتغيرات التي واجهها في حياة سابقة لا في هذه الحياة ، ففي داخل كل فرد جانب خالد ، يمكن أن نسميه بالروح أو الذات "Atman" .

وهذه الذات التي تركز "نصوص هندوسية" كثيرة على أنها جوهر لا يطاله الموت ، قابلة لتكرار دورة الحياة بصفات – هويات – مختلفة ، فمهما كان سجن جسدها فإنها تتعرف على ذاتها بالوعي الذاتي "Yoga" ، الذي ينسجم مع الطاعة "للبراهما" والخضوع للنظام ، وبذلك فقط يمكن الحصول على المعرفة من تجارب الذات السابقة ، شرط قطع العلائق مع كل الحاجات الخارجية للجسد "Patanjali" ، وفي قمة هذا القطع تتوحد النقائض أمام القاطع في "اليوغا" فيدرك الشخص هوية

"البراهما" فيه ، ليصبح "هو هو" متحرراً من كل ما هو مادي ، وهكذا يخلص الطالب من دورة "التناسخ" إذا مات[١] .

"اليوغا" إذن استبطان تأملي للإيديولوجية الهندوسية ، مصحوب بنظام فيزيائي للسيطرة على فوضى الأفكار خارج هذا الإطار الدوغمائي ، وتعني عبارة : "يوغا yoga" ضبط الفكر ، وتقصد ضبطه بالإطار الهندوسي ، آنذاك يحصل الانسجام بينه وبين الجسد ولا يتعارضان ، ومن أجل هذا التناغم على الإنسان أن يتوجه باهتماماته نحو ذاته لا نحو العالم الخارجي بعيداً عن المشتتات الحسية ، فإذا استطاع الإنسان الخلاص من هذه المشتتات ، يخلص من دورة التناسخ بعد موته ، وهذه التقريرية تعزز بتقريريات أخرى مثل : إن الذات Atman في حال هذا اللاانتماء إلى المحسوسات تتحد بعد الموت مع الكيان الكلي الكوني الذي يسمونه "Brahma" ، وبذلك يصبح الفرد مطلقاً دون بداية ولا نهاية ولا دورة تطهيرية تناسخية ، مادام الشر في وجود كل كيان روحي في مادة ، واحتباسه بها عبر دورية لا نهائية في كل "كور ودور" إذا لم يمارس "اليوغا" .

(١) Mircea Eliade, Yoga, Imortality and freedom, Princeton university press, NJ1969

ويمكن تلخيص تعاليم ممارسة "اليوغا" التي تقود إلى الخلاص ، إذا صحت تقريرياتها السابقة بما يلي :

١- بالتأمل الذي يبدأ بالدهشة من الذات حين النظر العميق في محتوياتها ، ثم بغواياتها وما فيها من تشتيت لصافي كل تأمل ، كي يصل المتأمل بعد ذلك إلى قطع علائقه مع كل ذلك .

٢- ولأن للعقل ثلاث وظائف – كما يقرر البراهما – وهي : الإدراك والحركة والسكون ، فإنه يجب تنقيته بممارسة الخفة والثقل وهو ما يعرف بالطيران ، أي القفز وأنت جالس لا أكثر ولا أقل .

٣- يجب النظر بكل ما له صفة كيفية لا كمية ، لذلك يجب توجيه الفكر حين "اليوغا" نحو الخير وعدم التمييز والتصحيف للآخرين "Discrimination" ، وذلك بتركيز الفكر على كل ما من شأنه تحليل أفكار تتعلق بالنعمة والإدراك الذاتي ، وكل ما من شأنه إيصالنا إلى المفاهيم "Concept" .

وأخيراً يجب الانتباه إلى معيقات ما ذكرنا وهي تحديداً : المرض والتراخي والشك وعدم الاهتمام والكسل وكل رأي خاطئ متصل بالأمور الدنيوية – المادية – وكل ما من شأنه

تشتيت الانتباه في أثناء "اليوغا" ، لذلك على الإنسان الذي يمارس "اليوغا" التحلي بالصبر إزاء هذه المعيقات بذهن لا يبالي بالمزعجات ، فلا يتحول عن موضوعات تأملاته .

إن تقانة "اليوغا" بهذا المعنى هي من أجل التناغم بين الفكر والجسد ، وعدم خضوع الأول للثاني ، وذلك بتطوير قوى التركيز عند الممارس للسيطرة على الجسد من جهة وعلى تشتت الفكر من جهة أخرى ، لذلك كان لابد من "التقشف Asceticism" وقطع العلائق مع الماديات نهائياً لكل من يريد ممارسة "اليوغا" ، بهدف الوصول إلى هوية واحدة مع البراهما ، الكيان الكوني الكلي ، وتدمير دورة التقمص التي سيتعرض لها بعد الموت .

اليوغا إذن جزء أساسي من عقيدة تقريرية – هندوسية – قديمة ، تقبل كل الأفكار ، لكنها ليست نادياً رياضياً يمارس فيه ضبط النفس – في غرف مغلقة قد تؤدي إلى تبادل الأمراض – ولا هي عملية قفز عجائبية تخرق قوانين الجاذبية ، بل هي بكل بساطة شعيرة دينية هدفها الأول والأخير ترسيخ هوية اعتقادية تناسخية ، وشأنها شأن أي شعيرة دينية في أي دين آخر تسعى إلى تثبيت هذا الدين ، بتوجهاته الفكرية والعاطفية نحو سلوك بدني جسدي يؤكد ويرسخ هذه

التوجهات ، إنها بعبارة أخرى ضربٌ من ضروب الصلاة عند أتباعها ، وتدعي أن من يفهمها بشكل تام يمكنه أن يصل إلى ضبط النفس والطهارة ، بل التفوق على كل المخلوقات – التي لابد أن يمر الإنسان بتجارب تناسخية فيها حسب دوغماهم – كي يتوحد مع العليم الخبير البراهما(*) – أو العقل الكلي أو الوجود الكلي إن شئت ، فيخلص من دورية التناسخ ، ويعود إلى الكلية الكونية .

أما الجزاء المباشر لممارسة التأمل في اليوغا فيأتي من الكلية الكونية هذه على شكل طاقة "karma" تجعل من يمارس اليوغا يحس بها ، وهي طبعاً نتيجة ما نعرفه اليوم من ظهور موجات "ألفا" عند كل تأمل ، ويذيلها طبعاً كل سلوك غريزي – مسبق البرمجة – إذا سمح له صاحبه بالبروز ، كالنقزة نتيجة صوت انفجار ، وأنت تمارس "اليوغا" ، أو أي شيء يوقظ غرائز حب التملك والبقاء أو أي تفكير جنسي ، يحول التأمل من قشرة الدماغ إلى ما تحت المهاد ؛ لأن مركز

(*) البراهما هنا أصبح يعني الوجود ككل لا الراهب الزاهد وحده، وهنا تبدو إشكالية اللاتحديد الهندوسية كمثال ضمن أمثلة أخرى كثيرة، فمرة يتحدثون عن البراهمان كراهب ومرة عن البراهمان كبراهما – كوجود كلي ينحل فيه كل فرد بعد اجتياز تناسخاته التطهيرية.

التأمل هو في العقل الحديث وكل ما يوقظ العقل القديم من "المهاد" Thalamus" إلى ما تحت المهاد "Hypothalamus" يحرك الغرائز ، فتزول نشوة التأمل .

ولما كان ما يعقب كل سلوك غريزي إذا أشبع استرخاء نتيجة مادة "الدوبامين" المكافئة ، ظن الهندوس أن الجنس يزيل الطاقة التي يحصلها الإنسان نتيجة التأمل ، وتسرب هذا إلى كل الطب القديم والطب العربي بصورة خاصة ، فقال : ابن أبي أصيبعة عن (ابن سينا) حين مرض المرض الذي توفاه الله به ، قال : « ونقل الشيخ كما هو إلى أصفهان ، فاشتغل بتدبير نفسه ، وكان من الضعف بحيث لا يقدر على القيام ، لكنه مع ذلك لا يتحفظ ويكثر التخليط في أمر المجامعة »[١] ، وقال الجاحظ : « وزعموا أن أقصرها أعماراً العصافير ، وأن أطولها أعماراً البغال ، وأن العلة في طول بقاء البغل قلة — انعدام — السفاد ، وفي قصر عمر العصافير كثرة السفاد ، وأن مما يثبت هذه ما يعمم الخصيان من طول العمر ، ويعمم الفحولة من قصر العمر »[٢] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م، ص١٣.

(٢) الجاحظ ، رسالة التربيع والتدوير، دار صعب، بيروت، ص٣٨.

ورغم أن الطب العربي القديم قد أخذ أول ما أخذ عن "أبقراط" والإغريق ، إلا أن هذه الأفكار الثابتة بشأن المجامعة وضرورة حفظ المني :

احفظ منيك ما استطعت فإنه
ماء الحياة يراق في الأرحام

قد جاءته من الهندوس وليس من الإغريق ! ؟ يقول أرسطو : « إن الطمث الذي يعرض للنساء فضلة . . . والمني أيضاً فضلة ، ولذلك يكون خروجهما من مكان واحد »[١] .

والفرق واضح بين نظر الإغريق للمني كفضلة من الفضلات ، وبين اعتباره ماء الحياة كما نقل العرب عن الهندوس ، الذين كانوا يعتبرونه من نتاج ما يجمعه المتأمل من الطاقة حين ممارسة "اليوغا" على شكل نشاط "الكارما" .

والفكر الهندوسي الذي وجد سبيله إلى كثير من التراجم العربية ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر : "ابن المقفع" ، قد أنعش إضافة إلى ما ذكرناه من مفاهيم طبية خاطئة حول الجنس ، أنعش الزهد بالجنس ، والتبتل على أنه – الجنس –

---

(١) أرسطو طاليس ، أجزاء الحيوان ، يوحنا البطريق ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، عام ١٩٧٨م ، ص٢١٣ .

أمر مضر طبياً ، فانتعش في العقائد القبل إسلامية وخاصة التقمص والتناسخ التي كان يقول بها سكان ما بين النهرين وبلاد الشام منذ فجر التاريخ ، مطلع الألف الثالث قبل الميلاد منذ عصر أوروك[١] ، حتى عبادة الإله "تموز" عند "السومريين" والذي ما زال يحمل اسم شهر "يوليو" في هذه البلاد ، وبعده شهر "آب" أي "أغسطس" ، وكلمة : "آب" بكل اللغات السامية تعني عاد ، حيث يعود الإله "تموز" في النصف من "آب" حين يصبح الصيف في نهايته كما في القول العامي المأثور : « إذا نصف آب الصيف عاب » ، و« تموز كصياد سمك هو أحد أشكال ظهوره ، الذي يعلل بطبيعة الحال صلته الوثيقة بالماء »[٢] أي الحياة ، والمهم أنه مع تطاول الزمن « أخذ الإله "شمش" – شمس – جميع صفات إله يموت ويبعث من جديد – كل يوم – أي صفات الإنسان الإله "تموز" »[٣] ، وظل الفن الشعبي في بلاد الشام والعراق يربط في أساطيره ومعاني كلماته بين "بعل" الإله وتموز الإله ، فحين يعود تموز ليتقمص صورة من صور الطبيعة أو إنساناً حاكماً قوياً ، أي حين يؤوب

(١) أنطون مورتكات، تموز، دار المجد، دمشق ١٩٨٥م، ص٢٧، وتأمل صلة بطرس الرسول بصيد السمك.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٦.

تمـوز في أواخر آب تنتهي دورة الموت والقحط ، ويسقي بعل الأراضـي غـير المـروية الـتي مازالـت تسـمى بعـلاً إلى الـيوم ، فـتعود إلى الحـياة ثانـية ويظهر التناسخ بين الأحياء فيها جلياً ، والتقمص بين الآلهة والحكام ؟ !

هـذه الأسـاطير الـتي كانـت ترسـخ عـبادة الشمس في بلاد الشـام والقمـر في الـيمن والشام(*) ، اعتبرت مع الإسلام وأديان التوحـيد وثنـية يجـب القضـاء علـيها ، وكذلك فعل المسلمون الأوائل .

السـرانية

وهـنا من أسباب اختفاء هذه الأفكار بالسرانية والعزلة والتقية ، وقـد عـبر (نـدرة) عـن ذلـك بدقـة حـين قـال : « بدأت أخاف أن تـتحول طـاقتي العقلـية والنفسية والروحية إلى مقاومة سلبية . . في خضـم نـزاع داخلي ، غير مستقر ، فأنا أحيا في مجتمع يُطبقُ على قدرات الإنسان وطاقاته ولا يسمح بتحقيقها »[١] .

(*) مـثل هـيكل بعلبك كان لصنم الشمس وهران منسوبة إلى القمر وبناؤها على صـورته، انظـر: أبـو الـريحان الـبيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبع ليبزيع 'Leipzig' ١٩٢٣م، ص٢٠٥.

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٠ .

إن الخوف من الأفكار غير المألوفة للناس بصورة متداولة ، ولعل أفكار الأستاذ ندرة منها ، منذ بداية التاريخ جعل من التوبيخ عليها (Sensure) ، جذر كلمة رقابة (Censorship) بالإنكليزية ، والأسوأ باللغة العربية من (راقب) أي : شك سوءاً وظن شراً ، لكن من هو هذا الذي يسمح لهم بإيذاء الناس بظنونهم ، فيحجرون على العقل الإنساني ويمنعونه من التعبير ؟ !

ثم إذا كان الفكر يخيفهم على عقائدهم ، فبئس تلك العقائد التي يمكن للفكر أن يهزها ، يقول ندرة : « وجدت نفسي لا أطيق الابتعاد عن الصراع الاجتماعي على قيم زائفة ، كما لا أطيق البقاء في وسطه »(١) .

أما واقع الحال في كل المجتمعات الإنسانية فهو أن الأفكار التي تكبت ، إما أن تصنع طقوساً سرية اجتماعياً (Cult) ، وإما أن تظل تلح عبر الأجيال على إجابات لها من خلال الفلسفة ، وهذا بالضبط ما يلح علينا اليوم ، من مفاهيم (البراهما) وصلتها بمعنى الوجود الكلي منذ لوغوس (هرقليطس) إلى اليوم ، وتأويلات التقمص والتناسخ التي أضافتها الحضارات الناقلة - الأوسطية - لهذه

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧١ .

المفاهيم ، وسواها من المحجورات التي لا يجوز تداولها علناً ؟ !

ناهيك عن تضارب معايير الفهم لكلمة « صوفيا » و« ثيوصوفيا » ، وكل ما يمت إلى مقدمات تريد أن ترسخ قياساتها على أسس تظنها مقبولة من دون وقائع إمبيريقية (Facts) .

لكن الهدف الواحد من وراء كل هذا التصوف أي التذوق اللابرهاني لكل الحلل الصوفية والإلهية الدينية وسواها ، هو استشراف أو محاولة فهم المصير الذي سيعقب موتنا أفراداً وأمماً ، وبالنسبة إلى موت الأفراد هل هو النهاية ، كما أن موت الأمم يبدأ من حجز أفكار أبنائها ؟ !

ومن منطلقي في ضرورة محاربة موت أمتي ، ومدى تقديري لشجاعة (ندرة) في طروحاته ، حتى ولو رأيت فيها صدى لمكبوتات تاريخية من تاريخ الفكر يمنع الحديث عنها ، شعرت بألا أتركها بنصه دون عرض أسسها التي شكلتها ، حتى لا يظل صديقي (ندرة) وأمثاله من ذوي الشفافية يضمون كل الأفكار داخل كيانهم ليضموا كل العالم فيه (هكذا ، أجتمع مع الآخرين وألتقي معهم في نقطة أو

أكثر من نقطة من نقاط أفكارهم ، أو في محور من محاور معتقدهم ، هكذا بدأت أضم العالم داخل كياني)[١] ، كما كان يفعل (الهندوس) بعقيدتهم التي ضمت كل عقائد الكون ، فعرضتُ الهندوسية ، في كل مضامين السرانية التي تضغط على العقول الإنسانية الرافضة والخائفة من الابتعاد عن الصراع والبقاء فيه بآن ؟ !

لكن إياك أيها القارئ أن تظن أني أضفي الهندوسية على (ندرة) أو أي مذهب آخر ، لكنني أريد أن أريك فقط صدى تلك المذاهب في فكره ، لذلك سأحدثك عن البوذية أيضاً في تلك الأفكار ، إذ بأي حق يفخر البعض بصدى السقراطية أو المثالية أوالمادية الجدلية أو الوجودية أو التجريبية أو أي مذهب وضعي أو غير وضعي في أفكارهم ، ولا يحق لأمثال (ندرة) أن يفخروا بصدى الحكمة الصوفية الشرقية في أفكارهم ، مع نفحة رواقية سبق لي عرض صلتها بفكر الأستاذ ندرة اليازجي ، وهي من صلب الفلسفة الغربية أيضاً .

---

(١) المرجع السابق ، ص٧٢ .

البوذية :

والبوذية لم ترسخ بسبب تأملات الزن التي تنتج موجات الألفا الدماغية المبدعة فقط ، بل رسخت بالفعل القيمي الهندي القديم الذي فرض نفسه على الشرق منذ ذلك الوقت ، فعل مقاومة الإرادة(*) ، والانسحاب من الوجود نحو "البراهما" أي الكيان الكلي الكوني ، الذي جذبته البوذية نحو "بوذا" وشَخَّصَتْهُ فيه ، كي لا تسمح للمجردات الفكرية الإنسانية بالشطط خارج أطرها التي حددتها لها بهذا التشخيص ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم البوذية بعيداً عن "البروباغندا propaganda" الدعائية القديمة التي رسخت في العالم الإسلامي ، رسوخ تماثيل "بوذا" في "أفغانستان" حتى عهد قريب ، حيث قامت الدنيا ولم تقعد لنسف "طالبان" لها ، وتماثيل "بوذا" في البيوتات الشرقية كجزء من المتاع – الصيني – الخزفي والبرونزي ، حيث لا يخلو بيت عريق

(*) يجب أن ننتبه إلى أن الكارما "Karma" هي في البيولوجية ما يسميه الأطباء بالقدرة على التعويض – غير المحددة في الجسد الحي – التي تدمل وتبرئ الجروح والأسقام من ذات العضوية ، وما الطب إلا مساعدة هذه القدرة الذاتية على الشفاء ليس إلا: "Healing power" ، وهي تتجلى بالنفس بالإرادة كحماسة داخلية قوية عند معظم الناس ، الأصحاء نفسياً حسب "نيتشه" .

منها ، وإذا سألت مقتنيها قال : « لقيمة الخزف الصيني الفاخرة » ؛ ولأنني أتفاءل باقتنائها تفاؤل كل من يقتني شيئاً ثميناً ، حتى ولو لم يعرف معنى هذا التمثال للرجل السمين الضاحك والمتربع وكرشه بين يديه ، فرحاً بالوصول إلى "البراهما" حيث صار هو هي ، علماً بأن لبوذا تمثالاً هزيلاً يمثله عندما أوصلته "النرفانا" إلى حافة الموت ، لا يشيعون تداوله لبشاعة تجسيده لتدمير "الكارما" في جسد الإنسان الذي يصبح كالهيكل العظمي .

وعلى هذا الأساس أيضاً يمكننا أن نفهم البوذية بعيداً عن الأموال الطائلة التي تنفق على نشرها في الغرب ، حيث لا يخلو فندق فخم من وجود تعاليم "بوذا" ؛ Sutras في أدراج خزائن الغرف ، ومراكز البوذية في اليابان وأوربة وأمريكة الشمالية(١) تتصل مباشرة مع "الداليالاما " Dalia lama ، ممثل بوذا المعاصر في "التيبت" ، وممول حملات البوذية التعليمية أو التبشيرية عن طريق ممارسي "الزن" المسمى : "Roshi" من الذين يُدرِّسون فن استخراج موجات ألفا بالتأمل البوذي ، إضافة إلى المقالات والكتب والدوريات التي ينشرها البوذيون

---

(١) South san Francisco calif 94080 U.S.A and 3-14 shiba 4-chome Tokyo Japan.

في العالم الغربي ، إلى درجة أنك لو زرت عاصمة غربية ستفاجأ بمجموعات شقراء الرأس ، متلفحة بالإزار البوذي الأرجواني ، وهي تطبل وتزمر في شوارع "نيويورك" أو "باريس" أو "لندن" ، من دون أي استغراب أو إنكار لهذا الضجيج ، كالذي يبدونه حين يرون رجلاً يصلي على قارعة الطريق أو يسمعون همس أذان مساجدنا القليلة هناك ، حيث يمنعون مكبرات الصوت .

إن تغير الإدراك أو تبدل الوعي " Altered states of consiousness" بطرق غير اعتيادية ، أي خلافاً لتغيره بين النوم واليقظة المعتادة ، هو الذي دفع الناس منذ فجر التاريخ إلى الظن بوجود قوى سحرية في الخمور ، وبعض النباتات المنبهة أو المخدرة ، لذلك سمت العرب الخمر بالراح ، وما زالت تسميتها شائعة كمشروب روحي ، كذلك تكلمنا عن تبدل حالة الوعي – الإدراك – الإنساني بتأثير الحشائش السمية " drugs" ، حين تشوش "الإرادة كيف تسير الفكر والمشاعر" ، على ألا ننسى الاستغلال "القرنوسطي" للحشيش من قبل الباطنية الذي ذكره "برنارد لويس Bernard Lewis" بكتابه : الحشاشين[1] ، وكيف أن تغير الوعي الذي يسببه التسمم

---

(١) Bernard Lewis, the assassins, op. cit.

بالحشيش كان يدفع الفدائيين الباطنيين إلى الانتحار بقتل خصوم سيدهم .

وهذا يعني أن تبدل حال الوعي سواء كان سمياً خارجياً أو نتيجة خلل "بيوكيميائي" Biochemical في "دوبامين الدماغ Dopamine" أي داخلياً يؤدي إلى الانفصال عن الواقع " Schizphrenia" سواء هذا أم ذاك ، فإن صاحبه يظن أن له اتصالاً بالغيبيات وهو الفصام .

زد على ذلك إذا لم يكن تغير الإدراك هذا بسبب أي من الأسباب السلبية السابقة ، بل كان إيجابياً نتيجة التأمل الذي يدفع بموجات ألفا إلى الظهور "meditation" فيصبح الإنسان نشيطاً مبدعاً بسبب موجات "ألفا" مع الثيتا Theta فإذا ظن أن هذا الأمر يأتيه ولا يخرج منه ، تعلق بظن الإتيان هذا ، نتيجة الإيحاء الذاتي"Self Hypnosis" الذي تصنعه العقيدة في الإنسان وهذه غلطة أسميها : "غلطة بوذا" .

إن "غلطة بوذا" هي نتيجة ظنه أن المشاعر الإبداعية التي تركتها فيه "ألفا" بعد التأمل – والتي كان يجهلها – هي ما سماه : "بالإيقاظ" خاصة أن كلمة "بوذا" تعني المتيقظ "بالسنسكريتية"[1] ، والأصح متبدل الوعي ، فبين المتيقظ

---

(١) Etienne, L.History of Indian Buddhissim, Peaters press, louvian,1988

ومتبدل الوعي تتحرك البوذية ، والشكوك أنها حالة نفسية لا دينية إلى اليوم .

وهذا يقودنا إلى ضرورة التمييز بين التيقظ وتبدل الإدراك عند كل داعٍ لدين ما ، والمعيار البرغماتي ينطبق هنا بمعنى تناغم ثماره التي يدعو إليها مع الفطرة – الطبيعة من دون تدخل أي برمجة إنسانية فيها – أي مدى قرب هذا الدين أو ذاك من الفطرة التي فطر عليها الإنسان – دين الفطرة هو الإسلام .

ونقصد بدين الفطرة دقة التمييز بين الصلة الذاتية مع الخالق من جهة ، وبين ظن المخلوق خالقاً من جهة أخرى ، فالعقل الكلي المعبر عنه بكل قانون يحكم الوجود مخلوق من الله وليس إلهاً ، ولا هو – أي الله ؛ تعالى الله عن كل وصف – الكيان الكوزمولوجي الكلي الكوني الذي نراه في الأرض والسماء ، والذي يسميه الهنود بالبراهما ، والبوذيون : "بوذا" .

فالصلة بين الفرد والله تعالى بناء على هذا التمييز ليست صلة سيكولوجية تحكمها موجات "ألفا" ، و إلا صار كل مريض بالانفصام عن الواقع "Schizophrenia" نبياً ؟

وهذا ما وقعت به الصوفية الإسلامية في كل انحرافاتها عن الإسلام كما بدأ ، مصرة على أن الرؤى التي يسميها علم

النفس اليوم بالهلوسات ، هي حال من ضمن أحوال التصوف ، التي لم يستطيعوا أن ينفوا عنها صفة "السكر" المرتبطة بالهلوسات المجازية – الكحولية – كتبرير لكل خروج عن الإسلام والفطرة السليمة فيما يقولون أو يفعلون .

وصاحب هذه الهلوسات لا يكذب لأنه يسمع ويرى ، لكن من داخل دماغه لا كانعكاس للأشياء فيه ، فهو مريض نفسياً وعصبياً وليس ولياً من أولياء الله ، الذين وضعهم التصوف في مصاف الأنبياء وربما أعلى ؛ لأن الأنبياء ميتون وهم أحياء بظنهم الأخرق ! !

إن الصلة بين الفرد والله بناء على دين الفطرة الإسلامية صلة مباشرة ، لا حاجة لها لأي شعائر أو رهبانية تتوسطها ، أو أي بخور أو رائحة ذكية يشمها من هو مصاب بالهلاوس ، أو صور ملائكية يراها ، وحتى شعيرة الصلاة مرتبطة فقط بذكر الله الذي هو أكبر(*) ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

(*) كما كانت الصلاة المعين على تطهير الذات، في الفترات التي تفصل نزول الوحي، هي إلى اليوم أهم واجب في الإسلام، يتذكر فيها المسلم ربه دوماً، كمعين وحيد على جهل كل إنسان بالأقدار التي سيواجهها وحيداً في الواقع، متكلاً بكل إرادته على صانع هذه الأقدار، فتزول الوحدة بذكر الله، وتطمئن القلوب.

تلك هي ثمرة الدين في الدنيا، الأرفع عن كل ما لم يدرسه علم النفس عن نتائج هذه الرفعة بعد؟! ودرسه التاريخ عن خوارق أبطال التسليم الإسلامي =

وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٤٥].

فغلطة بوذا إذن هي الغلطة التي ما زالت البوذية إلى اليوم تمارسها بين ما يراه الدماغ الإنساني انعكاساً للأشياء فيه عبر الحواس ، وبين ما يراه من داخله بذاته ، إما نتيجة خلل بالدوبامين Dopamine ، أو نتيجة تصورات – دماغية أيضاً – تجعل من موجات "ألفا Alpha" مع "ثيتا Theta" الإبداعية وسيلة إلى تأكيد "الدوغما" الإيديولوجية البوذية .

وبناء عليه تشعر "الكارما Karma" التي تعني هنا قوة الحياة متجسدة بالإرادة ، بأنها ليست بحاجة إلى إله يقرر مصيرها أو يبقي أو يلغي وجودها ، خاصة أن الذات أو الأنا "Atman" أو الروح حسب أديان التوحيد – منذ الفراعنة – غير خالدة ، شأنها شأن كل ما هو موجود متحول يفتقر إلى ذاتيته الخاصة الخالدة .

وبعبارة علمية معاصرة : « إن التجاذب بين الشحنات غير المتماثلة للإلكترونات والبروتونات هو الذي يعطي الذرة هويتها ، فلو كنت ذرة ببروتون واحد فأنت هيدروجين ، وإذا كنت ببروتونين فأنت هيليوم ، وبثلاثة فأنت ليثيوم ، وبأربعة

=

الأوائل، الذين كانت صلاتهم دوام ذكر الله – دون وسواس – بشكل قصدي عند أي مواجهة مع الأقدار يومياً ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥].

فأنـت آزوت ، وبثمانية فأنت أوكسجين ، حتى يصبح بروتونك "٩٢" فـيكون اسمـك يورانـيوم»[(١)] ، فـإذا فجـرك إرهـابي على رؤوس البوذيين في هيروشيما وناغازاكي فستعود من اليورانيوم إلى سلسـلة العناصر السابقة ، مما يعني أن الهوية – الأنا – أو مـا تسـميها الـبوذية : الأتمـان ، أمـر غير ثابت لا في الحدوس الـبوذية نتيجة "ألفا" ولا في العلم الحديث ، وبعبارة "كانطية" لا وجـود للجوهر في الأشياء بمعزل عن النومن ، فإذا كانت الأنا أو الـذات أو الـروح غـير خـالدة حسـب الـبوذية ، فـإن غلطـة البوذية الثانية هي إنكار الجواهر ومن ثم خلود الأرواح ؟ !

لعـل الجـواب هـو في عـدم وجـود فلسفة نقدية في الفكر الـبوذي ، ومـن ثـمَّ في عدم وجود فيلسوف مثل "كانط" ليشرح لهـم معـنى الـنومن بعـيداً عـن الأحاديـة الجوهـرية للأشـياء والأحياء ! !

لكـن لـدى الـبوذيين تعالـيم "بـوذا" الـتي سجد لها الإله – الكلـي – الهـندي "بـراهما" بـين يـدي "بـوذا" النحـيل بالنرفانا ، راجـياً إيـاه أن يعـلمها للناس كي يتبعوا طريقه الذي يقود إلى التنوير[(٢)] .

---

(١) الكون، مرجع سابق، ص١٩٥.

(٢) Richard Gombrich, The world of Buddhism, Thames and Hudson, N.Y1984

هكذا ينتقل تأكيد خلود الروح – الذات "Atman" – في البوذية من التساؤل الفلسفي الهام حول استحالة خلود أي جوهر لأي شيء ، إلى تأكيد هذه الاستحالة قطعياً بالأسطورة لا بالفكر ، فيتدخل الإله الكلي "براهما" الذي سيفقد هو الآخر جوهره ويصبح "بوذا" راجياً هذا المتنور أن يشيع تعاليمه ويقطع صيام "النرفانا" ، لأنه بهذا التواصل قد وصل إلى صلب الحقيقة ، فلا داعي للتأمل "يوغانرفانا" الذي لا اشتهاء فيه بعد ذلك ؟ !

فإذا كان بوذا كما يقول "جاسبر" : (لا يعلم منظومة معرفة ، بل درباً يقود إلى الخلاص)[1] ، فلماذا بنى كل نظرياته للوجود والخلاص على تساؤل معرفي يشكك بالجواهر ؟ !

ثم كيف يمكنني السير بأي طريق للخلاص أو للجحيم دون أن يكون لدي ولو احتمال صدق وحقيقة "plausible" توجهاته ؟ !

أليست حقيقة "بوذا" التي هو متيقن منها ، أن الحياة كلها ألم بسبب الإرادة ، لذلك لا يمكن تجاوز الألم إلا بتجاوز الاشتهاء ، (فالعالم كله ملتهب بنار الرغبة ، بنار الكراهية

---

(١) كارل جاسبر، فلاسفة إنسانيون، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٨م، ص٦٩.

بالولادة ، بالعمر ، بالموت ، بالألم ، بالحسرات ، بالعذاب ، بالهموم ، باليأس)[١] .

ولولا تيقنه من هذه الحقيقة لما لجأ إلى "النرفانا" ، فلماذا لم يحاول لا بوذا ولا البوذيون من بعده التيقن من إشكالية الجوهر قبل أن يعلنوا استحالة الأنا ؟ ومن ثمَّ استحالية القانون الأساسي الذي يحكم كل مقولات ومنطق الوجود ، أعني قانون الهوية .

هذا القانون الذي تجنب كل الفكر الشرقي الإقرار به حين ثُبِّتت مفاهيم التقمص والتناسخ ، وكأن الشرقي – والبوذي لم يخرج عن هذه القاعدة – يريد أن يقول لي : أنا لست أنا وأنت لست أنت ، ولا داعي لأي معرفة بالمقولات المنطقية ولا بقوانين العقل الكلي الذي يجب علينا الذوبان فيه ، وتعالوا بلا أي منظومة معرفية نسعَ إلى درب الخلاص نحو الوجود الكلي ، الذي بقليل من المعرفة العلمية عنه ، نعرف اليوم أن كوننا هذا بكل عجره وبجره مجرد عينة منه ؟ !

تعالوا إلى النور وهو "نوفا وسوبرنوفا" ، وتعالوا إلى علم العناصر وهي مادة تدمر مضاءاتها ، وتعالوا إلى المجهول من دون ترقب "Dread" ولا هموم أو غثيان "La Nausee" ؟ ! .

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧.

هل الخلاص بهذا الانحلال بالكيان الكلي للوجود ، سواء سمي براهما أو بوذا أو كوزموس أو أسترونومي Astronomy ، وسواء تضمن الميتافيزياء أو المفارقات لا قيمة له ، دون ضمانة عقل كلي خلوق عادل يكفله خالق كل شيء ، و إلا خرجنا من نسق وجودي إلى آخر ، وبعبارة "بوذية" تحللنا في أنساق الوجود بلا هوية ، فلا معرفة لا للذات ولا لأي شيء سوف تنحل به ، وتتحول إليه هذه الذات اللامعنية أصلاً ؟ !

وكما قال جاسبر : « لا شيء جديد على الخصوص في تعاليم بوذا »[١] ليفهم كل إنسان كلام بوذا بلغته الخاصة ، شرط ألاَّ يعرف شيئاً عن القوانين والقواعد التي تحكم الفكر والوجود ، أي لا يعرفَ المنطق ولا المنهجية العلمية ولا الفلسفة ، ولا يراعيَ السببية حين يستعملها لفهم أو نشر دعوته ، ولا يقبل بمبدأ الهوية حين يحدث أي إنسان آخر : « إن نفي الأنا هو مبدأ – البوذية- »[٢] ، شأنها في ذلك شأن كل الفكر التقمصي .

فإذا عرفنا أن معظم الناس لا تراعي هذه الأمور ، بقدر ما يراعي الضمير الإنساني المثقل بالعذاب ، العذابات التي يسببها

---

(١) المرجع السابق، ص٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٩٤.

الإنسان للكائنات الأخرى ومنعته البوذية عنها ، أدركنا سبب انتشار البوذية الواسع في الشرق الأقصى حيث الخواء الديني في الصين ، بينما نافست الأديان الأخرى في الهند البوذية لذلك (اضمحلت في الهند خلال ألف عام ، دون اضطهاد)(١) ، وفي الوقت نفسه انتشرت في الصين واليابان وراح صداها يتردد في الشرق الأوسط ضمن منطوق الأثر التموزي القبل تاريخي فيه ، وضمن أديانه المتصارعة ، حيث غدا "بوذا" وجهاً من وجوه الآلهة التقمصية ، المتناسخة إذا صح التعبير ، كجوهر إلهي فرض نفسه تجسداً ، مما فسح المجال لقبول تجسد الله في مجمع نيقية "Nicaea ٣٢٥م" ضد المانوية وآريوس "Arius" الذي قرر أن «المسيح "عليه السلام" من طبيعة بشرية ما دام هو مخلوقاً من إله مما دفع بالإمبراطور قسطنطين إلى التدخل فجمع عدداً كبيراً من البطارقة الذين كان معظمهم من الشرق في نيقية بآسية الصغرى ليؤكدوا تجسد الله بالمسيح ، والذي أخذت به كل الكنائس المسيحية بعد ذلك»(٢) ، وبهذا حقق البطارقة الشرقيون استقطاباً بوذياً وتموزياً في دياناتهم ، لذلك

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩.

(٢) Diane W.Darst, Western civilization to1648, Mc Graw Hill p.c, N.Y1990,p 205

أوضح فولتير أن : « كل الأديان المختلفة كانت موجودة في الإمبراطورية الرومانية ، ومقبولة فيها رغم أن مجلس الشيوخ لم يكن يتبناها ، لكن المسيحيين وحدهم كانوا معادين لكل هذه الأديان ، وآخذين منها »[١]. وفي موضع آخر من موسوعته الفلسفية قال "فولتير" : « القديس بولص "Sain Paul" لم يسمِّ المسيح "عليه السلام" إلهاً ، لقد كان ينظر إلى المسيح عليه السلام على أنه إنسان يتلقى الوحي من الله ، ثم أصبح مخلوقاً أكمل من سواه ، وبعد زمن نال منزلة أرفع من منزلة الملائكة ليصبح تجلياً للحلول الإلهي فيه »[٢] ، وهذا تماماً ما حصل مع بوذا (فقد شادوا المعابد حول رفاته ، وفي القرن الثالث قبل يسوع ظهرت عقيدة أن "بوذا" جوهر إلهي فرض على نفسه تجسداً ، وعلى هذا النحو تتسع الخرافة . . . خرافة "بوذا" الذي يتصل اتصالاً كونياً بالسماوات حيث تقطن الآلهة ، ويتصل بالآلهة وبالعرافين وإبليس "Mara" وبالشياطين وبعونهم جميعاً ينجز ذاته)[٣] ؟ !

وكأننا هنا إزاء الطبيعة الإنسانية التي تغاير فطرتها إذا هي وقعت بما يمكنني تسميته بالإجبار التكراري الاجتماعي

(١) Voltaire, philosophical Dictionary, op.cit, p132

(٢) ibid, p179

(٣) فلاسفة إنسانيون، مرجع سابق، ص١٠٤- ١٠٥.

حين تلوك الألسن جيلاً بعد جيل اسم نابه فيها[١] ، تماماً كما يقع الفرد بهذا التكرار إذا استحوذت عليه فكرة ما "Obsessive" ، لتدفعه إلى تكرارها حتى يصبح هو في خدمتها بعد أن كانت في خدمته ولأجله ، كضرورة غسل اليدين قبل الطعام لتجنب الجراثيم ؛ لتصبح عملية الغسل تكرارية كل خمس دقائق مثلاً ، أو ضرورة الصلاة ليصبح المصاب بالإجبار "Compulsive Disorders" يتمتم بالصلاة طوال النهار ، والسبحة بهذه الطريقة إحدى دلالات هذا اللاسواء إذا رافقتها التمتمة ؟ !

أما الإجبار التكراري الاجتماعي فهو :هذا الارتباط الإجباري التكراري بين كل ما هو خير وصحيح وجميل وفاضل مع اسم أي علمٍ ما ، سواء كان بالفعل كذلك أم لم يكن ، وكلما بردت همة هذا الإجبار أضاف إلى هذا الاسم أحباره صفة جديدة يدعون اكتشافها فيه ، وهو ما حصل مع المسيح عليه السلام و مع "بوذا قبله ومع علي "رضي الله عنه" في الإسلام عند من ألهه من الغلاة – المؤلهة – ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات : ٥١/٥١] .

---

(١) انظر كتابنا، علم النفس، مرجع سابق ، دار الأرقم ، ص٣٦ ، التوجهات التي تؤدي إلى السلوك.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ٥/١١٦].

هكذا تغاير الطبيعة الإنسانية فطرتها إذا هي أخلت بالتوازن العاطفي إخلالها بالجسدي ، وبالغلو فيما نحب ومن نحب ، فتصبح النظافة كما في مثالنا السابق هوساً ، والتقدير عبادة وبكليهما هلاك للفرد وللأمة ، وخروج عن شروط الصحة والاتزان .

وغلاة البوذية اليوم إذا استثنينا منهم من يعمل لأسباب سياسية مع "الدالىالاما Dalia Lama" على محاربة الفكر الشيوعي في الصين ، يأخذون الملايين من الغرب ليطبعوا وينشروا دعواهم البوذية هذه أمثال : السيد "ناكاجيما K. Y. Nakajima" في ألمانية(١) ، والذي يوزع تعاليم بوذا في كل فنادق الغرب ، مطبوعةً باللغتين الإنكليزية والإفرنسية(٢) منذ ستينات القرن الماضي بصورة دائمة .

فما الذي يوجد في مثل هذه الدعوات ؟

---

(١) Borsigstrasse 8-10, F.R.Germany

(٢) The Teaching of Buddha, cosaido printing co, Tokyo1979

يقول علماء الآثار المصرية "Egyptology" : « وساد الميل في كل مكان إلى صهر شخصية الملك داخل الصورة المفتقرة للأصالة التي كانت تفرضها الأفكار والآراء»[١] ، ولهذا السبب نجد هذا التكرار في النصوص "الهيروغليفية" المكتوبة أو المحفورة على الحجر أو الأخشاب أو ورق البردي سواء ، وخاصة ما يتعلق بالمصير (كتكرار التراتيل من قبل الكهنة وأقارب الميت بالنيابة عنه ، وعلى هذا بنيت أساطير هامة ، على ظن أن هذا التكرار سيؤمن للميت مخرجاً للألوهة في العالم القادم)[٢] ، وهذا هو بالضبط الذي شكل ما عرف بمصر القديمة "بالكلمة السحرية للخروج إلى الضياء" ، أي كتاب الأموات[٣] .

وعلى هذا الأساس وبناء على إجبار التكرار السيكولوجي الذي سبق لنا الحديث عنه رسخ في الفكر الإنساني مفهوم التراتيل ، وهو ما نراه بالضبط في الكتاب الذي ذكرنا مدى سعة انتشاره بالإنكليزية والفرنسية في كل فنادق الغرب الكبرى ، كهدية لكل نزيل فيها والذي نحن بصدده ؛ أي

---

(١) باسكال فيرنوس، موسوعة الفراعنة، دار الفكر، القاهرة ، ١٩٩١، ص١٤ .

(٢) Wallis Budge, The Egyption Book of the Dead, Dovers pub, INC, N.Y1967, PXi

(٣) Ibid, pxxx

"تعاليم بوذا"[١] ، حيث يكاد القسم الأول منه – مئة الصفحة الأولى – يقتصر على تكرار (عظمة "بوذا" وعدم قدرة أي شخص على وصفه بعبارات بشرية)[٢] وأن أي (شخص يريد أن يرتبط ببوذا كجسد ليرثي غيابه ، لن يقدر أن يرى "بوذا" الحقيقي)[٣] ، وأن "بوذا" هو الذي يمكنه أن يخرج من يتبعه إلى عالم الضياء "Enlightenment" ، مما يذكرنا بإنجيل مصر القديمة : كتاب الأموات .

ولعل هذا الإصرار على النور والضياء في الفكر الإنساني قبل العلمي – حيث نعرف اليوم أن النور الكوني مجموعة انفجارات ذرية – هو الذي كان يميز كل الحركات الدينية التبشيرية الكبرى ، التي تريد أن تطمئن على أتباعها بأنها الطريق لإخراجهم من ظلام القبور والموت .

والطريق "البوذية" من أجل تشكيل هذه القناعة هو إلغاء الفردية من منطلق (أن هذا العالم كله مجرد انعكاس ظل الفكر الإنساني الناتج عن ثلاثة أخطاء : الخطأ الأول مبني على

(١) The Teaching of Buddha, Buddhist promoting foundation, Tokyo1979

(٢) Ibid, p48

(٣) Ibid, p60

القـدر . . . والـثاني يدعـي أن كـل شـيء مخلوق من الله تعالى ومضـبوط بإرادتـه ، أما الخطأ الثالث فظن البعض بعكس ذلك بالصدفة)[١] .

هكـذا نجـد أنفسـنا أمام دين من دون إله ، يأخذ فيه "بوذا" مكـان الكـيان الكونـي الكلـي "بـراهما" ، وتـناقض تعالـيم هذا الاتجـاه في إنكـار القدر حين تقول : « كل من سمعوا من بوذا تعاليمه لا يعانون أي ألم لأنهم يعرفون أن هذه الآلام لا يمكن تجنبها »[٢] .

إن هذا ليس فلسفة عقلانية ولا مثالية تقرر أن الوجود كله وكـل (معـرفة فـيه حـتى المعرفة التجريبية معرفة عقلية . . . لأن العـالم الإمـبيريقي هـو مـن نـتاج العـالم العقلـي ، كما أن العـالم مخلوق من نومن واحد نحمله في أنفسنا)[٣] ، بل يعني أن المعـرفة مبنـية عـلى وهـم اسمه : العقل الإنساني لأن (كلاً مـن الحـياة والمـوت يظهـران من العقل ولا يوجدان إلا داخل العقـل)[٤] ، والحـل هـو كسـر العقل لا الاعتماد عليه كما في الفلسـفات العقلانـية ، وذلـك بـتدمير الفـردية (فلكـي تستمتع

---

(١) Ibid, p88

(٢) Ibid, p94

(٣) دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص٣٠٩.

(٤) Ibid, p 98

بنقاء كلٍّ من الجسد والعقل سر في طريق البوذية ، وذلك بكسر شباك الفردية والأفكار الملوثة والرغبات الشريرة)[١] ؟ !

لندمر الفردية ، ولندمر الهوية ولنرفض الخالق فنسير مع البوذية من دون ألم ، نحو البراهما أي الكلية الكونية التي هي "بوذا" الآن بعد أن تغير اسمها السنسكريتي ، ومن أجل ماذا ؟ أمن أجل كلٍّ نحن الآن عينة منه لا تطاق حسب مبدئهم الأساسي ؟ !

وقد كان خطأ البوذية الأول عدم فهم مؤسسها – شأنه شأن الكثير من مؤسسي الأديان والمتصوفة بعده – عدم فهم الأسس النفسية – علم النفس – لتبدل الوعي ، وخطؤه الثاني في ربط النور المجازي بمعنى الفهم ، بالتنوير الكوني – أي عالم الأنوار بعد الموت ، يقول النص البوذي : « لماذا نجد بوذا في العالم المسمى "أميدا Amida" المشير إلى بوذا الكيان النوراني اللانهائي ؟ والجواب : لأن حيوية تعاطفه حياً لا تزول خلال الحيوات اللامعدودة للدهر والزمن . . . لذلك كان على كل الناس أن تركز على "اسمه" حين يقتربون من نهاية عمرهم يرتلون - عبارة – "أميدا بوذا" بكل إيمان ، فإن فعلوا

(١) Ibid, p102

من دون عقل مشوش فسيلدون في بلاد بوذا النقية ويصلون إلى النور التام»[١] ، وبذلك ترتبط الجنة بالأنوار ، ارتباط التعليم بالتنوير ! !

وبتداخل المفهومين نلمس خطأ البوذية الفيزيقي الثالث بعد خطئها الثاني بضرورة تدمير الإرادة ، التي هي ركن أساسي من أركان النفس الإنسانية والتي ضخم "نيتشه" ارتباطها بكل تقدم حضاري دون أن يخطئ .

وهذه الأخطاء ناتجة عن قصور قبل تاريخي بفهم العالم الفيزيائي الذي نعيش فيه ، إضافة إلى قصور في فهم علم النفس كما نعرفه اليوم ، رغم الاكتشاف الهام لأثر موجات ألفا في الدماغ ، دون القدرة على تفسيره إلا أسطورياً ، كذلك الاكتشاف النفسي الهام أيضاً لأهمية التوجه في "Attitude" في ترسيخ القناعة والسلوك "Behavior"[٢] ، بالممارسة دون أي أسس علمية لهذا الاكتشاف ، مما جعل البوذيين يلحون على ضرورة تكرار اسم "بوذا" و"التراتيل" التي تشير إليه (حيث تتحد الجهات العشر في تمجيد

---

(١) Ibid, p224

(٢) انظر كتابنا: علم النفس، مرجع سابق، ص٣٦.

اسمي)[١] و إلا فإن بوذا اعتبر أن مهمته فاشلة ، وبهذا نجد أن الرجل الذي يحارب الإرادة يقول : « رغم أني حصلت على الكونية البوذية "Budahahood" فلن أكون كاملاً حتى يصبح كل من هو في أرضي متيقناً من الحصول على مَثَلي لينال التنوير »[٢] ، فإذا لم تكن هذه إرادة فماذا تكون الإرادة ؟ !

أما أتباعه فيؤكدون بإرادة صلبة (أن على كل البشر أن تستمع لتعاليم بوذا)[٣] ، سواء كان ذلك كما فعل "أشوكا Ashoka" بحروبه الدموية ضد مقاطعة "كالينغا Kalinga" ، أو بتوزيعه تعاليم بوذا منقوشة على أحجار الدول المجاورة[٤] ، أو بالمحبة والتعاطف مع الناس كما يفعل الرهبان البوذيون الضعفاء ، سواء هذا أم ذاك فإنه لا يمكن أن ينتشر أي دين دون إرادة مؤسسه وأتباعه الخلص ، وهي الإرادة ذاتها التي يريد هؤلاء المخلصون الخلاص منها لدى أتباعهم ، لكي يضمنوا عدم الانتفاض عليهم .

---

(١) Ibid, p204

(٢) Ibid, p202

(٣) Ibid, p210

(٤) The History of Indian buddhism, op. Cit ، وآخر هذه النقوش هي التي هدمتها طالبان في "أفغانستان".

إيضاح منهجي

نعم ، لقد أطلت في نقدي لما تمخضت عنه (الهندوسية) من (بوذية) ، هي في بداياتها رد فعل على التسلط (الآري) في الهند ، من أمير اسمه (سيدهارثا غاوتامان Siddhartha Gautoman) الذي صار اسمه الكيان الكلي ؛ أي النور (بوذا) ، كذلك من أسمائه (المخلص) كنور من أنوار الكيان الكلي ، وأنا لا أقصد سوى إبراز هذا الفكر في أسطوريته ، لا في فلسفته التي تنسب إليه ، لعدم وجودها .

ذلك أن الفكر الفلسفي لايقبل بأي مصطلح لا يتميز « بالوضوح وبالتميز » كما أكد ديكارت ، إذا لم يكن في إطار الإمبيريقية كما زاد على ذلك كل من (لوك) حتى (هيوم) فـ(رسل) .

ولأنني أجهل كثيراً مما يعرفه الأستاذ ندرة اليازجي عن الفكر الشرقي هذا ، فقد نالت الهندوسية والبوذية من قسوة قلمي ما نالت ، آملاً ألاّ يعتبر القارئ نقدي لها موجهاً إلى صدى تلك المذاهب في فكر صديقي الحبيب إلى قلبي حقاً وصدقاً .

لذلك أدعوه لإيضاح ما يمكن أن أكون قد أخطأت فيه ، في تقويم هذا الفكر الشرقي الذي لا أعتبره فلسفياً ولا دينياً بحال من الأحوال ، فإذا لم تسعفنا الظروف بحوار مكتوب حول هذا الأمر ، فلا أقل من أن أذكر القارئ بما قاله (ندرة) عن : « تكامل المادة والروح في الحكمة والعلم »[١] ، حين وضع ما سماه بالحكمة الكونية أولاً ، ثم الحكمة التي تميز بها الإنسان الأول ؟ ثم ثالثاً وأخيراً محبة الحكمة أي الفلسفة ، حيث أعتبر نفسي في هذا الموقع الذي اعتبره الأستاذ ندرة (المستوى العقلي الذي تراجعت إليه الحكمة البدئية... وفي هذا المستوى أصبح الإنسان محباً للحكمة ولم يعد حكيماً)[٢] ، وهذا هو أنا بالضبط ، بل إنني أقل من هذا ، لأنني لا أستطيع أن أرى لا في (الثيوصوفيا) ولا في الحكمة البدئية (حكمة الإنسان الروحي البدئي الذي كان ، عبر حكمته على صلة مع الحكمة القدسية)[٣] ، إلا نومیناليات اسمية[*] ! ! إما لجهلي بسر عميق هو فوق قدرتي على فهمه ، أو لأنني أرى أمامي جملاً تقريرية - لا يمكنها أن تدخل في

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص٥٨-٥٩ .

(*) و« دور » منطقي !!

عقلي الريبي - مليئة بالمجازات التي أفسدتني الفلسفات التفكيكية المعاصرة ، بضرورة إقصائها من كل نص ، ليبهر من يجرب ذلك بتحول النص ضد صاحبه ، وضد كل ما يدعو إليه .

وطبعاً لم أطبق هذا المنهج في هذا البحث إلا على النصوص الرواقية والهندوسية والبوذية التي أريد من القارئ أن يطلع عليها كي تفقد صفتها السحرية التي تلازم كل مسكوت عنه بالإيماء أو بالسرانية .

ولأؤكد مرة ثانية أن لا عيب على الإطلاق في وجود صدى أي مذهب في فكر أي كاتب ، ولعل الرائع عند الأستاذ ندرة هو وجود صدى مذاهب عديدة في فكره ، هي وراء شخصيته التي لا يستطيع من يعرفها إلاَّ أن يقدرها ويحبها .

ولكي لا يظن القارئ أنني أنقد صديقي ندرة فيما أقول ، أحب أن أؤكد له أن صدى الفلسفة الإغريقية في علم الكلام الإسلامي ، والعلوم الإسلامية - ابن الهيثم مثلاً - من صدى الفيثاغورية ، وتلك من صدى فكر « بتاح » المصري القديم ، كما أنه لولا هذه الفلسفة الإسلامية بتتابع أساتذتها في الأندلس مثلاً لما ظهرت الثيولوجيا الكاثوليكية (الأكوينية) ، فتلميذ (ابن باجة) كان (ابن طفيل) وتلميذ ابن طفيل كان (ابن

رشد) الذي لا تلميذ عربياً له بعد ذلك ، لكن هذا لا يعني انقطاع التلمذة الغربية له ، فمع أول تشكل جامعة (الصوربون) نجدها - أي التلمذة- بعميدها سيغردي برابانت (Siger de Brabant) الرشدي فيها .

ولولا نقد (الأكويني) لهما لما تشكلت الثيولوجيا - ثوماثيولوجيا - الكاثوليكية ، مما يدفعني إلى اعتبارها مع كل الإسكلائية من تلاميذ (ابن رشد) ، والرشدية ، كذلك يجب أن يكون الحال في صدى الفكر الشرقي الذي أظن أني ألمسه الآن بالأستاذ ندرة ولا أبالغ ؛ إذ إزاء صدى (المستوى العقلي الذي تراجعت إليه الحكمة البدئية عن علاقاتها الوثيقة مع الحكمة الإلهية)[1] مع أمثالي ، من الذين يؤكدون استحالة معرفة أي شيء عن تلك الحكمة ، سواء بالخبريات التي أكدوا لنا أنها مبثوثة في كل الكون - ثيوصوفيا - أو اسمها الوجود الكلي ، أو بوذا أو الفادي ، أو كانت حكمة إله خبير مفارق كما في أديان التوحيد ، التي لم تعلن - قطعياً - أن الله أوصل حكمته لأي من عباده ، فكل شأن الوحي كان بإيصال تعاليمه لهم ليس إلا ! ! على حد علمي القليل ! !

نحن إذن أمام فكرين مختلفين بين صديقين متقاربين ،

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٩ .

أظن أن المعرفة هي المستفيد الأول قبل القارئ من هذا الحوار بينهما ، والذي لا أماري فيه إذا قلت إنه لم يجر بيننا قبل الآن ، لأن منهج الأستاذ نـدرة (التسامح إزاء المعتقدات ووجهات النظر التي يعتنقها الآخرون)[١] ، وطريقته في ذلك لا تخرج عما حددها هو بذاته حين قال : « إذ أبلغ هذا العمق من التأمل الواعي الملازم لإجلال الحياة وتوقيرها وتقديسها ، أحقق التعاطف مع كل شيء ، وأسقط العداء أو التناقض بين الأشياء ، وأنشئ الانسجام والتوافق والتكامل والتداخل ، أبلغ مستوى التوفيق بين الحياة الطبيعية وحياتي الداخلية . . أعترف بالحياة الواحدة المتجلية في كل شيء ، وأؤكد وحدة حقيقتي وحقيقتها »[٢] ، وقال : « أحدثك عن الصوفية العقلية التي جعلت منها شعاراً لحياتي . . بين العزلة والاجتماع . . صرت أشارك الناس عواطفهم . . وأستمع بإصغاء إلى مبادئهم ومعتقداتهم . . وألتقي معهم في نقطة أو في أكثر من نقطة من نقاط أفكارهم ، أو في محور من محاور معتقدهم ، هكذا بدأت أضمن العالم داخل كياني »[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

ولهذا السبب كنا وما زلنا صديقين دون أن أطلع منه أكثر مما أطلعه على أفكار وآراء ، لكننا حين يقرأ أحدنا للآخر لم نكن نناقش ما نقرأ ، فندرة لا يحب نقد الأفكار ، وتلك جبلته الوديعة الراقية ، ويقبل استعراضها ؛ لذلك قلما شعرت قبل هذا المشروع الذي نحن بصدده أننا نفكر من منطلقين مختلفين ، منطلقه هو - حماه الله - توحيدي للفكر الإنساني (توحيد نطاقات الفكر الإنساني ووجهات النظر العديدة . . تتضمن في وحدة تأليفية للدين . . وللفلسفة وللعالم)[١] .

وثقته بأن (التجربة النفسية أو العقلية المتسامية أو الروحية المختبرة التي تنتهي إلى العرفان)[٢] . وهذا بالنسبة إلي أمل أكثر منه إمكاناً ، إذ أظن أن قول (رسل) في بحثه عن السعادة (نبذت بنجاح بعض أهداف الرغبة ، مثل الحصول على معرفة لا يتطرق إليها الشك ، بصدد أمور معينة لا يمكن إدراكها أساساً)[٣] ، قول يمكنني أن أتبناه ، فأنا يمكنني أن أقترب - أرجح - معرفة بعض الأمور ، لكنني

---

(١) المرجع السابق ، ص٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٦٦ .

(٣) برتراند رسل ، الفوز بالسعادة ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٨٠م ، ص٢٦ .

كمحدود خلق ضمن زمان ومكان - مقولات - لا يمكنني العرفان ، ولأنني أحب الحق فلا يمكنني أن أكون هو ، وإذ أتطلع إلى المطلقات فلا أظنها كلها تعبر عن الحقيقة كالخلود عبر الذوبان بكيانات أخرى في الكلية الكونية ، التي لا يمكن أن يكون في كليتها إلا جماع جزئياتنا ، فأين الحقيقة فيها وعندنا عينة عن باطل كل هذه الجزئيات(*) ؟ !

فأنا لا أرغب أن أكون بعد موتي مع نيرون ولا مع بوش ، ولا مع القديس أوغسطين أو أي ابن لأبيه ، في كيان كلي واحد ، وبعبارة موجزة : لا أرى أي قدسية بالكونية أو أي وجود كلي ، لأنني أعرف الجزئية والوجود الجزئي هذا بكل عجره وبجره ، فأسوأ ما يمكن أن يحصل لروحي المفارقة الانغماس بكلٍ ؛ هذا هو جزؤه .

فإذا كانت كل الأمور تتساوى في نهاياتها ، فليس في هذا أي فضيلة ننشدها من هذا التساوي ، وهذا أمر أدركه الإغريق قديماً ، فلاحظوا أن الفضيلة وسط بين تطرفين أو رذيلتين ، وهي لا تكون - أي الفضيلة - بالتساوي بين رذيلتين أو

(*) وبتعبير مجازي – رغم تحفظي على المجاز – أقول في إيضاح هذا: « لستُ بحاجة إلى شرب كل ماء البحر حتى أعرف أنها مالحة ، فالقطرة على فمي تقززني بما فيه الكفاية » .

تطـرفين ، فالشـجاعة بين التهور والجبن ، والكرم بين الإسراف والتقـتير ، وليس بتساوي الإسراف مع التقتير ؟ ! ولا التهور مع الجبن ؟ !

إنـني لا أرى أي تسـاوٍ للأمور في نهاياتها ، فإذا لم ينفصل الحـق عـن الـباطل ، فبئس الكلية الكونية التي ستستغرق عينتنا الجزئية هذه إلى الأبد .

لقـد أحببـت (نـدرة) لأنـه لم يسـرق مـال أحـد ولا أيـد شـراكة سـرقة الأمـوال ، ولم يقـتل أو يعـذب كائـناً أو إنسـاناً آخـر ، فكيف أحب الإنسانية جمعاء ، أي يمكن أن أحب أحد مجـرمي أو مجـرمات (أبـو غريـب) سـواء ممـن بناه أو من استعمله أو أياً من جزاري الشعب الفلسطيني والعربي ؟ ؟

يالبؤسـي لـو كنت في كيان أبدي مع هؤلاء إذا ساء حظي وخلدت روحي مع أمثالهم بكلية كونية واحدة ؟ !

الكلـية الكونـية المقدسة بهذا المعنى تستدعي أماكن ثواب وأمـاكن عقاب في عدالة (البراهما) إذا كان هذا الكيان الكلي عـادلاً ، فمـا الـذي يفـرقها عن الجنة والنار عند الله ؛ في نهاية المطاف بعد ما يسمونه التطهيرات التناسخية ؟ ؟

كمـا أنـني لا أرى في كـل إنجـازات البشـرية سـوى جمع وتفـريق لمـا تم إنجـازه في الطبـيعة ، فشركة (Parker) التي

صنعت القلم الذي أكتب به قلدت ريشة الطائر وصقلت بريق معدن لا يصدأ ، وأضافت بينهما بقايا ديناصور - هو البتروكيمائيات - لكي تصنع قلماً ، وقس الأمر ذاته على كل ما يسمونه اختراعاً وهو ليس إلا جمعاً وتفريقاً لما تم إنجازه في الطبيعة ، أما الآثار التي تسمى حضارية فلا تخرج عن هذا ، فقد لاحظ الطغاة إمكان فرارهم من الناس بعد أذيتهم إلى معاقل الجبال كي لا يطالوهم بثأر ، فبنى الطغيان القلاع بالمدن تشبهاً بكل معقل عالٍ ، يزورها الناس على أنها قلعة (الحصن) مثلاً : الرائعة ، وهي لم تكن إلا مركز استعباد للقرى المحيطة بها ، وما الأهرام التي استهلكت مئات الألوف من الأرواح لحفظ جسد طاغية واحد ، إلا أسطع دليل على صروح الحضارات (الرائعة ؟) واليوم من يجرؤ على القول بأن مركزي التجارة العالمية في نيويورك كانا كوريثهما من بيوتات متفرقة وناطحات سحاب ، مراكز سرقة أموال الناس وهي في جيوبهم بالتضخم والبورصات ؟ من يجرؤ أن يقول هذا دون أن ينعت بالإرهاب ؟ !

تلك هي الإنجازات الرائعة للحضارات في تنوعها الشامل لكل شر ، فلا حضارة دون طغيان من عقلنا الجمعي الشامل ، إذا حاورته فسيظل يسفسط إلى أن يسيطر ، حرباً أو سلماً .

لكن المثاليات مقبولة لأنها مخدرات للشر الكامن في تفاصيلها ، تلك هي العينة من الكلية الكونية التي : أسأل الله ألاّ أكون فيها بعد الموت ، بعد أن امتحنني فيها بالحياة لحكمة - إلهية - لن أعرفها وأنا حي(*) ؟ !

فإذا قيل لي : إنك تشخص ما هو مجرد ، وإن لدينا سرانية توضح هذه الأمور ، لمحت التناقض المنطقي بين السرانية والوضوح ، يغريك فيها ما وراء كل حجاب من خيال يمكنه أن يسرح ، لذلك تصبح كل دميمة غادة غانية بحجابها ، وكل فكرة سطحية حكمة بخفائها ، لا لأنهما غادة وحكمة بل لصفة إطلاق الخيال إزاء كل ستر ، وتعتمد عليه الأفكار الضعيفة كالسرانيات البوذية والشرقية والباطنية ، فتصبح بسترها غادة وحكمة ، خاصة إذا أضيف إليها مخالفة بزي معين كحلق رؤوس الرهبان ، أو استطالات لحى فوق لباس قرون مضت .

فبماذا يريد أن يخبرنا هؤلاء من أسرار ؟ !

- أن نترك إرادتنا كي نتبع إرادتهم ؟
- أن نترك أخطاءنا كي نقع بأخطائهم ؟

(*) فلنتواضع ونقر بمحدودية عقلنا في قصوره عن كل عرفان .

- أن نحب كل شر كي لا يكون لنا خيار انتقاء ، لأننا سننتهي إلى كلية كونية بها كل « عجر وبجر » هذه الجزئية ؟

ومن لا يفعل هذا متراجع من الحكمة الإلهية إلى المستوى العقلي الذي تراجعت إليه الحكمة البدئية عن صلتها بالحكمة الإلهية ؟ !

فإذا سألتهم هل كنتم مع الله أو أنتم إله حتى تعرفوا الحكمة الإلهية ؟ أجابوك بالكيان الكلي الذي يرفض مبدأ الهوية والمقولات المنطقية والثالث المرفوع وعدم التناقض و(الحيدة) ، وكل ما لا تستطيع أن تكتب شيئاً أو تقول جملة من دونه ، فهم يستخدمون قسراً هذه المبادئ وإلا فلن يستطيعوا قول أي شيء ، ولكنهم ينكرونها حين يقرون بها بكلمتهم الغامضة هذه (الكيان الكلي) ، فإذا لم تفهم تناقضاتهم هذه ، قالوا : سنعلمك السرانية ، وأول شرط لها هو أن تنكر إرادتك وتقبل إرادتنا ؟ !

أيُّ استعباد فكري هذا ناتج عن « حيدة » منطقية ، مليئة بأحكام القيمة ، فارغة من كل استعمال منطقي صحيح من الذي يطالبك أن تنكر أدوات المنطق التي لا تستطيع أن تفهم من دونها ، ولا هم بغنى عن استعمالها حتى يشرحوا آراءهم ؟

عود على : نقد الصوفية والميستية الهندية

أنا إذن لا أقوم هنا إلا بالتوافق مع رأي الأستاذ ندرة ، بضرورة : « توطيد التفكير المنطقي لبلوغ محاكمة سليمة »(١) سواء « لتطويره إلى عقل صوفي »(٢) أم لا ، لأن العقل المنطقي هبةُ اجتهاد تصلح في كل المجالات ، العلمية والفلسفية والأدبية والدينية أيضاً .

ولأجل هذا الغرض يجب أن ألفت نظر القارئ إلى أمرين :

الأول : لا قيمة لأحكام القيمة ، كما سبق أن أشرت .

والثاني : أن نقدي للصوفية والميستية الشرقية والغربية وما بينهما من شرق أوسطية بها من الاثنين ، ما لا يترافق ولم يترافق مع هذا البحث مصادفةً ، بل هو جزء من فلسفة المصير التي أعمل عليها منذ سنين .

لذلك : وحول الأمر الأول أقول : إنه مهما قوَّم كاتب ما الفلسفة بالهرطقة ، « من تمنطق فقد تزندق » أو بمستوى - قيمي - حكمي متراجع إلى الحكمة البدئية ، أو أي حكم

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٦٨ .

(٢) المرجع السابق .

قيمي آخر يحط من شأن الفلسفة التي هي أداة كل تساؤل علمي وفني وأخلاقي في كل حقل ينال عليه الباحثون « شهادة فلسفة » في البلاد المتطورة (PH.D) ، أقول : هذا الحكم القيمي لا قيمة فعلية له ، ويمكننا - أنا والأستاذ ندرة - أن نواجهه بحكم قيمي آخر يجعل من الثيوصوفيا والحكمة البدئية الصوفية في أسفل القائمة ، على العكس من الحكم القيمي الذي جعل من الفلسفة تراجعاً جديداً لمحبة الحكمة ، لأن صفة الأحكام / القيمة(*) التقلب ، ولملاحظتها ما عليك سوى مراجعة تصريحات السياسيين ؛ لأنها كلها قيمية مرتبطة بمدى سلطتهم .

فتوطيد التفكير المنطقي كما اقترح الأستاذ ندرة لا يكون إلا بإظهار الوقائع (Facts) ، في أي أمر يتوجه إليه العقل ، فواقعته التي بدأت (Fact) بضبط الكنيسة للتصوف بالمستية التي أبرزتها في هذا البحث ، وهي التي سمحت للغرب بالعزوف عن تشتت الفكر الصوفي الشرقي بين الأحكام القيمية الصوفية ، في رغبات التأله أو على الأقل الانضواء

(*) على القارئ أن يميز بين القيم كأهم ما يجب أن يعيش من أجله الإنسان ، و بين الأحكام القيمية كالأفضل والأسوأ المرتبطة بالآراء التي لا تقدم ولا تؤخر دون سلطة تفرضها .

بألوهة كونية خيالية ، مما أعاد الفكر الغربي نحو التساؤلات المحصورة بالوقائع (Fact) ، لا بالظنون الشطحية الرجراجة للعقل والفكر والسلوك ، فصار الشرق تابعاً له .

وانحصار الفكر الغربي بالوقائع الذي تجلى بالتجريبية فيه (Empiricism) والبرغماتية (Pragmatism) والشيوعية على عجرها وبجرها ، هو أساس القوة الحضارية التي أطبقت على العالم بالحرب الباردة ، وتطبق عليه اليوم بالعولمة ، وهذا لا يعني (صراطية) الفلسفة ، بل يعني (أدائيتها) في مسيرة الحضارات ، ويمكنني أن أعيدك ثانية إلى عظمة (روما) بالرواقية ، وقبلها إلى عظمة أثينا بالمشائية ، والعظمة العربية بعلم الكلام الذي رسخته التجربة (الاعتزالية) ، ومع كل الملاحظات والهنات التي يمكن للأستاذ (ندرة) و(لي) أخذها على هذا الفكر الفلسفي أو ذاك ، نظل لا نستطيع أن ننكر أنه - أي الفكر الفلسفي - أساس اللعبة الحضارية الإنسانية ، ومن لا يشارك فيه فهو حتماً خارج هذه اللعبة ، سواء قيمنا هذا الفكر الفلسفي بهذا المذهب أو ذاك على أساس قيمي جيد أو سيئ ، يظل أوضح بدلالاته من تقريريات التصوف و(بارانويا) الادعاء بأننا نعرف حكمة الخالق في خلقه ، أو عما إذا كان هناك حكمة قدسية وأخرى بدئية أو غير قدسية

أو من مزيجهما ، بكل أحكام القيمة التي لا تنفع أي منها في التقدم أو التراجع الحضاري .

وكل تابعية الحضارات الشرقية للغرب هي أنه كلما برز عندهم - أي عند الغرب - مذهب فلسفي تبنوه ، فهي السبب الأساسي في تخلف نحو (ستة مليارات) شرقي عدا عن الشرق الأوسط ، وكل ذلك ناتج عن الظن الصوفي الساذج بأن تقدم هؤلاء يعود إلى فلسفتهم هذه أو تلك ، لا إلى مخاض الفلسفات الغربية الدائم ، لذلك ظنت الصين أن الشيوعية هي الحكمة ، مثل الحكمة البوذية التي سبق تبنيها ، لتفاجأ (بالعولمة) التي تظنها اليوم أفضل في صيغتها الفلسفية (البرغماتية) ؟ ؟

كذلك حال الهند مع (اشتراكية نهرو) ، وقياساً عندنا كشعب صوفي لا فلسفي تجد التخبط ذاته ؟ ولن أحرج الناشر بأسماء المتخبطين ؟

الفلسفة إذن لا يمكنها أن تكون في قعر أي تقويم (قيمي) ، لأنها هي أداة كل القيم والتقويمات بالسلطة العقلية لا غير .

وهنا أصل إلى الأمر الثاني : وهو أن هذا الموقف الذي أقفه من التصوف والميستية بشكل عام ، ليس وليد مطلب دار

الفكـر في صناعة هذا الكتاب : (الصوفية رؤية العالم) ، ولا هـو مـن ضـرورة التعليـق عـلى الشـطر الذي كتبه الأستاذ ندرة حول (الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة) ، كجزء من سلسـلة تهتم الدار بنشرها ، لكن ما أقوله هنا هو جزء من خط (فلسـفة المصـير) الـتي أكتـبها مـنذ مـا يقـارب مـن خمـس وثلاثين سنة كما أشرت .

لذلـك ، ولكـي أثبـت للقـارئ مرجعياً ما أقول ، أحب أن ألفت نظره إلى أن النقد الذي وجهته للصوفية والميستية الهندية في مبحـثي هـنا حـول (الميسـتية والتصـوف) ، كتبـته - كما رغبـت دار الفكـر - قـبل أن أعـرف أي شيء عن رأي صديقي نـدرة عن المبحث الذي كتبه - أيضاً حسب رغبة الدار - حول (الصـوفية هـي الحكمـة المـتحققة في الحـياة) ، والعكـس صحيح ، إذ لم يعرف هو أيضاً ماذا كتبت أنا .

لذلك أرجو القارئ ألا يتصور أنني أنقد صاحبي وصديقي نـدرة فـيما أكتـب ، رجـاء أكـرره في هذا التعليق لأؤكد هنا أن الحـب والصـداقة شـيء ، والمـنهج الفكري شيء آخر ، نجامل فـيه قـدر مـا تسـمح المجاملـة ، لكـن صلابة التفلسف وجفاف تعـابيره - وهـو صـفة المعـادلات الفكرية الجافة - قد توحي بعكـس ذلـك ، ولكـن عذري بهذه الجفافات إزاء رهافة الحس

الصوفي عند الأستاذ ندرة هو أنها كتبت قبل هذا التعليق فهي حتماً ليست موجهة إليه ، فقد قلت في نقدي للميستية والصوفية الهندية في بداية هذا البحث ما يمكنني أن أرجع القارئ إليه بين (ص١٣٤-و١٤٢)(*) .

وما يمكن أن يوضح إرجاعاتي التي نقلتها لك أيها القارئ في هذا التعليق من كتابي : (الإسلام ليس إيديولوجيا) ، وكلاهما خط فكري إذا غاير فكر أمثال الأستاذ ندرة ، فهو لأجل الإيضاح والتنبيه ، لا للنقد والتجريح ، وهذه هي طبيعة الفلسفة في اختلاف مناهجها - الجافة - على العكس من التصوف الذي تتشابه فيه التوجهات ، وفيما يلي إيضاح ذلك :

إيزوتيرية التصوف

إن كلمة (Isos) الإغريقية القديمة تعني : التساوي ، وكلمة (Terra) تعني الأرض ، فالإيزوتيرية تعني تساوي كل ما هو على الأرض ، كما تعني كلمة (Tropos) الدوران ، فكل ما يدور في فلك ما هو واحد ، ومن بنية واحدة .

(*) كما سبق أن فعلت

فأن تقول : إن هناك (إيزمورفية) بين منهجين تعني أنهما يشتركان في بنية واحدة ، فحين أشرت إلى كمون المعاني الصوفية في (القبالة) اليهودية ، كان في ذهني وصف (سبينوزا) لها بالنومينالية ، يقول : « قالوا ذلك بدافع الغرور والخبث حتى نعتقد أنهم وحدهم الأمناء على أسرار الله ، ولم أجد فيها إلا أعمالاً صبيانية ، ولقد قرأت بعض القباليين وعرفت تُرَّهاتهم – وقال – فإذا استبيح تفسير جميع نصوص الكتب المقدسة على طريقتهم ، فلن يبقى لنا نص واحد لا يمكن الشك في معناه الحقيقي »[١] ، والحق أن المسألة ليست مسألة خبث – دائماً – ولكنها مسألة ظن (إيزوتيري) بأن الحقيقة الكونية لا تخرج عن كونها بنية شيء واحد ، إذا عرفته عرفت الخالق ، وهو منذ (هرقليطس) : الوجود الكلي (Logos) اللوغوس ، وفي اليهوديات هو (الاسم الأعظم) الذي ذهبت إلى إدخاله في الإسلام في مجموع الأحرف الموجودة في بدايات السور[٢] ، ومن إسرائيلياتهم ما وصفه

(١) سبينوزا ، رسائل في اللاهوت والسياسة ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٧م ، ص ٢٩٩ ، وص٣٢٢ .

(٢) حسن الشرقاوي ، معجم ألفاظ الصوفية ، مؤسسة مختار ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص٤٣ .

سبينوزا بأنهم : « أقحموا في الدين من التأملات الفلسفية ما يجعل الكنيسة تتحول إلى أكاديمية . . فإذا نظرنا إلى هذه الأسرار التي يخبئها الكتاب ، والتي يدعون أنهم وحدهم القادرون على الكشف عنها ، فلن نجد فيها إلى قليلاً مما ابتدعه أرسطو وأفلاطون أو ما يشبههما »[١] مثل : (فيثاغورس) وأسطورية إعجابه بالأرقام التي لم يجد فيها كانط : « أي جانب إمبيريقي لأنها أداة - كالمنطق- لكل فكر وعقلانية ، . . بينما القوانين التي تحكم الطبيعة والأخلاق على العكس لكل منها جانب تطبيقي (إمبيريقي) »[٢] ، فالضلال هنا ، منذ فيثاغورس ، هو في البحث عن جانب تطبيقي لكل القبليات (Apriories) أي لكل الرياضيات والمنطق في (إيزوتيرية) واحدة ، وهي وجدت لتنطبق على ما تشاء ، ومن هنا كان للاسم الأعظم عند (اليهود) في (القبالة) خرافات كثيرة ، يقول ابن ميمون القرطبي ، وهو من كبار الثيولوجيين اليهود أيام الدول الإسلامية في الأندلس ؛ يقول : « ولا يخطر ببالك هذيان كُتاب الطلاسم ، وما تسمعه منهم أو

---

(١) رسائل في اللاهوت والسياسة ، مرجع سابق ، ص٣٤٨ .

(٢) Immanuel Kant, Grounding for the Metaphyics of Morals, Hackett p .u . Bcom . Indianapolis 1981, p1 .

تجده في كتبهم من أسماء . . الاسم ذا الاثني عشر حرفاً يفسدون بذلك اعتقادات»[(١)] بأن من ينطقه منهم بصورة صحيحة يسيطر على الكون ، أي يصير - بهذا السحر - هو الكلية الكونية الهندوسية والبوذية واليهودية والمسيحية والإسلامية . . إلخ . والسر في هذه هو في نصوصها ، كالاثني عشر حرفاً بالتوراة في كلمة واحدة ، وفواتح السور بالقرآن ، وسوى ذلك .

هذا التساوي في البنية الكونية الواحدة لكل الوجود يجعل من السهل التأله إذا عرفت فقط سر الله باسمه الأعظم ، أو كما قال الغزالي : «وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت - يقيناً- ؟ ! أن الصوفية هم السابقون لطريق الله »[(٢)] ؟ ؟ وكيف لهم ذلك ؟ يقول الغزالي : «بتطهير القلب كلية عما سوى الله تعالى . . وآخرها الفناء بالكلية في الله»[(٣)] ؟ .

---

(١) موسى بن ميمون ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص١٥١ .

(٢) محمد أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مكتبة الجندي بمصر ، عام ١٩٧٣م ، ص٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

فإذا لم تكن هذه هي الكلية الكونية (الإيزوتيرية) ، فماذا تكون ؟ لذلك اسمحوا لي أن أقيم مقارنة بين (إيزوتيروتيين) لا صلة بينهما : (الغزالي) وصديقي (اليازجي) ليرى القارئ كيفية التشابه بين كل المتصوفة ، سواء سموا أنفسهم بالعقليين مثل (ندرة) أو بالمدافعين عن الإسلام كحجة الإسلام الإمام الغزالي ، أم قباليين أم هندوسيين أم بوذيين أم طاويين أم (زن) أم ماشئت ، كدلالة على (إيزوتيرية) التصوف من جهةٍ ، وتأكيداً لها من جهة أخرى ، على أن أستفتي القرآن الكريم قبل هذه المقارنة ، عما إذا كان بكلام الله العبارة التي استعملها الغزالي ، أعني عبارة (الفناء) ؟ ! حيث لم أجد من عبارات الصوفية حول الفناء بالقرآن الكريم سوى عبارة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ❖ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرامِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٢٦-٢٧] ، وهي تعني عكس ما ذهبت إليه كل الصوفية ، وبمن فيهم (الغزالي) الذي ادعى أن « الصوفية هم السابقون لطريق الله . . وآخرها الفناء بالكلية في الله »(*) تعالى الله عن ذلك ، من المنطلق الإسلامي .

(*) المرجع السابق ؛ حيث تتلاقى الكلية الكونية البوذية مع وحدة الوجود ، مع المتأله (الباراتوي) المرضي في (إيزوتيرية) كلية واحدة من حيث المعنى المقصود ، وهو واحد بين كل الصوفية أصحاب تلك المذاهب .

إن ظاهـرة الكلـية - تساوي كل الأمور في نهاياتها في بنية نهائـية واحدة - (الإيزوتيرية) أو الكلية الكونية ، التي سماها الأسـتاذ نـدرة : بالحكمـة الكونـية ، تجعـل الإنسـان (يـتجاوز الإشـراطات العديـدة الملـزمة الـتي تقـيد كـيانه ، الإنسان الحر الـذي ينعـتق مـن حرفـية اللفـظ . . وضـيق أفـق التقلـيد والشريعة)[١] .

وهـذا مـا عـبر عنه الغزالي بمنقذه إذ قال : (حتى انحلت عـني رابطـة التقلـيد وانكسـرت علي العقائد الموروثة . . فظهر لـي أن العـلم اليقـيني هـو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب)[٢] .

فكـيف الوصـول إلى عـلم لا ريب فيه ونحن بعالم النقص والمحدودية والتغير والفساد ؟ !

يقـول ندرة : يجب تجاوز هذا العالم (لتحقيق غاية تسمو به - بالإنسان - وتصله بكلية الكون وتوحده معه)[٣] .

ويقـول الغـزالي : « فمـا وراء إدراك العقـل حاكمـاً آخـر إذا تجلـى كـذب العقـل في حكمه ، كما - إذا - تجلى حاكم العقل

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٢ .

(٢) المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص٢٦ .

(٣) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٣ .

فكذب الحس في حكمه»[١] . وهو أي الغزالي ، بعد أن يهاجم الطرق العقلية لبلوغ (السير في درب) الحقيقة من علم الكلام أي المنطق العقلي ، ومذاهب التعليم أي الباطنية ، والعلوم الوضعية ، يصل إلى طرق الصوفية فيقول : « فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق»[٢] وهو أمر يجب تجربته لا دراسته ، لأن هناك (فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد ، . . وبين أن يكون حالك الزهد)[٣] .

ويقول ندرة : «الحكمة الكونية هي الحكمة المستغرقة في ذاتها ، في سكينة الأبدية ، . . تتخلل الوجود وتنبت فيه دون تعيين ، ندعوها الحكمة الإلهية ، . . أو الوعي الكوني ، هي الحكمة التي يدعوها بعض الصوفيين ثيوصوفيا »[٤] ، وهي : «الحكمة التي تميز بها الإنسان الأول الكائن الروحي الذي كان على صلة وثيقة مع الحكمة الكونية الكلية . . قبل ممارسة اتصاله بالواقع المادي عن طريق العقل»[٥] ؟ !

---

(١) المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص٧٠ .

(٤) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٧ .

(٥) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٨ .

هكذا يتفق (ندرة) مع (الغزالي) بضرورة تجاوز العقل بكل معارفه لممارسة سكينة الأبدية حسب ندرة ، والزهد حسب الغزالي ، دون أن يعرف (ندرة) عن (الغزالي) وخاصة منقذه - كما أؤكد للقارئ - شيئاً ؟ ! فقد ولد (ندرة) بعماد بيئة تشغلها الثيولوجيا المسيحية عن التعمق بالإسلام ، ثم اعتنق ثيوصوفية لا علاقة لها بالإسلام أيضاً ، ومع ذلك فها هو ذا يتطابق مع الغزالي ، ليقول لي إن تطابقه هذا حجة له للدلالة على إيزوتيرية الثيوصوفيا الواحدة والكونية ! !

يقول : « تؤمن الحكمة القديمة التي يدعوها بعضهم ثيوصوفيا بكل المبادئ السامية ، وتسعى إلى تحقيق لقاء يوحد أبعاد الفكر الإنساني »[1] الواحد أصلاً ، والذي يختصر المناطقة - كما نرى - واحديته هذه بعبارة من القاطاغوريات - المقولات - هي تحديداً : النوع .

فكما توحد الخيولَ السرعةُ بالجري ، والسباعَ القدرةُ على الافتراس ؛ يتوحد الناس بالفكر ، دونما حاجة لافتراض إنسان روحي أول ؛ ككائن روحي افتراضي لا برهان على وجوده ، سَمَّتْهُ الباطنية الإسلامية (بآدم الصفا) ، مدعية معرفته من

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٩ .

عـالم (الـذر) عـبر (نوميناليـات) اسمية من القيل عن القال التي لا أصل لها سوى الأساطير .

ولأن الأستـاذ نـدرة إنسـان راق ، شـأنه شـأن الغزالي ؛ كان لابـد من أن نلمح تقارباً في وجهات نظريهما ، نلمحها بين كل المـثقفين الذين لا يريدون - إرادة - أن تمر تجربتهم الحياتية دون هدف سامٍ ! ! .

يقـول (الغـزالي) : « حـتى أورثـت هذه العقلة في لساني حـزناً في القلـب ، بطلـت معـه قـوة الهضـم ومـراءة الطعـام والشـراب ، . . وسـهل عـلى قلـبي الإعـراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب »[1] .

ويقـول نـدرة : « وأصـبحت أبـتعد عن التجمعات ، وليس الاجـتماعات ، وأفضـل العزلة وليس الانعزال ، لكي أخلو إلى تفكـيري وأتـامل نفسـي . . مثقلاً بهمٍ لا يبارحني ، . . وجدت نفسي لا أطيق الابتعاد عن الصراع الاجتماعي على قيمٍ زائفة ، كما لا أطيق البقاء في وسطه »[2] ؟ !

تلـك هـي أعـراض الإرادة الإنسـانية الـتي لا تقـبل أن تمر تجربـتها الحياتـية دون هـدف سـامٍ ، وهـي واحـدة في الـنوع

(١) المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص٧٣ .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧١ .

الإنساني دونما حاجة إلى منقذ من الضلال أو أي إيزوتيرية ثيوصوفية يوحدان أبعاد الفكر الإنساني بواحدية كونية، يسميها المنطق: «نوعاً».

نحن إذن أمام صلب مأساة الإنسان التي للغزالي في التراث الإسلامي القديم كما أرى، كما للأستاذ ندرة في تراثنا العربي المعاصر فضل طرحها بهذه الحدة العاطفية الذوقية الجميلة.

وهذا الطرح لخصته الفلسفة الوجودية المعاصرة بعبارة أن الوجود قابل للفهم لكنه غير معقول، فأنا أفهم مثلاً كيفية وروعة وضع اثنين في فراش واحد ليصبحا ثلاثة:

اثنان باتا في فراش معاً
فأصبحا، بينهما ثالث[(١)]

لكنني أجهل (ماهية) ذلك، كما لا أستطيع أن أعقل لماذا بعد أن يتم هذا الخلق المعجز، يزول بالموت بأبسط الأسباب:

قام بنو القومِ في أماكنهم
وغُيِّب في التراب آباءُ[(٢)]

---

(١) اللزوميات، مرجع سابق، ١/٢٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٦.

وهنا ليس موضع ذكر ملايين الأمثلة على لامعقولية هذا الوجود بالنسبة إلى العقل الإنساني ، وربما السبب - كما ذكر منذ (هرقليطس) - هو أن « الطبيعة الإنسانية ليست لديها قدرة على الفهم الكامل »[١] لذلك يبدو « أحكم الرجال قرداً بالمقارنة مع الإله »[٢] .

ولولا التساؤلات الفلسفية لما عرفنا اليوم يقيناً - مرجحاً - أن سبب هذه القدرة المتدنية على الفهم عند الإنسان ، والتي لا يرفعها (بارانوياً) أي عرفان ، هو في أن الدماغ الإنساني شأنه شأن أي عضو حيواني متطور لم يصمم للفهم ، بل صمم فقط للبقاء ، وتحديداً لبقاء نوعه ، شأنه شأن فراء الدب لبقاء نوعه ، وأنياب الجوارح لبقاء نوعها ، وهذه الرغبة التي هي جزء من مسبقات البرمجة في سلالتنا لبقاء النوع هي وراء استهجان الناس لمن يسمع نصيحة (أبي العلاء) القائلة :

عـلى الوُلْـدِ يجـني والـد ولـو انهـم
ولاةٌ عـلى أمصـارهم خطبـاءُ[٣]

---

(١) هرقليطس ، شذرات هرقليطس ، دار الثقافة بالقاهرة ، عام ١٩٨٠ ، ص٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٩ .

(٣) اللزوميات ، مرجع سابق ، ١/٤٢ .

وسبب ذلك (لوغوس) الوجود الذي برمج الخالق به كل الكون ، وهذا (اللوغوس أو القانون العام . . الغالبية تعيش كما لو كان لهم فهم خاص به)[١] لذلك (يخلفون وراءهم أطفالاً ليصبحوا بدورهم ضحايا القدر والمصير)[٢] ، وهذا ما أسميه بالرغبة ببقاء النوع المسبقة البرمجة .

أما علم البيولوجيا والمستحاثات فيقولان لنا إن الإنسان وجد ليبقي نوعه ، مثل سائر الحيوانات لا ليفهم ، فإذا طرأ الفهم على فكره فبسبب توسع هذا الفكر مع دماغه المتوسع منذ خمسة عشر مليون سنة مع (كينيا بوثيكوس Kenyapthecines) إلى نحو خمسة وثلاثين ألف سنة منذ (هومو سابيناس Homo Sapiens)[٣] .

كل هذا يؤكد عبودية الإنسان آنياً وتطورياً ومستقبلاً لخالق (الكلمة Logos) ، التي منها بدأ كل توسع كوني ، وهي أقصى ما يمكن أن نتصوره عن صنعة الصانع ، التي وصفها (عمر الخيام) بقوله :

---

(١) شذرات هرقليطس ، مرجع سابق ، ص٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٥٧ .

(٣) Herbert Thomas, The First Humans, Thames and Hudson, London 1995, p151 .

والمجازات خلِّ وابغ الحقائق

نحن فيه فوارس وبيادق

بين أيدي اللعّابِ وهو الخالق

بيدقاً إثر بيدق نترك الرقعة حتماً

وللفنا نتتالى

فالأماني فيها تظل أماني

ونلاقي ما ليس في الحسبانِ(١)

فاحذر يا عبد الله أن تأبق بالتصوف وشطحاته ؟ ! التي تبدأ من اختلافات تصوراتنا عن (اللوغوس) ، مع رغبتنا الملحة بالخلاص من هذا السجن (في دماغنا الحديث) وتمسكنا به في (دماغنا القديم) ؟ ! فنشبه بذلك سجيناً بإحدى يديه القيد ، وبالأخرى المشلولة مفتاحه ، لذلك تطفح الأرض بالناس في مليارات قريبة من العشرة اليوم ، والكل يشكو منها :

كل من تلقاه يشكو دهره

ليت شعري هذه الدنيا لمن ؟

(١) عمر الخيام ، رباعيات عمر الخيام ، المكتبة الحديثة ، بيروت عن البستاني عام ١٨٦٨ ، ص١٠١-١٠٢ .

حجة التصوف أبو حامد الغزالي[*] ، والأستاذ ندرة اليازجي :

إن الشيء الرائع في فلسفة الغزالي كما أراه هو رفضه بعد أن انزلق بقبول النظامية ، للقب (مفتي السلطان) بسبب ما يمكنني أن أسميه إصابته بمرض ضميره ، بسبب هذه الخدمات السلطانية ، وما يسميه المتصوفة بهذا المعنى : مقام (الحيرة) هو في أحيان كثيرة يقظة ضمير .

وقد بدأت عند (الغزالي) حين تردد (بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر - ثم أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس . . فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة)[١] ، ثم سهل الله عليه ذلك بعد أن عزم على ترك خدمة السلطان والإفتاء له ، وذلك بالإعراض (عن الجاه والمال . . وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلِعَ الخليفة . . فتلطفت باللطائف والحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً)[٢] .

(*) في إقصائه حجج المنطق والكلام والفلسفة الإسلامية كلها بأمر سلطاني لم يبق لديه سوى التصوف ، لذلك لقبته بحجة التصوف – وخاصة بهذا العمل المسمى بالمنقذ من الضلال – لا حجة الإسلام ، فيه على الأقل !؟

(١) المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٤ .

أما أعوان السلطان فكانوا أيضاً محتمين بآرائه التي حتماً تفيد في فتاويه السلطانية ولو بشكل غير مباشر مراكزهم ، يقول : (ومن جهة الولاة . . إلحاحهم في التعلق بي والانكباب علي وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلى قولهم)[1] .

وهنا ، وعلى سبيل المقارنة ، يمكنني أن أسجل شهادة لله ، أن الأستاذ (ندرة) - وعلى علمي به - قاوم مثل هذا الإغراء ولم يتورط به سلفاً ، مما يدفعني إلى التأكيد على صدق توجهاته الصوفية ، مهما كان رأيي بالتصوف بصورة عامة حين ينعكس عليها بما يبدو وكأنه نقد لصوفية ندرة ، وهو في حقيقته بحث عن الحقيقة ميئوس من اكتماله لا لي فقط ، بل لكل حي ، للأسباب التي ذكرتها .

إلا أن المدهش في الأمر والذي فسرته بطبيعة النوع (القاطيغوري)[*] المشتركة عند الناس كافة ، والتي تختزل الزمان والمكان والعقائد كلها فيما أسميته : (بإيزوتيرية) التصوف ، وهو ما يمكن أن يمتد إلى كل إيزوتيرية ، بمعنى تساوي التوجهات الإنسانية في وحدة واحدة بكل علم

---

(١) المرجع السابق ، ص٧٤ .

(*) المقولات .

ومعرفة ، مما يمكننا من كتابة تاريخ هذا العلم وتلك المعرفة ، فنقول مثلاً جاء (إيديسون) بعد (واط) وأنشتين بعد (نيوتن) و(هوكنغ) بعدهما ، في تسلسل غير مقصود بحد ذاته ، لكن به قصدية توجهات متساوية بين الناس ، وبتغير هذه الدهشة من هذا التسلسل المتساوي و(الإيزوتيري) في التصوف ، لا أجد غضاضة من رؤية تساوي فكرين عربيين بينهما فارق دين وزمن طويل ، وللمعترض أقول :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً
ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديداً
وسيغدو هذا الجديد قديما

فالصوفية العقلية « مهما كان معناها » ، هي بالنسبة إلى الأستاذ ندرة حصنٌ (لكل ما يتراءى لي من مجد اجتماعي ، وسيطرة وتملك)[١] لأن كل هذا (من مظاهر الأنا التي تجهل حقيقة كيانها)[٢] .

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص٧٦ .

يقـول ولـيم جـيمس : «عـندما تفـتح الحقـيقة مجالهـا الواسـع ، مـن المؤكـد أنه من الأفضل لنا أن نفتح أنفسنا لتلقي هـذا المجـال»[١] ، ولعـل (السـر) إذا كـان هـناك سـر في التصـوف ، وأعـني الغمـوض في مصـطلحاته إذا اعـتقد بهـا قائلها ، أو مستعملها على أنها حقيقة ، سوف يفتح نفسه لتلقي مجـالات واسـعةٍ مـن معانـيها ، حـتى ولـو كانـت اسمـية (نومينالـية) ، إذا ظـنها واقعـية وقـائع ، فـتح مجـالاً واسـعاً للحقـيقة بهـا ، وهـذا ينطـبق على معظم عبارات الصوفية ، ولا يمكن استثناء عبارة الصوفية العقلية من ذلك .

وأظـن أن المجـال الواسـع الـذي فتحته هذه العبارة للفكر المـرهف للأسـتاذ نـدرة هـو الـذي دفعـه إلى (تجنـب الطمـع والإغـراء وذلـك لكـي أبقى نقياً قدر استطاعتي ، والحقيقة أنني لم أعد أنقاد للآراء والعقائد)[٢] .

وقـال حجـة الصوفية الإمام الغزالي : «إني علمت يقيناً أن الصـوفية هم السابقون»[٣] يقيناً ذاتياً يشبه يقين (ندرة) بالنقاء مـن أجـل الكيان الكلـي الـذي سيستقبله - بعد عمر طويل -

---

(١) وليم جيمس ، مرجع سابق .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٦ .

(٣) المنقذ من الضلال ، ص٧٥ .

(فماذا يقول القائلون في طريق طهارتها ، وأول شروطها تطهير القلب ، . . وآخرها الفناء بالكلية في الله)[١] ، فإذا ظننت أيها القارئ أن هذا الاقتباس الأخير هو من (ندرة) فأنت مخطئ ، إنه من (الغزالي) (انظر المرجع بالهامش) .

تطابق أو شبه تطابق باليقين من مجالات واسعة فتحتها عبارات مثل الفناء والكلية والتطهير ، لكن الاختلاف ، بأن الأستاذ ندرة لا يذكر الله هنا ، ولم يذكره إلا في نهاية بحثه بعبارة الألوهة في الخاتمة الأخيرة بقوله : « أشكال هندسة صوفيا - الحكمة (ثيوصوفيا) - في كل شيء من أشياء الحياة أصبحت أحيا بساطتي التي لا تقبل التجزئة والانقسام ، في محبتي التي تشمل الحياة وكمالها ، علمت الغاية . . في تحقيق الكمال الأرضي أولاً ، وتحقيق الامتلاء الروحي الذي هو السبيل لتحقيق الكمال الكوني المنبث في المعجزة الإلهية العجائبية ثانياً »[٢] ، بينما الله لا (الإلهية) ثانياً هو الأساس عند الغزالي ، وهذا هو الفارق الاعتقادي الديني بينهما ، وهو الذي يفرق تاريخياً وحدة الوجود عن دين الإسلام ، ومن يتمسك بالإسلام وبها ، عمن لا يتمسك .

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص٧٦ .

(٢) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص ٧٩ - ٨٠ .

الاختلاف بين حجة الصوفية (الغزالي) ، وحجة الثيوصوفيا (اليازجي) هو اختلاف بالخلفية الدينية ، وتوافق بنتائج القناعات الناتجة عن المجال الواسع الذي يعطيه ظن الحقيقة وبلوغها عند الإنسان ، فإذا نصحنا (وليم جيمس) بأن نفتح أنفسنا لتلقي هذا المجال ، فلا جديد على مسبقات البرمجة فينا حيث تتلقى غرائزنا كل مجال فكري جديد بترحاب ، حتى ولو كان ضد قناعاتنا السابقة .

لذلك رأى الأستاذ ندرة : « أن الصوفية العقلية تسمو بالعقل إلى مستويات عليا من الوعي »[١] ، ورأى الغزالي أن « وراء العقل طور آخر »[٢] هو طبعاً الصوفية التي هي وراء العقل عند ندرة (تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأموراً أخرى العقلُ معزول عنها)[٣] ، أما أنا فأرى هذه القوة الاستبصارية لا تخرج عن العقل وهي تحديداً : الاستقراء . الذي ليس فيه نبوءة ولا تنبؤ ، ومن ظنها غير هذا ، خرج عن فهم المنطق من جهة والإسلام من جهة أخرى ، لأن علم الغيب من أمر الله وعلمه وحده ، أما توقعه

---

(١) المرجع السابق ، ص٥٥ .

(٢) المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص٧٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص٧٩ .

فمن مسلك علم المنطق (الاستقرائي) ليس إلا ، لذلك لا نبيَّ بعد الرسول ﷺ ، ولا توقع دون (استقراء) يمكن لكل من أتقن المنطق استعماله ، دون أي ميزة أو جنون عظمة صوفية كما عند الغزالي ، أو سمو كما عند (ندرة) .

هنا أصل إلى ضرورة الإشارة الاستقرائية الهامة التي تؤكد : أن كل ما هو قابل للتفسير يفقد صفته الاعتقادية وحتى السحرية ، ذلك أن اليقين المرجح في كل تفسير ، لفكرة أو أمر بحاجة إلى الوضوح والتميز الديكارتي ، عندما نعطيه وضوحه وتميزه هذا ، ندمر سحر الغموض وتأويلاته المختلفة ، وأساسه الاستقراء (Induction) .

وتاريخ البشرية السياسي والاجتماعي والفني والعلمي كله ، شاهد على ذلك ، فقد ظل الطب يعتقد بأن الحميات من نتاج اختلال توازن الاستقصات (العناصر الأربعة) ، مع الجهل الذي كان يظنها بسبب تلبس الشيطان ، بسبب نفحات الجحيم القادمة معه ، إلى أن كشف الطب سببها الميكروبي والفيروسي ، فزال الغموض السحري الذي لازم الاعتقاد بذلك ، كما اتضح الغموض الطبي حول العناصر الأربعة ، ولكن هذا لا يعني أن يقيننا الطبي الحديث هذا ، قد حل مشكلة الفيروسات كما حل بعضاً من مشكلات المكروبات ، لكنه يعني السير على المسار الأقرب إلى الصحة .

وبمثال آخر من علم الفضاء الذي كان يخشى على الأرض من التدمير النيزكي حتى (أنشتاين) دون أي علم له بخطر الثقوب السوداء الأدهى من تصادم النيازك ، وحتى من تصادم المجرات ؟

بالاستقراء لا بالتنبؤ (أصبحت الثمار العلمية التي وعد بها (هتف) في متناول اليد ، فالتلسكوب . . يمسح أسطح الكواكب ، ومراقبة النجوم (السوبرنوفا) وهي تنفجر ، ويدرس بنية المجرات ، ويستوثق من وجود الثقوب السوداء)[(١)] .

بالاستقراءات ذاتها التي استعملها (غاليلو) تغير اليوم للأبد فهمنا للكون[(٢)] ؟ !

بينما نحن ما زلنا - أمّةً - في أسر عقدة النبوءات النفسية ، ندخلها من أبواب الذوق لتخرجنا من أبواب صناعة الأتباع والفرق والتشويشات الاعتقادية .

وإذ أحذر المشتغلين بالتصوف من هذا ، لا أربأ بهم من العقد النفسية التراثية - عقدة النبوة - فقط ، بل عليهم ؛ بوصفهم أصحاب ذوق مرهف ؛ ألاَّ يقعوا في فخ اجترار

---

(١) كارولين بيترسون ، رؤية هابل ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ١٩٩٨م ، ص٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص٧٥ .

إرجاعـات لا منهجية لمجموعة من المعارف القديمة التي أكل علـيها الدهــر وشــرب ، وهــذه الإرجاعـات الــتي يســمونها (حكمـة) إلهية أو بشرية ، كونـية أو إشـراقية ، أسيرة فكـر (تمـوزي) و(بـراهمي) و(بـوذي) عمـره آلاف السـنين ، وواحدنـا الـذي لا يعتـبر متعصباً إلا للحقيقة ، إذ يغير قناعاته مـع تغير الوقائع المعرفية أمامه خلال عشرات السنين ، إذا هو لم يستطع أن يغير قناعات عمرها آلاف السنين ، فبأي حق له أن ينـتقد (الفانـاتك Fanaticism) الـذي لا يقـدر على تغيير قـناعاته بـتغير الوقـائع ، وهو يعمل على تثبيت ما يظنه وقائع (Facts) وهــي مجـرد تخميـنات ، مـن تخرصـات شـعوب كانـت في عـتمة الجهـل المطـبق بكل معاني الواقعة الحقيقية ، شعوب لا تميز بين التنبؤ والاستقراء ؟ !

وإنـي لأعجـب ممـن كتـب عـن (الاسـتقراء) في المنطق كـيف لا يسـتعمله هـنا ، وإن كـان سماه (معيار العلم) حتى يتجنـب كـلمة مـنطق بحـيدة شكلية ، حين يقول : « هو تصفح جزئـيات كـثيرة داخلة تحت معنى كلي ، إذا وجدت حكماً . . حكمـت عـلى ذلـك الكلـي بـه »(١) وبتعـبير معاصر هو - أي

---

(١) أبـو حـامد الغـزالي ، معـيار العـلم (في المـنطق) ، دار الأندلـس ، بيروت ١٩٧٨م ، ص١١٥ .

الاستقراء - تحويل المشاهدة إلى مفهوم من خلاله يمكن استعادة حدوث أي ظاهرة متى نشاء .

إنه السياق الفكري الذي يأخذنا من قضية تجريبية إلى القانون الذي يحكمها ، فبأي تجريبية استطاع (الغزالي) أن يستقرئ أن الطريق إلى الله هو الفناء ، وليس عنده في القرآن أي دلالة على ذلك ، ولا في فناء الأموات إمبيريقياً ؟ !

هل ملَّ الغزالي من معيار علمه ودينه أيضاً ليقول : « حتى انحلت رابطة التقليد وانكسرت العقائد الموروثة » ، بسبب ضميره الذي استيقظ من خدمات تقديم الفتاوى السلطانية ؟ .

لقد كان حرياً بالغزالي أن يميز بين تقاليد الجهاد المرتد بين الفرق الإسلامية الذي أوصل العباسيين إلى السلطة ، وبين التقاليد الإسلامية التي تحض على العلم ، والمنطق أداته ، لا غيبوبة الفناء الصوفية ، وما ظنه الغزالي : « ضيق أفق التقليد والشريعة » كما قال ، هو ضيق أفق أصحاب الفرق السلطوية التي تلوي الشريعة كي تلائمها ، وليس من الصعب رؤية رأس هذا (اللّيِّ) واستقراؤه بتحويل الخلافة إلى ملك عباسي ؟

إن ثوابت الشريعة ثابتةٌ كاملة لمن يريد استقراءها ، لكن السفسطة التي يعرِّفها الغزالي جيداً بقوله : إنها تنشأ من

(مواضع الوقف والابتداء مثلاً : قوله تعالى : ﴿إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٣/٧] إذ له معنيان مختلفان . . في إحدى المقدمتين بمعنى ؛ وفي الثانية بمعنى آخر ، فيبطل الحد المشترك)[١] فيبطل الاستقراء ويتحول إلى استدلال تحكمه مقدمات من يسفسط دون أن يطلعك عليها ! !

وربما مارس الغزالي هذه القاعدة التي ذكرها سابقاً في (تهافت الفلاسفة) في تبيانه على « عجزهم عن إقامة الدليل على أن الله واحد »[٢] من أجل تكفيرهم وإلغاء الفكر ، كما كان يمارسها بتكفير كل مسلم لا يسلم بالملك لأسياد (نظام الملك) ، الذي كانت صلته قوية به . وهي أداة جيدة في كل تكفير ، استيقظ ضمير الغزالي على رفضه في كل ما كتبه حول الصوفية ؛ سواء بمنقذه حيث صرح ، أم بـ (معارج القدس)[٣] حيث ذهب إلى ضرورة إماتة الرغبة ، كخطوة نحو ما وصل إليه ليعيد تراثنا إلى ما قبله من عقائد تحتقر الإرادة والرغبات .

---

(١) المرجع السابق ، ص١٥٥ .

(٢) الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨ ، ص١٥٨ ومابعدها .

(٣) الغزالي ، معارج القدس ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٨م ، ص٧٧-٨٣ .

هكذا تدرج (الغزالي) من إلغاء الفكر - بإلغاء الفلسفة- إلى إلغاء الرغبات ، فلم يبق بالنفس الإنسانية - حسب مفهومها الحديث اليوم - سوى المشاعر والضمير ، حيث أطلق الأولى ليسكت الثاني ، فصار صوفياً ؟ !

ويتفق الأستاذ ندرة مع كل الصوفية - والغزالي منهم وهو حجتهم - بقوة الضمير وفيضان المشاعر الإنسانية ، لكنه لم يكن بحاجة إلى إلغاء الفكر ، ولا هو دعا إلى إلغاء الرغبات ، ومن هنا كان اختلافه الجذري عن المتصوفة ، فالأثر الميستي الواضح من مسيحيته ، مضافاً إليه شغفه بالإيزوتيرية الثيوصوفية التي شأنها شأن الهندوسية في قبولها لكل فكر شرط أن يقول بالكلية الكونية ، ومنطلقاته التي تحمل من الرواقية كل قبول بالأمر الواقع ، إضافة إلى حبه لكل بني البشر دون أي تمييز ، إضافة إلى ما في شخصيته الفردية من شفافية ولطف وإخلاصٍ طبيعي ، كل هذه العوامل مجتمعة ، تجعل منه كما سمى نفسه : « صوفياً عقلانياً » لا يرفض العقل بقدر ما لا يسمح له أن يكون الحاكم الأول والأخير على رؤيته إلى مصيره من حدوسه الصوفية والثيوصوفية .

والذي يتابع مؤلفاته في السنوات العشر الماضية بين ١٩٩٤م و٢٠٠٤م ، يجد له كتاباً بعنوان (بحوث فلسفية) ،

وآخـر بعـنوان (الطريق إلى الحوار) ، لا يخرجان عن مبادئه الثيوصوفية التي تركها في كل نفحات كتاباته ، وامتنع عنها في حواراتـه ؟ مهـتماً بالكلمة المكتوبة ، أما الكلمة المنطوقة فيريد سماعهـا مـن الآخـر لأنـه يعـرف مـا لديه ، فإذا عرف ما لدى الآخـر والـتقى معـه في نقطـة مـن نقـاط فكره أو أكثر (هكذا بدأت أضم العالم في كياني)[١] ، ضمة (طاوية) جيدة .

وأظـن أن (تكتـيكاً) هندوسـياً مشـابهاً سمـح لنحو سبع مـئة مليـون أن يظلـوا عـلى هـذه العقيدة ، وسمح للأستاذ ندرة بتوسـيع حـدود اللغـة مـن الخطابـية والمشـاحنة والوعظ ، إلى الحـوار ، وهـو بهـذا المعـنى يستشـهد بقـول محيي الديـن بن عربي :

عَقَــدَ الخلائــقُ في الإلــهِ عقــائداً

وأنــا عَقَــدْتُ جمــيعَ مــا عَقَــدُوهُ[٢]

كذلـك يقـوي هـذا الأسلوبُ الروابط بين الناس ، فإن أنت تركـت محدثـك يفضي بما لديه من أقوال ، ولاحظت إيماءاته كـيف تـتحول مـن توتـر في بدايـة الرغبة الفطرية بحب الكلام

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٢ .

(٢) ندرة اليازجي ، الطريق إلى الحوار ، دار أمواج ، بيروت ٢٠٠٤ ، ص١٤٣ .

والتعبير ، إلى انشراح الأسارير لأن هناك من يقدر سماعها ، كسبته صديقاً من خلال لغة جسده ، دون أن يدري ، أو يعترف إذا كان مشاكساً نزقاً كحال معظم من يسمون أنفسهم مثقفين عندنا .

ومن خلال الثيوصوفية من جهة والعقلانية من جهةٍ أخرى وضعنا الأستاذ ندرة مسبقاً أمام صوفيته التي أعطاها صفة العقلية لا من خلال حب الحكمة الذي فقد صلته مع الحكمة القدسية[(١)] (ولن نعرف كيف ومتى) ، بل وبكل بساطة قرر منذ كتابه : (بحوث فلسفية) أن صوفيته هي الموجه لعقلانيته الفلسفية ، قال في مقدمة كتابه المذكور : « فما رأيته في تأملي سابقاً أراه الآن في عقلي »[(٢)] دون أن يوضح لنا كيف يمكن للعقل أن ينفصل عن التأمل ؟

الصوفية العقلية

إن قارئ (الصوفية هي الحكمة) سيجد نفسه أمام مصطلح كرره الأستاذ ندرة وهو (الصوفية العقلية) التي تحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، يقول في نهاية بحثه : « هذه

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٨-٥٩ .

(٢) ندرة اليازجي ، بحوث فلسفية ، دار الغربال ، دمشق ١٩٩٤م ، ص٦ .

هي الصوفية العقلية التي تبنيتها في مرحلة الشباب . . بددت ظلام حياتي . . وفي مرحلة حياتي الحاضرة تحققت صوفيتي العقلية في مثالية الصوفية »[١] .

وقد أشرت في أثناء هذا التعليق إلى (كانط) ، الذي يعرف كلُّ باحث في الفلسفة أنه قد وفق بين المثالية والتجريبية ، لكن ضمن إطار الفلسفة ، فأنت تستطيع أن توفق بين أي اتجاهين ضمن حقل معرفي واحد ، كأن توفق - بمعنى أن ترى أوجه الشبه - بين الأديان التوحيدية في حقل الدين ، أو أن ترى أوجه الشبه بين ما رآه (باستور) من مكروبات ، بمكرسكوبه ، وبين ما يراه آخر ميكرسكوب إلكتروني من (D.N.A) هذه الكائنات اليوم ، لكنك لا تستطيع أن توفق بين متمانعات معرفية ؟ ! وإن فعلت كما فعل الأستاذ ندرة بين الصوفية والفلسفة ، فإنك تحتاج إلى جهد كبير كي تقنع قارئك ، خاصة إذا كان من أصحاب الاتجاهات الفلسفية ، إذ يكفي للصوفي أن يتذوق فكرة تعجبه حتى يعلن قبول روحه لها ، سهولة لا أضمن تقلب الأحوال فيها ، كما في كل تصوف ، لأن المزاجية الذوقية سيدة الموقف فيه .

ومع هذا ؟

---

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٧٩ .

سأحاول جهدي أن أرجع إلى ما أفاض به الأستاذ ندرة حول هذا التوفيق خارج ما كتبه عن (الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة) ، حيث أوجز أمراً من الضروري إيضاحه ، قبل الاسترسال بوضع العناوين حوله لا فيه ، حتى لا يظن القارئ أن هذه حقيقة يجب اتباعها فقط من جهة ، ومن جهة أخرى من خلال أمانة التعليق والشرح للحقيقة التي نبحث عنها مع ندرة والقارئ ، وأخيراً معي إذا كان لي قدرة على البحث دون أن يظن صديقي فيما أكتب أي نقد أو تجريح ، فأنا حقاً وصدقاً لا أستطيع أن أخوض بين المتمانعات المنطقية على أنها مجرد متعارضات ، وأرجح أن التصوف حتمياً متمانع مع التفلسف ، لأن كلاً منهما يتحرك في مستوى معرفي له قواعده الخاصة .

ولأن شرح صديقي قليل حول هذا الأمر ، حتى في كتابه الذي أفرده للفلسفة (بحوث فلسفية) ، ومع ذلك سأبرز بعضه استكمالاً لما قد يكون نقصاً فرضته ضرورة الإيجاز في (الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة) ، يقول بأول عناوين كتابه (بحوث فلسفية) تحت عنوان : الإيمان والعقل والإرادة :

إيماني بنفسي يقودني إلى الحقيقة . . فالإنسان يفكر ثم يعقل ؟ . . ويتألم ثم يعقل . . لا أستطيع أن أقسم نفسي إلى

أجـزاء متـنافرة . . الإرادة . . هـي التعقل . . الإنسان يؤمن على الـرغم مـن أنـه لا يسـتطيع أن يـبرر هـذا الإيمان . . الإيمان لا يخرج عن دائرة العقل[١] .

وتحت عنوان التأمل :

أبـدو أمـام نفسـي وحـدة قائمـة . . فأنا أحيا ضمن ذاتي ، لأنهـا تحـتوي الكـون المادي بأسره . . وأنا أبقى ضمن كياني ، أراقـب وأرى . . أتعـلم مـع مـرور الأيـام ، أنـني لا أستطيع أن أفهـم قـيمة الجمـال إن لم أتأملـه . . وهـا أنـا ذا أتـأمل كل ما يصل إلي عن طريق السمع والبصر أو اللمس[٢] .

وحـتى لا يظـن القـارئ أنـني أنقصـت أي معـنى مـن هـذه الإرجاعـات التي حذفت منها الاستطرادات فقط ، سأضع نص هذا الإرجـاع الأخـير كـاملاً ، وعـلى من يريد مزيداً من التأكد العودة إلى الكتاب الأصلي الذي وضعت له صيغة إرجاعية سابقة[*] .

---

(١) بحوث فلسفية ، مرجع سابق ، ص٧ -١٥ .

(٢) بحوث فلسفية ، مرجع سابق ، ص١٦-١٧ .

(*) نص الإرجاع السابق كاملاً هو :

أبـدو أمـام نفسـي في وحـدة قائمـة ، وتعمـل هـذه الوحدة، وهي الأنا، بهدوء وسـكينة كمـا تعمـل في صـخب وفوضـى، ومـن خـلال السـكينة تبدو الحياة بأجلى مظاهرها.

وأنـا مـن خـلال مجـالاتي كـلها ومظاهـري ، ومـن خـلال العوامـل الطبيعـية =

وإليـك أيهـا القـارئ مقارنـة بـين هـذا الكـلام ومـا قالـه (الحـلاج) حـتى لـو كان هناك اختلاف بالمعنى الواضح جداً لصاحبه فقط ، يقول الحلاج[١] في طواسينه طبع (كولونيا)[٢] حول إمكان فهم التصوف عقلياً :

« الحقـيقة لا تلـيق بالخلـيقة ، الخواطـر علائـق ، وعلائـق الخلائـق لا تصـل إلى الحقـائق ، الإدراك إلى عـلم الحقـيقة صـعب فكيف إلى حقيقة الحقيقة ؟ وحق الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق »[٣] .

=

المـتعددة الـتي تتقلـب من الطرف الأقصى إلى الطرف المقابل، أحيا وأعيش . وأجدني ، في كـثير مـن الأحـيان، أتقلب بين هذه الأطراف التي تريني مركز الوجـود الـذي هـو أنـا . فأنـا أحـيا ضـمن ذاتـي لأنهـا تحـتوي الكون المادي بأسـره ، ولا أخـرج عـن هـذه الأنا على الرغم من اعتقادي بوجود الكائنات الأخرى والعالم المادي والروحي ، وذلك لأنني أشكل كياناً . وأنا أبقى ضمن كياني، أراقب وأرى .. إلخ .

(١) أبـو المغيـث الحسـين بن منصور الحلاج ، كتاب الطواسين ، كولونيا ، ألمانية الاتحادية ، عام ١٩٨٧م .

وانظـر أيضـاً لأبـي المغيـث الحسـين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي ، كتاب الطواسين ، مكتبة بول غوثنر ، باريس ١٩١٣م .

(٢) طواسين (كولونيا) ، مرجع سابق ، ص٨ .

(٣) طواسين (كولونيا) ، مرجع سابق ، ص٨ .

ويقول الأستاذ ندرة :

« لا أستطيع أن أعبر بواسطة اللغة عن عمق حقيقتي »[(١)] ، وهذا هو الصواب .

سواء سميناها بحثاً فلسفياً أم صوفية عقلانية ، أم وحدة وجود ، أم أي تسمية أخرى تضم معاني الواحدية الكونية (وإن قلت توحيد ، كيف يرجع المتوحِّد إلى التوحيد)[(٢)] .

لذلك يرجع كل نقد لهؤلاء المتصوفة لينحصر في نقد معاني كلماتهم وما تشير إليه دلالاتهم ، وهو تماماً على النقيض مما يشعرون ، ونحن البحاثةَ عن المعاني تلتبس علينا مباني كلماتهم لأننا نعجز عن سبر مشاعرهم التي دفعتهم إلى هذا الكلام ، فكلمات مثل :

« إيماني بنفسي يقودني إلى الحقيقة » لا معنى لها دون شرح معنى نفسه التي تتميز بشيء لا يشعر به سواه ، وللحقيقة معنى ذاتي هنا أيضاً .

فالجملة غامضة ، وكل جملة غامضة لا علاقة للفلسفة بها ، ولها أشد العلاقات بالتصوف أحياناً ، دون أن يعني

(١) بحوث فلسفية ، مرجع سابق ، ص٤٩ .

(٢) طواسين (غوثنر) ، مرجع سابق ، ص٥٩ .

هـذا محاولـة شرحها ، فلنتركها تغرد في فم صاحبها كيف شـاء ، لذلـك لا أنصـح بقـراءة لا (بحـوث فلسـفية) ولا (الصوفية هي الحكمة المتحققة بالحياة) لأجل أي غرض نقـدي ، بـل لـنترك صاحب هذه البحوث يضمنها في أقواله حـين نـراه ، آنـذاك أعـدك أيهـا القـارئ بمـتعة لقاء (ندرة اليازجي) .

فـإذا قلـت لـي : مـن أيـن ألـتقي الحـلاج أو الغـزالي أو سـواهما مـن المتصـوفة الذين ذكرتهم أو لم تذكرهـم ، لأحظى بمـتعة فهـم ممكـنة أو غـير ممكـنة مـنهم ؟ أحـيلك في حـال الغزالي إلى (كارادوفو) وفي حال الحلاج إلى (نيكلسون) ، أمـا أن تقرأ الأستاذ ندرة من خلال أمثالي ممن « تراجعت إليه الحكمـة البدئـية عـن علاقاتهـا الوثـيقة مـع الحكمـة الإلهـية » فسـأزعجك بالتسـاؤلات عــن ماهـية هــذه الحكمــة البدئــية ومعـناها ، وعـن كيفـية وصـول الحكمـة الإلهـية إلى الفـانين أمثالـنا ، وبغـير ذلك من تساؤلات ؛ يعتبرها أصحاب الأحوال الصوفية مفسدة لنشوة الاستطراد .

قـال كـارادوفو : « إن عمل الغزالي بوجه خاص يقوم على الاستقصـاء في الفـروق ، وفيما دق من التحليل النفسي ، وهذا مـا يجعـل تلخيصـه مـتعذراً . . ولـيس لديـنا حيلة غير تقديم

فكـرةٍ عـنه ببعض الأمثلة »[1] ، فإذا أضفنا إلى ذلك مقارنته مع (نـدرة) استطعنا أن نتجنـب قدر الإمكان التساؤلات المفسدة لنشوة الاستطراد في كل ما كتبه الأستاذ الحبيب ندرة اليازجي . كذلـك فعلت بينه وبين سواه من المفكرين وأصحاب المذاهب الـتي تركـت صـداها في فكـره ، فـإذا قـرأت هـذا التعلـيق أيها القـارئ ، فهـذا يعني أنك على علم بصعوبات شرح التصوف ، فمـا بـالك إذا كان المطلوب شرح فكر صوفي - صديق - من رجـل لم يعـود نفسـه إلا عـلى الوقـائع الواضـحة والمتمـيزة ، كـأدواتٍ في معالجـة مشكلة مصيرنا نحن البشر ، بشكل عقلي بحـت لا مجـال فـيه لا للـذات ولا للمشـاعر ، إلا كجـزء مـن (الطاقـات والقـدرات) التي تحفز العقل ليس إلا ، مدة ثلاثين سـنة لا قـيمة فيها إلا لبعض المعادلات الفكرية التي انبثت في أعمالي .

وأسلوب المقارنـة الـذي اتبعته في هذا المجال ، قد يكون به كـثير مـن المـآخذ ؛ لكنه الطريقة الوحيدة - لفهم - لمحاولة فهمٍ مسـتحيلةٍ لأي صـوفي نحـاول دراسـته ، فإذا قلت لي : هل (ندرة اليازجي) بمستوى من قارنت من المذاهب وأعلام التصوف ؟

---

(١) الـبارون كارادوفو ، الغزالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت عام ١٩٨٤ ، ص١٣١ .

أجبتك : حتماً هو ككل صوفي في مراقي المشاعر من النوع البشري الفريد في صفائه ولطفه ، وحتى في عدم قدرته على تحمل غير المشاعر الرقراقة ، ولا تعني - برأيي - عقلانية بعض هؤلاء ، بل تعني الدلالة على رصانتهم ، إذ لا صلة لها لا بالمذاهب المثالية ولا التجريبية ولا الميتافيزيائية التي نعرفها ، وإذا أردنا أن نعطيها حكماً - على تجنبي لذلك - أقول :

« الحكمة التي تميز بها الإنسان الأول ، الكائن الروحي الذي كان على صلة وثيقة مع الحكمة الكلية الكونية . . قبل ممارسة اتصاله بالواقع المادي عن طريق العقل »[١] .

ولا تسألني عن معنى هذا : فأنا لا أعرف ؟ !

(١) الصوفية هي الحكمة ، مرجع سابق ، ص٥٨ .

الفهرس العام

تعاريف*

إعداد : محمد صهيب الشريف

الإرادة

(في اللغـة) ميل يعقبه اعتقاد النفع؛ وهي صفة توجب للحي حالاً يقع مـنه الفعـل عـلى وجـه دون وجـه، وفي الحقـيقة هـي مـالا يتعلق دائماً إلا بالمعدوم، فإنها صفة تخصص أمراً ما لحصوله ووجوده.

الاستنساخ Clonning

هـو تكويـن كـائن حـي كنسـخة مطابقـة تمامـاً مـن حيـث الخصائص الوراثـية، والفيزيولوجـية، والشـكلية لكـائن حي آخر، كفردي توءم البيضة الواحـدة مثلاً. فالاستنساخ هو توالد لاجنسي، لايحدث فيه إخصاب لبيضة الأنـثى بـنطفة الذكـر. فالخلـية، في التوالد اللاجنسي، تشرع بتكوين الجنين،

---

* تعاريف المصطلحات الورادة هنا ليست مطلقة المعنى ، ذلك أن المؤلف يمكن أن يختـار معـنى محدداً للمصطلح يستعمله في كتابه ، وإنما وضعنا ما وضعناه من تعريفات لمساعدة القارئ غير المختص على فهمٍ أفضل للنص .

ومن ثم الفرد البالغ دون مشاركة الذكر، أي إن الفرد المستنسخ لا أب له.

الاشتراكية Socialism

نظام اجتماعي اقتصادي قائم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وتبنى الاشتراكية على شكلين من الملكية: ملكية الدولة العامة والملكية التعاونية والجماعية. وتقتضي الملكية العامة انعدام وجود الطبقات المستغلة واستغلال الإنسان للإنسان، وتقتضي وجود التعاون بين العمال المشتركين في الإنتاج. وفي ظل الاشتراكية لا يوجد اضطهاد اجتماعي وعدم مساواة بين القوميات، كما لا يوجد تناقض بين المدينة والريف، وبين العمل الذهني والبدني.

الاكتئاب Depression

صعوبة في التفكير، واكتئاب يصيب النفس، وكساد في القوى الحيوية والحركية، وهبوط في النشاط الوظيفي، وقد يكون له أعراض أخرى كتوهم المرض، وأوهام اتهام الذات وتوهم الاضطهاد، والهلوسة والاستثارة.

وللاكتئاب ثلاثة مستويات من الشدة، هي الاكتئاب الخفيف، والاكتئاب الحاد، والذهول الاكتئابي.

ومن أخطر سمات الاكتئاب الميل للانتحار، وهو ميل موجود طوال فترة الإصابة بالمرض، وفي دور النقاهة.

الأنطولوجيا Ontology

مذهب فلسفي في الوجود عامة، الوجود بما هو وجود، إن فكرة وضع الأنطولوجيا مبحثاً خاصاً عن الوجود، لا علاقة له بالعلوم الجزئية الخاصة، قد لاقت صياغتها المتكاملة على يدي فولف (أواخر القرن التاسع عشر) كان فولف يرى أن بالإمكان بناء نظرية فلسفية عن جوهر العالم على نحو

فكـري بحـت، اعتماداً على تحليل مفاهيم المنطق وحده، من دون التفات إلى الـتجربة، إن الأنطولوجـيا المبنـية بهذه الطريقة تشكل أساس العلوم الجزئية كافـة . تقوم الأنطولوجيا على تصور مفاده أن العالم (الوجود بما هو وجود) يوجد بمعزل عن الفردي، وأنه يشكل ماهية هذا الأخير وعلته.

وتعرضـت الأنطولوجـيا لـنقد مـن المثالية الكلاسيكية الألمانية، ونعت أنصـارها الأنطولوجـيا بأنهـا عقـيمة وبالـية، وطرح هيغل، في قالب مثالي، فكرة وحدة الأنطولوجيا والمنطق ونظرية المعرفة.

إيديولوجيا Ideoligy

مـن أعقـد وأغـنى المفاهـيم الاجتماعـية، يعتبر كارل مانهايم أن هناك صنفين من الإيديولوجيا: المفهوم الخاص والمفهوم الشامل.

فالإيديولوجـيا بمعـناها الخـاص هـي مـنظومة الأفكـار التي تتجلى في كـتابات مؤلـف ما، تعكس نظرته لنفسه وللآخرين، بشكل مدرك أو بشكل غـير مـدرك. أمـا الإيديولوجـيا بمعـناها العـام فهـي منظومة الأفكار العامة السائدة في المجتمع.

بارانويا (جنون الهذاء) Paranoia

مـرض عقلـي مـن فـئة الذهان، يتميز بوجود هذاء (أفكار شاذة وغير منطقـية توجد لدى المريض، ويعتقد في حتميتها، ويستحيل إقناعه ببطلانها) مـنظم وثابـت مـع احـتفاظ الشخصـية عادة بإمكاناتها العقلية، دون تدهور ناتج عن استمرار فترة المرض.

ويـتخذ المـريض مـن إمكاناتـه العقلـية الـتي لم تـتدهور، ومـن مظهره الخـارجي السوي سنداً لتبرير صدق معتقداته الهذائية، والدعوة بين المحيطين بـه لتصـديقها، ومـؤازرة دعـواه، وفي أغلـب الأحـيان توجـد لدى المريض هلاوس سمعية وبصرية، تؤيد هذاءاته وتساندها.

الباطنية Esoterism

نسبة إلى الباطن، وهو مقابل الظاهر. والباطنية هم الذين يجعلون لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. يطلق على فرق إسلامية عدة اسم الباطنية: كالخرمية، والقرامطة، والإسماعيلية، وعلى فرق غير إسلامية كالمزدكية. والتعلمية اسم آخر يطلق على الباطنية في خراسان، وقوام مذهبهم إنكار تشبيه الله بالمخلوقات، فلا يصح عندهم أن نصف الله بصفات خلقه، فتقول: إنه عالم، أو جاهل، أو موجود، وعندهم أن في العالم العلوي نفساً كلية، وعقلاً كلياً، ويقابلهما في العالم الدنيوي الأساس أي الإمام، والناطق أي النبي، والعقل أكمل من النفس التي تصل بالشرائع إلى مرتبة الكمال، حيث يحصل اتحادها بالعقل.

البنيوية Structuralism

يستخدم مفهوم البنية، ولكن بمعانٍ مختلفة نسبياً، في علم الاجتماع، وفي الإنتربولوجيا، وفي الاقتصاد.

فالبنية تعني وجود علاقات ثابتة، ضمن نسق واحد.

ويمكن للبنية أن لا تنغلق بالواقع التجريبي، بل بالنماذج التي تقوم ببنائها، انطلاقاً من هذا الواقع التجريبي.

البوذية Buddism

هي ديانة ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت في بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير.

أسسها (سدهارتا جوتاما) الملقب ببوذا (٥٦٠/ ٤٨٠ ق. م) يعني المعتكف، وقد نشأ بوذا في بلدة على حدود نيبال في أسرة كان أميراً يعيش فيها حياة النعيم والترف. ولما بلغ السادسة والعشرين هجر زوجته منصرفاً

إلى الزهد والتقشف والخشونة في المعيشة والتأمل، وعزم على أن يعمل على تخليص الإنسان من آلامه التي منبعها الشهوات ثم دعى إلى تبني وجهة نظره حيث تبعه أناس كثيرون.

التجريبية (إمبريقية) Empiricism

تعاليم نظرية المعرفة التي تذهب إلى أن التجربة الحسية هي المصدر الوحيد، وتؤكد أن كل معرفة تقوم على أساس التجربة ويتم بلوغها عن طريق التجربة. والتجريبية المثالية (بركلي وهيوم، وماخ)، والتجريبية المنطقية الحديثة تقصر التجربة على المجموع الكلي للإحساسات أو الأفكار، منكرة أن التجربة تقوم على أساس من العلم الموضوعي. أما التجريبيون الماديون (فرانسيس بيكون، وهوبز، ولوك والماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر) فيعتقدون أن العالم الخارجي الموجود موضوعياً هو أصل التجربة الحسية.

وأوجه النقص في التجريبية هي: المبالغة الميتافيريقية في دور التجربة، والتقليل من أهمية دور التجريدات والنظريات العلمية في المعرفة، وإنكار الدور الإيجابي والاستقلال النسبي للفكر.

التعددية Pluralism

يستعمل المصطلح أحياناً لوصف مجتمع مكون من طائفة مجموعات مختلفة (عرقية أو دينية.. إلخ)، واكتسب المصطلح معاني أكثر دقة في علم السياسة. ويستعمل مصطلح التعددية غالباً في نمط معياري أو مقرر. والتعددي شخص يؤمن بأنه ينبغي مشاطرة السلطة بين المجموعات والمصالح المختلفة في المجتمع، وإن القرارات السياسية ينبغي أن تمثل المساومة المتدفقة تدفقاً حراً والتوفيقات بين مثل هذه المجموعات.

التفكيكية Deconstruction

يعرفها دريدا ((بأنها تهاجم الصرح الداخلي، سواء الشكلي أو المعنوي للوحدات الأساسية للتفكير الفلسفي، بل تهاجم ظروف الممارسة الخارجية، أي الأشكال التاريخية للنسق التربوي لهذا الصرح، والبنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك المؤسسة التربوية)).

التفكيكية تقوض النص بأن تبحث داخله عما لم يقله بشكل صريح واضح (المسكوت عنه)، وهي تعارض منطق النص الواضح المعلن وادعاءاته الظاهرة، بالمنطق الكامن في النص، كما أنها تبحث عن النقطة التي يتجاور فيها النص القوانين والمعايير التي وضعها نفسه، فهي عملية تعرية للنص وكشف أو هتك كل أسراره، وتقطيع أوصاله وصولاً إلى أساسه الذي يستند إليه، فيتضح هذا الأساس وضعفه ونسبيته وصيرورته فتسقط عنه قداسته وزعمه بأنه كل ثابت متجاور.

التنمية Development

تعني الكلمة عموماً التوسع أو النمو أو التحسن في الملك أو الأوضاع.

وهي سياسة تلجأ إليها الدولة للتخلص من التبعية الاقتصادية، والنهوض في كافة القطاعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة، وذلك بتحسين نوعية الإنتاج وارتفاع مستوى الدخل، والتنمية تتطلب توجيه مجمل الموارد المادية والبشرية نحو زيادة مجمل الإنتاج القومي. والتنمية تعني بالدرجة الأولى التنمية الاقتصادية التي تؤدي بالضرورة إلى التنمية الاجتماعية الشاملة.

ولكي تتحقق التنمية للدول فإن ذلك يعتمد على عدة عوامل منها التخطيط الاقتصادي السليم، وتكوين رؤوس الأموال العينية بتشجيع الادخار الحكومي، ومتابعة التقدم التقني.

التنوير Enlightenment

اتجاه سياسي اجتماعي، حاول ممثلوه أن يصححوا نقائص المجتمع القائم، وأن يغيروا أخلاقياته وأساليبه وسياسته وأسلوبه في الحياة، بنشر آراء في الخير والعدالة والمعرفة العلمية. ويكمن في أساس التنوير الزعم المثالي بأن الوعي يلعب الدور الحاسم في تطور المجتمع والرغبة في نسبة الخطايا الاجتماعية إلى جهل الناس وافتقادهم إلى ثقتهم بطبيعتهم. ولم يكن مفكرو التنوير يضعون في اعتبارهم الدلالة الحاسمة للشروط الاقتصادية للتطور، ومن ثم لا يستطيعون كشف القوانين الموضوعية للمجتمع. وكان مفكرو التنوير يوجهون مواعظهم إلى جميع طبقات ومصاف المجتمع، ولكنهم كانوا يوجهونها في الأساس إلى أولئك المسكين بالسلطة. وكان التنوير ينتشر في فترة الإعداد للثورات البورجوازية. وكان من مفكري التنوير (فولتير وروسو ومونتسكيو وهيردر وليسنج وشيلر وغوته). وقد ساعد نشاطهم بقدر كبير على التغلب على نفوذ الإيديولوجية الكنسية والإقطاعية ومناهج التفكير المدرسية (السكولائية). ومارس التنوير تأثيراً كبيراً على تكوين النظرة العامة الاجتماعية للقرن الثامن عشر.

الحتمية Determinism

مذهب فكري انتشر في كل من التاريخ والعلوم السياسية.

يقول أتباع هذا المذهب: إن جميع الحوادث ليست سوى نتيجة لأسباب وظروف محددة. فلا ظواهر اجتماعية أو سياسية تحدث مصادفة؛ بل لكل حادثة إنسانية علاقات سببية تربطها بمسببات موضوعية. من هنا فالحتميون لا يكتفون برصد الظاهرة، بل يفتشون عن أسبابها الأولى والأساسية.

على الصعيد السياسي اشتهر الماركسيون بنزعتهم الحتمية في التحليل. فهم يتكلمون عن الحتمية التاريخية، وعن حتمية الصراع الطبقي، مقحمين الأسباب الاقتصادية في مقدمة كل تفسير أو تحليل.

الحلولية Immanentism

مذهب وفلسفة القائلين بالحلول، بمعنى أن الله يحل في الأشخاص الحسية، وهو أيضاً الحضورية، بمعنى أن الله تعالى له حضور في الأشياء، ويشعر الإنسان بذلك، ولكنه يعجز عن أن يجعل هذا الحضور موضوع علم واضح، والحلولية انتشرت عند المسلمين وجاءتهم من الهند ومن النصرانية، فإذا كانت روح الله قد حلت في المسيح، فيمكن كذلك أن تحل في أجساد أخرى لأشخاص آخرين، الحلوليون من المسلمين قالوا: لا يمتنع أن يظهر الله تعالى في صورة بعض الكاملين، فأكملهم العترة الطاهرة، ولم يتحاشوا عن إطلاق الألوهية على أئمتهم.

وعند المتكلمين أن الله تعالى لا يحل في غيره، لأن الحلولية هو الحصول على التبعية، وأنه ينفي الوجوب الذاتي، ولم يخالفهم إلا غلاة الشيعة من النصيرية والإسحاقية وبعض المتصوفة قالوا: يحل الله تعالى في العارفين.

دوغما، العقيدة، المعتقد Dogma

المبدأ الذي يتمسك به صاحبه ويؤمن بصوابه دون الاستناد إلى دليل. ويقال العقديات Dogmatics فرع من علم اللاهوت يهدف إلى تفسير عقائد دين ما. واليقينية الجزمية Dogmatism مذهب من يؤمن بقدرته على إدراك الحقيقة، فيتصلب بالرأي ويقطع به بدون مناقشة أو تفكير، كذلك يدل على وجهة نظر مبنية على مقدمات غير ممحصة تمحيصاً وافياً.

الذاتية Subjectivism

وهو اتجاه فلسفي يرجع كل الأحكام الوجودية أو التقويمية إلى أفعال أو أحوال المرء الشعورية الفردية، وهو في المنطق النظرية التي تنكر القيمة الموضوعية للفرق بين الحق والباطل، أو التي ترجع اليقين إلى التصديق الفردي، وفي الأخلاق النظرية التي ترجع التمييز بين الخير والشر إلى التمييز

بـين السعادة الفردية والشقاء الفردي، أو إلى الانفعالات الشخصية التي تبني الأحكام الجمالية على الأذواق الفردية، وفي علم النفس تطلق على الفلسفة الـتي تدافـع عـن وجهـة الـنظر الذاتـية، والـتي تـرفض الإقـرار بـأن القـيم الموضوعية مقدمة على القيم الذاتية والأمور الشخصية.

الرواقية Stoicism

نسـبة إلى رواق Stoa بوليجـنوتس المـزدان بلوحاتـه، والمسـمى لذلـك الـرواق المصـور، بأثينا، الذي اتخذه زينون مقراً له يجتمع فيه بمريديه، فدعي أصـحابه بالرواقـيين، وأسمـاهم الإسـلاميون بأصـحاب المظلة، وأصحاب الأصطوان.

والرواقـية فلسفة أخلاقية، وفدت إلى أثينا مع الأجانب غير اليونانيين، وكـان مؤسسـها وخلفاؤه - حتى ظهور المسيح - من الآسيويين، وإن كانوا قـد تلقـوا تعليماً يونانياً. وازدهت الرواقية في القرن الثالث قبل الميلاد ودعا إلـيها زيـنون، واشـتهر مـن فلاسـفة الرواقـية ديوجـين، وبرز من فلاسفتها سـنيكا، والفلسـفة في الرواقـية هـي محـبة الحكمـة، الـتي هي العلم بالأشياء الإلهـية والإنسـانيّة. والمعـرفة عـندهم حسـيّة، ويـتماثل علمهم الطبيعي مع اعتقادهم الطبيعي، وتنشد الأخلاق الأبيقورية السلام الروحي، وتتوسل إلى ذلك بالفضيلة.

الروحانية Spirituaism

مذهـب مـن يعتـبر الـنفس غير مادية وأن الروح جوهر الوجود، ومن صـفاتها الذاتـية الفكر والحرية، وأن التصورات والظواهر العقلية والأفعال الإرادية لا تفسر بالظواهر العضوية، وأن الفرد والمجتمع ينحوان نحو غايتين، إحداهمـا متسامية وتتعلق بالروح، والأخرى دونية تتعلق بالحياة الحيوانية أو المادية والمذهب الروحاني يقابل المذهب المادي.

زندقة Heresy

مذهب الرافضين للألوهية والمنكرين للديانات.

والأصل اللغوي للكلمة فارسي، والزنادقة هم: الدهرية.

وكان ظهور الكلمة في العربية مع التفلسف في مسألة الجبر والاختيار، وكان معبد الجهني قد غالى فيه، فاتهموه بالزندقة، واتسع الاتهام فشمل الفكر التصوفي، والقول بالحلول، ووحدة الوجود، والفكر العلمي عموماً، كما عند جابر بن حيان، ثم صار الزنديق هو الذي يتحلل من الدين بالكلية، وكان من الواضح منذ البداية ارتباط الزندقة بالشعوبية، ومن أشهر الزنادقة المتقدمين: أبو علي سعيد، وأبو علي رجاء، أبو يحيى، ومن أشهرهم في الفلسفة: ابن طالوت، حماد عجرد، أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وأبو العتاهية، ابن المقفع.

السببية Causality

هي الإيمان بأن لكل ظاهرة (طبيعية أو إنسانية بسيطة أو مركبة) سبباً واضحاً ومجرداً وبأن علاقة السبب بالنتيجة علاقة حتمية بمعنى أن (أ) تؤدي دائماً بالطريقة نفسها حتماً إلى (ب).

وهي غالباً ما تغطي كل المعطيات والظواهر بشكل مطلق في كل تشابكها وتداخلها وتفاعلها. وهي تؤدي إلى التفسيرية المطلقة التي يحاول الإنسان فيها أن يتوصل إلى الصيغة (القانون العام) الذي يفسر الكليات والجزئيات وعلاقاتها.

شعور (وعي) Consciousness

يستخدم في الطب أحياناً بمعنى اليقظة والوعي، وهو يعتمد على

سلامة أجزاء بعينها من الدماغ، وبخاصة بعض أجزاء اللحاء المخي والتكوين الشبكي.

يدل الشعور في التحليل النفسي على وجود عمليات نفسية لاشعورية، وهو الفهم الذي يشير إلى خطأ يقع فيه كثيرون عندما يتصورون أن التحليل النفسي إنما يقوم بدراسة اللاشعور فحسب، إذ يقوم بدراسة الإنسان بما هو إنسان إنما يقوم بدراسة اللاشعور في علاقته بالشعور الذي يرى التحليل النفسي أنه من الناحية الوصفية صفة متأنية تميز الإدراكات الخارجية والداخلية من بين مجموع الظواهر النفسية.

الشيوعية Communism

أسس هذا المذهب كارل ماركس وفردريك إنجلز، والشيوعية هي من الأجزاء المكونة للماركسية.

وموضوع بحث الشيوعية هو القوانين التي تحكم ميلاد وتطور النظام الاقتصادي الاجتماعي الشيوعي.

وتحدد أهمية تطور العمل الاشتراكي إلى العمل الشيوعي والمحو الكامل للفروق الطبقية، ومحو الفروق في الثقافة، والتقريب على نحو أكبر بين الأمم والثقافات القومية والتقدم نحو التجانس الاجتماعي.

العرقية Racism

الاعتقاد بأن العرق هو العامل الأكثر فعالية في تقرير السمات والمواهب البشرية، وأن الفروق العرقية تولد امتيازاً فطرياً عند عرق بعينه، عرفها الإنسان منذ القدم، وأخذ بها كثير من الأمم، وتمثلت بخاصة في نظرة أبناء العرق الأبيض إلى أبناء العرق الأسود نظرة ازدراء بالغ.

ويرى الباحثون أن العرقية كنظرية في السلوك واسعة الانتشار، لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، الذي يعدّ عصر العرقية بمعناها العلمي، وما إن

انتصف ذلك القرن حتى صارت العرقية في كثير من الأوساط العلمية الغربية حقيقة لا مراء فيها.

وسرعان ماانعكست آثار هذه الحقيقة في آثار: رديارد كبلنغ، وألفرد روزنبرغ، وأدولف هتلر، وغيرهم.

وتعدّ النازية ومعها الصهيونية أحد أشكال العرقية ومظاهرها في العصر الحديث.

العقلانية Rationalism

أسلوب في التفكير والتفلسف، يقوم على العقل، وهي تعني قدرة الإنسان ، في حياته اليومية وممارسته المعرفية، على المحاكمة الواعية، بعيداً قدر الإمكان عن تسلط المشاعر والعواطف، وعلى وزن كافة الاعتبارات لصالح أو ضد الاختيار المعني، وعلى السعي لتعليل أقواله وتصرفاته.

علم الكلام Scholastic Theology

ويسمى كذلك بأصول الدين، وسماه أبو حنيفة الفقه الأكبر، ويسمى بعلم النظر والاستدلال، وعلم التوحيد والصفات، وكانت تسميته بعلم الكلام لأن عنوان مباحثه كان قولهم الكلام في كذا، ويتحقق بإدارة الكلام بين الجانبين، وموضوعه إثبات العقائد الدينية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، وما يتفرع عن ذلك من مباحث من النبوة والمعاد، وهو علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج ودفع الشبه. ويمتاز علم الكلام من علم الجدل أن الأخير لا اختصاص له بإثبات هذه العقائد، ويمتاز من العلم الإلهي باعتبار أن البحث على قانون الإسلام لا على قانون العقل. وفائدة علم الكلام وغايته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وأن تنبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها، وكان علم

الكلام إسلامياً خالصاً حتى القرن الخامس، وبعد ذلك خالطته عناصر يونانية، وامتزج بالعلوم الفلسفية. وقاوم الفقهاء فلاسفة المتكلمين، واعتبروهم من المبتدعة، ولكن المتكلمين اتجهوا هذه الوجهة الفلسفية للرد على الذين هاجموا الإسلام.

العولمة Globalization

العولمة أو الكوكبة هي مذهب القائلين بأن الرأسمالية هي ديانة الإنسانية، وأن النسبية الفكرية ستكون لها الغلبة على المطلقات الأيديولوجية، وأن مبدأ النسبية الثقافية هو المعول عليه، وليس مبدأ مركزية الثقافات، وأن العالم ينتقل حالياً ونهائياً من الشمولية والسلطوية إلى الديمقراطية والتعددية، وتشمله ثورة معلوماتية تنتشر في كل مكان، من شأنها إلغاء الحدود بين الدول بحيث يصبح من السهل انتقال الناس والمعلومات والسّلع على نطاق العالم كله، ويتم ذلك من خلال التفاعل بالحوار والمنافسة والمحاكاة. والعولمة هي رسملة العالم، وتتم السيطرة عليه في ظل هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد، وبذلك تتهافت الدول القومية، وتضعف فكرة السيادة الوطنية، ويؤول الأرفع ثقافة إلى صياغة ثقافية عالمية واحدة تضمحل إلى جوارها الخصوصيات الثقافية.

ويبدو أن النمط السائد هو العولمة الأمريكية، بمعنى أمركة العالم وسيادة الأيديولوجية الأمريكية على غيرها من الأيديولوجيات، وكانت بداية ظهور العولمة نشأة اليوروماركت ودولار ماركت، وإلغاء القيود المصرفية، وتحرير سعر الفائدة، وإدماج أسواق المال المحلية في الأسواق المالية والعالمية، ودخول نمط التصنيع للتصدير، وظهور اقتصاديات المشاريع الكبيرة، وانتقال رأس المال والتكنولوجيا، ويتطلب بذلك استثمارات ضخمة في التعليم وتنمية الموارد البشرية والبيئة التحتية. ولا شك أن للعولمة آثارها السلبية، مما يتمثل في إضعاف الشعور بالمواطنة، وظهور ولاءات أوسع من نطاق الدولة، دونما اعتبار للحدود القومية، واختفاء الدولة

القومية، والهويات العرقية، وترسيخ الانقسامات والتشرذم والتباين في الدول المختلفة وسيادة الفوضى عالمياً فيما يطلق عليه اسم المواطنة العالمية، والعولمة غير العالمية (Univarsalism) التي تعني الانفتاح على العالم، وإقرار التباين بين الثقافات والحضارات، ووسيلة العالمية الحوار بين الحضارات، أما وسيلة العولمة فهي الصدام والصراع بين الحضارات، والعولمة غزو ثقافي، واختراق للثقافات القومية، وإعدام للهوية الوطنية القومية بينما العالمية إثراء لهذه الثقافات تلاقحها حضارياً وعلمياً وتقنياً، وترسيخ الهويات. وتقوم العالمية على المساواة والندية بينما العولمة تقوم على التبعية للهيمنة والتطبيع والغزو. وربط الناس برباط عولمي من اللاوطنية واللاقومية واللادينية واللادولة وسيكون الخاسر الدول النامية.

الغنوصية (العرفانية) Gnosticism

هي اسم للمذاهب الباطنية، وغايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجود لا بالاستدلال ، ازدهرت بين القرنين الثاني وحتى الثامن الميلادي، وتشتق من الكلمة الإغريقية Gnostic بمعنى المعرفة، فهي المعرفة بالله التي يتناقلها المريدون سراً، وهي الوحي المتجدد الذي لا يتوقف أبداً، وتعددت فرقها ومدارسها. وفلسفتها توفيقية تمزج بين الديانات والأساطير والفلسفات الرائجة في منطقة أوربة والشرق الأوسط.

الفصام Schizophrenia

الفصام مرض عقلي يصنف ضمن فئة الأمراض النفسية المعروفة بالذهان، ويعتبر أكثر الأمراض الذهانية انتشاراً.

وهذا المرض يمزق العقل. ويصيب الشخصية بالتصدع، فتفقد بذلك التكامل والتناسق الذي كان يوائم بين جوانبها الفكرية والانفعالية والحركية والإدراكية، وكأن كل جانب منها أصبح في واد منفصل ومستقل عن بقية

الجوانب الأخرى، ومن هنا تبدو غرابة الشخصية وشذوذها. ومن هنا اشتق اسم المرض حيث يشير إلى أن جوانب الشخصية المختلفة تصبح مفصولة بعضها عن بعض وتفقد بهذا وحدتها وتماسكها وتكاملها.

والخصائص المميزة للفصام والعرض البارز فيها البلادة الانفعالية، فالمريض الفصامي لايكترث للحوادث التي تهز مشاعر الإنسان السوي، ولا يهتم بأصدقائه أو أسرته أو عمله، وهو يهمل نفسه فيبدو قذراً غير مهتم بمظهره، وهو لايخجل عادة.

القدرية Free Will, Libertarianism

من القُدرة بمعنى الاستطاعة، وأن الإنسان مريد لأفعاله قادر عليها. ولا يرى القدرية أن الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى، ومن ثم فأعمال الإنسان محسوبة عليه، والقدرية بهذا المعنى تعني مذهب حرية الإرادة. وكان المعتزلة قدرية، وعكسهم الجبرية. وقد ينصرف إلى قصر القدرة على العباد من دون الله، والحقيقة أن لله تعالى قدرة إبداع، وللعباد قدرة اكتساب وإبداع، وهذه قدرة ولكنها قدرة مختلفة تماماً.

القروسطية Medieralism

هي فترة انتشار الإقطاع في أوربة، من القرن (٥ ـ ١٥م) وما رافقه من سيادة اتجاه فكري، ترتبط اتجاهاته الرئيسية بخصوصات المجتمع الإقطاعي، اقتصادياً واجتماعياً وإيديولوجياً، ولاسيما بهيمنة الكنيسة على كافة مجالات الحياة الروحية.

القومية Nationalism

مبدأ إيديولوجي وسياسي ينعكس في أفكار وتصورات، تجعل من حبّ الوطن القيمة الاجتماعية الأساسية، وتعمل على زيادة ولاء الفرد

للوطن، وتنطوي القومية على الشعور بالمصير والأهداف والمسؤوليات المشتركة لجميع المواطنين.

الكوجيتو Cogito

الكوجيتو الديكارتي، نسبة إلى ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وهو اختصار للعبارة: ((أنا أفكر، وإذن أنا موجود))، وسمي كذلك لأنه يبدأ بفعل كوجيتو بمعنى أفكر، فالإنسان يستطيع أن يشكَّ في كل شيء ما عدا أنه يشك، والشك تفكير، والتفكير وجود، وإذن فأنا موجود ما دمت أفكر، وهذه حقيقة مؤكدة لا يمكن أن يخدعني عنها شيء، وهي مبدأ أول للفلسفة ومعيار لكل حقيقة.

الكينونة Entity

هي الموضوع المشخص، الذي ليس له وحدة وماهية مادّيتان، أو الموجود المقرر بكامل حقيقته.

اللاشعور Unconscious

أهم مايميز نظرية التحليل النفسي كونها نظرية في اللاشعور، والذي أصبح كشفه عنواناً على نظريات التحليل النفسي. أثبت فرويد وجود عمليات لاشعورية تقوم بدور أساسي في الحياة النفسية وتتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة النفسية الشعورية. ولقد فرق فرويد بين القبشعور والذي يسهل استدعاؤه، واللاشعور المتصل بعالم المكبوت، حيث إن جوهر عملية الكبت لاتتمثل في إلغاء أو تدمير التمثل الفكري للدافع الغريزي، وإنما منعه من أن يصبح شعورياً.

ويرى فرويد أن الحلم هو الطريق الملكي إلى اللاشعور.

ونشير إلى أن اللاشعور في ضوء نظرية الغرائز أصبح قاسماً مشتركاً في

كافة الأجهزة النفسية فهو كله لاشعوري والأنا الأعلى جله لاشعوري، بينما الأنا في جانب منه لاشعوري، وهو ذلك الجانب الذي يقوم بالتحريف والدفاعات.

اللاهوت Theology

علم العقائد، يرتبها ويصوغها في قالب علمي لتكون مركباً محكماً في ضوء العقل والوحي. ويبحث عن الوجود المطلق، وقد تكون مقدساً ويستند إلى كلمة الله المحفوظة في الكتب المقدسة، أو طبيعياً ويستند في إثبات وجود الله إلى النظام السائد في العالم الطبيعي.

اللوغوس Logos

لوغوس باليونانية تعني القول أو العقل. وفي الفلسفة مصطلح معناه الأصلي هو القانون الكلي، وأساس العلم، تحدث (هيرقليطس) عن (اللوجوس) بمعنى أنه كل ما هو أبدي ومطلق وجوهري، ووصف (هيغل) في فلسفته (اللوجوس) بأنه مفهوم مطلق.

المادية الجدلية Dialectical Materialism

النظرية العامة للماركسية، وتسمى بالمادية، لأن تصورها وتعليلها لحوادث الطبيعة والمجتمع، ماديان، وتوصف بالجدلية لأن أسلوبها في النظر إلى الأحداث، أو ما يسمى منهجها في البحث والمعرفة جدلي.

المشائية Peripatetism

هي فلسفة المشائين: أرسطو وحوارييه وأنصاره وتلاميذه، فقد كان أرسطو يعلم في مدرسته الشهيرة في منطقة الملعب الرياضي، وكان بالملعب ممشى ظليل يؤثره أرسطو وتلاميذه، ومن أبرزهم: ثيوقراسطوس،

بوديموس، وستراتو، وديودروس، وأندرونيقوس، وكان يحاضرهم ويناقشهم وهو يقطع الممشى جيئة وذهاباً، جمع بين المحاضرة والرياضة، فالفلسفة المشائية هي إذن الأرسطية. أي فلسفة أرسطو ومن أخذوا عنه، وتلقوا عليه مفاهيمه ومناهجه.

الموضوعية Objectiveness

هي إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن يشوهها نظرة ضيقة أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيزات أو حب أو كره.

وهي الإيمان بأن لموضوعات المعرفة وجوداً مادياً خارجياً في الواقع، وبأن الحقائق يجب أن تظل مستقلة عن قائليها ومدركيها، وبأن ثمة حقائق عامة يمكن التأكد من صدقها أو كذبها، وأن الذهن يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقيقة الواقعية القائمة بذاتها مستقلة عن النفس المدركة إدراكاً كاملاً، وأن بوسعه أن يحيط بها بشكل شامل، هذا إن واجه الواقع بدون فرضيات فلسفية أو أهواء مسبقة، فهو بهذه الطريقة يستطيع أن يصل إلى تصور موضوعي دقيق للواقع يكاد يكون فوتوغرافياً.

الميتافيزيقا (ماوراء الطبيعة، أو الغيب) Metaphysics

علم وراء الطبيعة، وهي تدرس المبادئ العليا لكل ماهو موجود، والتي لاتبلغها الحواس، ولا يستوعبها إلا العقل المتأمل. لكن في العصر الحديث فهمت الميتافيزيقا على أنها منهج غير جدلي في التفكير، نظراً لما تتميز به من أحادية الجانب وذاتية في المعرفة.

الهرطقة Heresy

تعني (في اليونانية الاختيار) الابتعاد عن النظرية الدينية الأصلية. وكانت الهرطقة الشكل الديني الذي كان عامة الناس يجتمعون به على

الطبقات الحاكمة في المجتمع الإقطاعي الذي كانت تؤيده الكنيسة الكاثوليكية. ومع ظهور الرأسمالية نقدت الهرطقة نضاليتها وتحولت إلى مجرد نزعة طائفية دينية.

الهلوسة Hallucination

مدركات حسية لاوجود لها في الواقع الخارجي، ففي حالة الهلاوس يحس الفرد أحاسيس ليس لها مقابل حقيقي في العالم الخارجي، أي ليست واردة من منبهات حقيقية، كأن يحس المريض بأن شخصاً معنياً يناديه أو يحادثه، وهو في هذه الحالة يراه ويسمع صوته ويتلقى عنه وينقل إليه. ويكون المريض في مثل هذه الحالات مصدقاً لكل مايحس به.

لهذا تعتبر الهلوسة من الأعراض المرضية الخطيرة شأنها شأن الهذار، يغلب أن يميزا معاً مريض الذهان.

الواقعية Realism

هي المذهب الذي يقرر للواقع الخارج عن التعقل وجوداً مستقلاً، ويقيس صدق الكلام بمطابقته للواقع، وهي بهذا المعنى تقابل المثالية.

وكانت الواقعية في العصور الوسطى تقرر للكليات وجوداً مستقلاً عن الأشياء التي تمثلها، وتقابل بهذا المعنى الاسمية والتصورية. والواقعية في الفن مذهب من يطلب من الفن أن يعكس ويعبر عن الواقع، وليس عن مثاليات متخيلة.

الوجودية Existentialism

فلسفة الوجود، ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى في ألمانية وفرنسة. وهي مدرسة فلسفية تقول بأن الوجود الإنساني سابق على الماهية؛ أي أن الإنسان صانع وجوده، بغض النظر عن أي عوامل متحكمة فيه. وأن العقل

وحـده عاجـز عـن تفسـير الكون ومشكلاته، والإنسان يستبد به القلق عند مواجهـة مشـكلات الحـياة، وأسـاس الأخـلاق قـيام الإنسان بفعل إيجابي، وبأفعاله تتحدد ماهيته، وإذن فوجوده العقلي يسبق ماهيته.

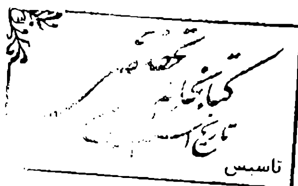
كما تؤمن الوجودية بالحرية المطلقة، التي تمكن الفرد من أن يمتع نفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه.

أثرت الوجودية تأثيراً كبيراً في الأدب والفن الحديث.

الوضعية Positivism

تيار واسع الانتشار في الفلسفة في القرن التاسع عشر والعشرين.

يـنكر أن الفلسـفة نظـرة شـاملة للعـالم، ويـرفض المشـكلات التقليدية للفلسفة (علاقة الوعي بالوجود ...إلخ) باعتبارهما (ميتافيزيقية) وغير قابلة للـتحقق مـن صـحتها بالـتجربة. ويحـاول المذهب الوضعي أن يخلق منهجاً للبحـث أو (مـنطقاً للعـلم) يقف فوق التناقض بين المادية والمثالية. وإحدى المـبادئ الأساسـية لمـناهج البحـث الوضعية النزعة الظواهرية المتطرفة، التي تذهب إلى أن مهمة العلم هي الوصف الخالص للوقائع وليس تفسيرها. لقد أسس المذهب الوضعي أوغست كونت وهو الذي أوجد مصطلح الوضعية.



مستخلص

يتضمن هذا الكتاب مبحثين لمتحاورين اثنين؛ الأول تحت عنوان ((الصوفية هي الحكمة المتحققة في الحياة؛ منظور جديد)) يقدم فيه المؤلف دراسة تأملية واعية عن التاريخ السِّرّاني غير المعلن الذي يؤدي إلى فهم المبادئ التي تتميز بالحكمة الصوفية كما يقدم دفاعاً أخلاقياً وعقلياً وإنسانياً واجتماعياً عن حقيقة المبدأ الصوفي العقلي، وعن الصوفية التي هي الحكمة الأزلية والوعي الكوني الكامنان في عمق الوعي الإنساني والمنبثان في الوجود الكلي. وتتجلى هذه الصوفية في ثلاثة مظاهر:

١) الحكمة الإلهية (ثيوصوفيا)، ٢- الحكمة المبدئية (صوفيا)، ٣- محبة الحكمة (فيلوصوفيا). ورأى أن المفاهيم التي تتميز بها الصوفية – الحكمة لا علاقة لها بالانعزال، أو الزهد الزائف، أو رفض العالم واحتقاره، والاستسلام إلى غيبيات مضللة.

وفي المبحث الثاني ((الميستية والتصوف)) يقدم المؤلف مبررات التصوف القديمة والحديثة من الناحية العقلية المنطقية، ويبين حقيقة الصوفية وعلاقتها بالنبوة وماهية الكرامات. ثم يدرس الفرق بين الميستية والتصوف في الحضارات الشرقية، ويرى أن التصوف حالة فردية وليست اجتماعية؛ فالمشاهدة الميستية منضبطة بقواعد اللاهوت الكنسي، بخلاف المشاهدة الصوفية التي لا تحدها ضوابط، فلذا تدفع باتجاه التخلف. ثم يوضح المؤلف طبيعة الميستية الغربية، ويذكر الفرق بينها وبين التصوف وعلاقة الأحوال التي يمر بها الصوفيون بالاضطرابات العصبية النفسية.

Abstract

This book involves two treatises written by two dialogists. The writer of the first treatise *"Sufism is the Wisdom Realized in Life: A New Perspective"* presents a deliberate and conscious study of the mystic non-revealed history that leads to comprehending the rules distinguished by sufistic wisdom. He also introduces a moral, mental, human and social defense of the reality of the mental sufistic principle and sufism which represents the permanent wisdom and the cosmic consciousness lying deep in the human consciousness and spreading throughout the total existence. This sufism is manifested in three apparent truths:

1) Theosophy, or the Divine Wisdom, 2) the initiative wisdom, sophy, and 3) the love of wisdom, philosophy. He also seems to see that the concepts by which sufism is characterized are: wisdom has nothing to do with seclusion, false asceticism, refusal and scorn of this world or surrender to misguiding unseen notions.

The writer of the second treatise, "Mysticism and Sufism", presents justifications for the old and modern sufism mentally and logically and states the truth of sufism and its relation to prophethood and the essence of the Divine Honors [*karamahs*]. After that, he lays a study of the difference between mysticism and sufism in the orient civilizations. He also sees that sufism is an individual, not social, state. This is because the mystic insight is restricted to the rules of the ecclesiastical theology, which is in contrast with the sufistic insight, which has no restrictions at all. Therefore, it leads humans to the direction of retardation. Then the writer elucidates the nature of the western mysticism and mentions the difference between this mysticism and sufism and the relation between the conditions that sufists pass through and the neurotic and psychological disturbances.

ندرة اليازجي

متخصص بالعلوم الاقتصادية والسياسية

من مواليد محافظة حمص ١٩٣٢

ماجستير في تخصصه من لبنان

عضو اتحاد الكتّاب العرب

أسس دار الغربال عام ١٩٧٣

له أكثر من عشرين كتاباً تأليفاً وترجمة، منها

- رسائل في حضارة البؤس
- فلسفة الإنسان الثائر
- رد على التوراة
- رد على اليهودية واليهودية المسيحية
- دراسات في المثالية الإنسانية
- تنوع الحضارات ووحدة العقل الإنساني
- رسائل في مبادئ الحياة

هاني نصري

متخصص بالدراسات الاجتماعية والفلسفية

من مواليد دمشق ١٩٤٦

دكتوراه في الفلسفة الاجتماعية من جامعة فوردهام في نيويورك

أستاذ جامعي، عمل في أكثر من جامعة عربية وأجنبية

عضو اتحاد الكتّاب العرب

له في تخصصه زهاء ثلاثين دراسة وكتاباً تأليفاً وترجمة، منها

- المسيحان والعصبية في الإسلام واليهودية
- عصبية لا طائفية
- فلسفة التصوف : طاقات وقدرات
- الوجود والموت والخلود
- نقض الإلحاد
- في سبيل علم اجتماع إسلامي
- ذهنية الإلغاء
- إشكالية الشر